نازك الملائكة

المجلس الأعلى للثقافة

الأعمال الشعرية الكاملة . الجزء الأول

- مأساة حياة
- عاشقة الليل
- أغنية الإنسان
- شظايا ورماد

نازك الملائكة

الأعمال الشعرية الكاملة

(الجزء الأول)



٢٠٠٢

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٧٦٦٧
I.S.B.N. 977 - 305 - 332 - 6

- مأساة حياة
- أغنية الإنسان
- عاشقة الليل
- شظايا ورماد



تقدمة

أ.د عبده بدوى

- ١ -

كـان كل شىء يسـاعـد على أن تكون «نازك الملائكة» مميّـزة فى عـالم الشعر، فقد عـاشت نفسيًا فى مناخ عربى كان الشعر أوضح مـلامحه، فقديمًا تنتـمى إلى المناذرة الذين استـقرّوا فى إمـارة «الحِيـرة»، وكان فى طليـعتـهم «النعمـان بن المنذر»، وحديثـا نعرف أنها كـانت وليدة ما يـسميـه ابن رشيق «البيت الشعرى[1]»،فقد كان جدّها لأمها محمد حسن كبة إماما فى الفقه، فى القـرن التـاسع عشـر وأوضح الشـعراء فـى هذا القرن، أمـا أمـها «سـليمـة عبـدالرزاق» فهى صاحبـة ديوان أنشودة المجد، ووالدها صادق مـدرس النحو كان يتعـاطى الشعر، وله أرجوزة فى أكثر من ثلاثة آلاف بيت، وصـف فيها رحلته إلى إيران عام ١٩٥٦، كما قال الشعـر خالاها: جميل وعبدالصاحب، ومن خلال هذا الـزّخم الشعرى كـان الاهتداء إلى تجـربة جديدة فى العـصر الحديث، فيـما يسمّى «الشعر الأسـرى المشترك»، فقد كـانت الشاعرة والأم، والخال عـبدالصاحب يجـتمعـون، ثم يكتب أحدهم بيـتًا كمطلع لإحـساس يشغله، ثم تمرُّ الورقة عليهم، وكل واحد يضيف بيتا على الوزن والقافية حتى تنتهى القـصيدة، والشاعـرة تقول «فتحنا أعـيننا على الشعر وأنغامـه، وقرأنا العروض معا،وعشنا صبانا نتـبادل قصائد الدعابة، وننظم الأهاجى الفكاهية، والألغاز، والتاريخ، والتشطير، والتخميس والموشح، والدوبيت، ومازلنا حتى الآن نجتمع لنظم القـصائد المشتركة، وأحـياناً نتبادل رسائـل منظومة من أولها إلى آخرها[2]».

والملاحظ أن الشاعرة قد أخلصت نفسها للشعر من وقت بعيد، وبخاصة شعر المطولات، فقد كتبت «مأساة الحياة وأغنية للإنسان» فى ثلاث صور شعرية لقصيدة واحدة، أولها قد نظم بين سنة ١٩٤٥، ١٩٤٦، وثانيهما نظم سنة ١٩٥٠، وثالثها كان عام ١٩٦٥، وهى تؤرخ لهذا العمل المركب فتقول: كنت إذ ذاك أُكثر من قراءة الشعر الإنجليزى، فأعجبت بالمطولات الشعرية التى نظمها الشعراء، وأحببت أن يكون لنا فى الوطن العربى مطولات مثلهم، وسرعان ما بدأت قصيدتى وسميتها «مأساة الحياة» وهو عنوان يدل على تشاؤمى المطلق، وشعورى بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد»[٣]، وهى متأثرة فى كل هذا بقراءة للفيلسوف الألمانى «شوبنهاور» جاء فيها: «حتام نصبر على هذا الألم الذى لا ينتهى؟ متى نتدرع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حب الحياة أكذوبة، وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت؟» بل إنها تقرر أن تشاؤمها فاقَ تشاؤم شوبنهار، لأنه - كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان، أما هى فلم تكن ترى كارثة أقسى من الموت «وذلك هو الشعور الذى حملته من أقصى أقاصى صباى إلى سن متأخرة»[٤].

والملاحظ أن الشاعرة كان عندها دائماً استعداد لقبول الجديد، والتطور، فإلى جانب الأخذ بالمطولات من البحر الخفيف الذى يجرى بين يديها كما يجرى نهر عريض فى أرض منبسطة، نراها تلاحظ أن القدامى يستعملون تفعلية الخبب (فَعِلن)، ولكنها ابتداء من أول «قصيدة حرة كتبتها عام ١٩٤٧، حولتها إلى تفعيلة (فاعلُ) وتقول: وأنا أقرُّ بأننى وقعت فى هذا الخروج من غير تعمد، وقد ألفت أن أنظم الشعر بوحى السليقة، لا جرياً علي مقياس عروضى.. ومن ثم فإن (فاعلُ) قد تسربت إلى تفعيلاتى الخببية وأنا غافلة، وحين نبهنى خالى «جميل» إلى هذا كان جوابى: إن أذنى على ما مر بها من تمرين، تقبل هذا الخروج، ولا ترى فيه شذوذا، فليس هو خطأ وقعت فيه،

وإنما هو تطوير سرت إليه وأنا غافلة، ومعنى ذلك أن (فاعلُ) لا تمتنع فى بحر «الخبب»، لأن الأذن العربية تقبلها فيه، ثم إن التفعيلتين، فعلن وفاعل متساويتان من حيث الزمن تساويًا تاما، لأن طولهما واحد، فكلتا الوحدتين مكونة من ضربتين قصيرتين، وضربة طويلة، وإنما تقع الطويلة فى مطلع (فاعل) وفى آخر (فعلن) ومن الناحية الموسيقية يستوى عدد الأجزاء فى التفعيلتين، فكلاهما يتألف من أربعة أجزاء(٥).

وفى هذا الوقت المبكر كان الاهتداء إلى «الهيكل الهرمى»(٦) الذى يمنح الأشياء بعدها الرابع، شريطة أن يتوفر فيه: التماسك، والصلابة، والكفاءة، والتعادل، بالإضافة إلى صلاحية بحر الخفيف للمطوّلات، وتقديم الجمل الطويلة دون تقطع، وعدم التقيد بقانون استقلال الشطر أو البيت، والتركيز على أن الشعر ليس موهبة وحسب، وإنما هو نظم قبل ذلك، وأخيراً فلابد من العودة إلى علم العروض والقافية والضرائر، وإلى التعرف على أساليب التكرار، ودلالته، وأخيرا فقد كان التعرف على أسلوب «البند» الذى كان غامضًا فى المسيرة الشعرية، ولم يلتفت إليه الخليل بن أحمد، ولا العرضيون من بعده، لأن الوزن فيه كان يقوم على أساس التفعيلة دون الشطر، وحقيقة الأمر أن البند خلافاً للشعر العربى كله يستعمل بحرين هما الهزج والرمل، فإذا كان القدامى يذكرون أنه يعتمد على الهزج فقط، فالقاعدة عندها للبند أنه شعر حر، تتنوع أطوال أشطره ويرتكز على دائرة (المجتلب)، مستعملاً منها الرمل والهزج معاً(٧).

المهم أن الأسرة التى عرفت بالملائكة، لما فيها من هدوء ووداعة، لاحظت أن ابنتها ستكون شاعرة، وكان أن عاملتها معاملة خاصة، وأعفتها من الأعباء المنزلية ثم كان الانتقال من المنزل القديم عام ١٩٣٠ إلى منطقة شاعرية، فالبيت يقع بين بستانين كثيفين مليئين بالأشجار الباسقة من نخيل،

وتوت، وبرتقال، ونارنج، ومشمش، وإجاص.. الخ، والشارع نفسه كان بستانا مغطى بمنطقة خضراء مخترقة بنهر... وعلى مسافة قصيرة كان نهر دجلة.

- ٢ -

أما تعلمها فقد سار فى طريقه الطبيعى، وتم تخرجها بليسانس الآداب عام ١٩٤٤، من غير مفارقة للشعر، فقد بدأت تكتب الشعر بالعامية فى سن السابعة[٨]، وفى سن العاشرة كتبت قصيدة بالفصحى، وعندما قرأها الوالد استشاط غضباً لأنها وقعت فى خطأ نحوى، وكان أن قال لها: إذهبى أولا، وتعلمى قواعد النحو، ولما كانت مدرستها لا تفرق بين الفاعل والمفعول، فقد أخذ على عاتقه تعليمها النحو، وإرشادها إلى التعرف على مراجعه ومصادره، وقد عاشت مشغولة بهذه المادة، فحين دخلت دار المعلمين العالية، اختارت فرع اللغة العربية، وحصلت على درجة الليسانس مع مرتبة الامتياز، وكانت رسالتها فى الليسانس فى موضوع نحوى هو «مدارس النحو» بإشراف الدكتور مصطفى جواد، وفى هذه الفترة أكثرت من القراءة لمحمود حسن اسماعيل، وبدوى الجبل، وأمجد الطرابلسى، وعمر أبو ريشة، وبشارة الخورى، أما أمها فما كانت تقدم على الرصافى أحداً، كما أحبت اللغة اللاتينية، وكتبت نشيداً لاتينيا بعد أن استمعت إلى أغنية مشهورة اسمها Attheballalike[٩]، كما أنها توغلت فى آداب الإنجليزية، وأحبت شللى، كما أحبت شكسبير، وترجمت إحدى سونيتاته، وفى الوقت نفسه درست الموسيقى فى معهد الفنون الجميلة، ولحنت من شعر أمها «نشيد العرب»، وكان اللحن على نغم «النهاوندى»[١٠] وهى نفسها تقول «كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفاسى إذا سمعت صوت عبدالوهاب، وأم كلثوم يحمله حاكى كان يدور فى بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ، لأى أغنية أسمعها[١١]»، وهكذا كانت

ثقافتـها ابتداء محكومـة بالعروض والموسيقى، على الرغم مما يذكـره الدكتور إبراهيم أنيس «لا يبدو من كلامها أنهـا اتصلت بدراسة الموسيقى من قريب أو بعيـد، لنعتد بآرائهـا فى الحديث عن نغمـات الشعر، وإيقـاعاته»[١٢] زد على ذلك ولعها بالموسـيقى العالمية، وبخاصة مـوسيقى «تشايكوفسكى» فقـد سمته القيثارة الإلهية، واحتفلت بذكرى مرور أربع وخمسين سنة على وفاته.

سأحـب الحياة من أجـل ألحا نك، يا بلبلى الحزين وأحيا

سأرى فى النجوم من نور أحلا مـك ظـلا مخـلداً أبديا

زد على ذلك دراستها للتمثيل لإجادة فن الالقاء[١٣]

وبعيداً عـن عالم الموسيقى نرى حـياة مليئة بالتـمزق والخوف والموت، وفقـدان السعادة، والتشكك فى وجـود المطلقات[١٤]، على نحو مـا نعرف عن مطولة (مأسـاة الحياة)، ومن ديوانها الأول (عـاشقة الليل)، ففى هذه الـفترة كانت تجتـاز عالم المراهقة، وكانت لا ترى شيئـاً إلا ويعلوه الخوف، والرحيل والموت.

ها أنا أرحـل يا أشجـار عنك تحت عبء من شرودى وخشوعى

ليتنى أجـرؤ أن ألقـى عليـك نظـــرةً ثـانية.. دون دمــــوع

آه يا أشجار، لا، لا تذكرينى فـأنا تمـثال يـــأسٍ بشـــرىّ

ليس عندى غـير آثار حنيـنى وبقـــايا من شقـــائى الأبـدى

وحين كـانت تترجم عـن الإنجليزية كـانت تـترجم ما يتـفق وحـالتهـا النفسية، كـقصيدة «البحر» للشـاعر ج.غ. بايرون، وقصيدة مرثيـة فى مقبرة ريفـية للشـاعر توماس غـرى، وقصـيدة «النهـر المغنى» للشـاعر كريســمس همفريس، وقصيدة «أسفار» للشاعر روبرت بروك، كما ترجمت عن الفرنسية لبروسبيربلانشمين وببطء تقترب من دائرة الاغتراب الاجتماعى، فتقول

وأنفر من كل ما في الوجـود وأهـربُ مـن كـل شيءٍ آراه

ففي عمق نفسي صوتُ غريب يُعلِّم قلـبي ازدراء الحياه

ويصرخ بي: اهربي. اهربي ويتعبُ إحساس روحي صداه

. .وبعد عاشقة الليل، انتشر وباء الكوليرا فى مصر، وسمعت أن عدد الموتى وصل الى مائة إنسان، فكتبت قصيدة فى الشكل القديم، ثم أعادتها، وأحست أن هذا الشكل المتوارث لا يعبر تماماً عما فى داخلها، وفى يوم الجمعة ٢٧/ ١٠/ ١٩٤٧ سمعت أن عدد الموتى وصل إلى ألف، وحين أعادت الكتابة للمرة الثالثة، قرأت ما كتبت علي أختها «إحسان»، فتحمست لما سمعت، وحين أسمعتها لأمها قالت: ما هذا الوزن الغريب؟ الأشطر غير متساوية، والموسيقى ضعيفة، وحين سمعها الوالد سخر، وقال: ما هذا الموت. الموت، الموت وكان أن ضحك الأخوة/ فقالت بتحدٍ: قصيدتي هذه ستغير خريطة الشعر العربى(١٥).

. . وفى عام ١٩٤٩ صدر ديوان «شظايا ورماد» بمقدمة وافية، أوجزت فيها نظرية عروضية لشعرها «وميزة هذه الطريقة أنها تحرر الشاعر من طغيان الشرطين فالبيت ذو التفاعيل الست الثابتة، يضطر الشاعر إلى أن يختم الكلام عند التفعيلة السادسة، وإن كان المعنى الذى يريده قد انتهى عند التفعيلة الرابعة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقوف حيث يريد، ثم إن القافية- ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت - حرمتنا من الملحمة، وأنها تضفى على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع، فضلا عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر، وتصيده للقافية(١٦).

فإذا جئنا للقصائد نرى أنها تدور فى عالم بائس وحزين ومرهق، فهى تتكلم عن الضياع، والجرح الغاضب، والأفعوان، والجحود، والأجراس

السوداء ونـهاية السلم، وأغنيـة الهاوية، وكـثير مـن الموتى، وبخاصـة موتى الكوليرا، ولعل وراء ذلك إصابتها بحمى شديدة فى هذه الفترة، أحست معها أنها عـلى حافة الـرحيل[١٧]، بالإضـافة إلى الإحـساس[١٨] الشديد بـالغربة، والانسحاب من الحـياة، وتجئ مرحلة سفرها إلى أمـريكا لدراسة النقد الأدبى فى جـامعـة «برنستن» عام ١٩٥٤ . . ثم يأتى ديوان «قـرارة الموجة» فى عـام ١٩٥٧ ، فتستمر ظاهرة الحزن، والقلق الوجودى، بل إنها تستدعى الحزن على أمها كما فى «ثلاث مراث لأمى»، وتصور لنا مـقدم هذا الحزن كما فى «مقدم الحزن»

أفسحوا الدرب إنه جاء خجـلا نَ، رقـيق الخطى، كئيبَ الجبين

الندم الحسّاس، ذو الأعين الغَرْ قَى بتاريـخ ألـف سـرٍ حزين

إنه مطــعم العــون العميقــا ت، وينبوع كل دمع سخين[١٩]

ومع أن هناك شبهة حب بائس، إلا أنه ينتهى دائمـا بالقطيعة والغياب، كما فى قـصائد «الزائر الذي لـم يجئ». و«الشخص الثانى»، و«عـندما قتلت حبى»، فـالحبيب فى كل هذا غـير مرغـوب فى زيارته، فحـتى لو جاء لكان الحلم بالزائر المستحيل، ثم إن الشخص الثانى سيمحو الشخص الأول، وحين تتم عملية القتل ستكشف أنها لم تقتل سوى نفسها:

ومع أنه قد أتيـحت لها فـرصة التأمل حين سـافرت للولايات المتـحدة للدراسة فى الخمسينيات لتكتب قصيدة بعنوان «الوصول»، ولتقول لأول مرة:

سأحب نفسى فى ارتعاش ظلالها تحيا عصور

ملأى بألوان الخيال

وهناك فى أحنائها ألقى الجمال

لكنها تعود لمحاكمة نفسها، وتواصل خط الضياع، والخوف، والانقسام على النفس

يا صمت نفسى عدتُ عدتُ إليك بعد سُرى سنين

ضاقتْ بتطوافى البحار

وشكا النهار

ما حَمَّلَتْه رؤاى من عبء الحنين

لم ألقَ غَيْرَكَ لى نصيرا

فى ظلمة الليل المضلِّ

فافتح لى الباب الأخيرا

دعنى أمر

أنا وظلى[20]

وهكذا حملت حزنها معها، وعادت به، بعد المرور على إيطاليا، وجنوب فرنسا.. وفى عام ١٩٦٧ صدر ديوان «شجرة القمر»، ونلاحظ فيه أنها بالإضافة إلى عالمها النفسى الحزين المتشائم، أضافت خطاً جديداً وطنياً، ذلك لأنها اهتمت اهتماماً خاصاً بثورة «رشيد الكيلانى» على «نورى السعيد، وعبدالإله، والإنجليز»، فقد تفجرت حماسة لتلك الثورة، ونظمت فيها عدداً من القصائد، ولكن لم يكن هناك مجال لنشرها، ذلك لأن الثورة سرعان ما انتكست، ودخل عبدالإله على دبابات الجيش البريطانى، ونصبت المشانق للأحرار، وحين نجحت ثورة ١٣ تموز عام ١٩٥٨ كتبت قصيدة «تحية للجمهورية العراقية»

فرح الأطفال بضمة حب أبويه

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمسة نسائم ثلجيه

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهوريه[٢١]

فقد أثرت فى حياتها أعنف تأثير ولكن عبدالكريم قاسم انحرف بها، فأقامت فى بيروت عاما، ثم إنها غنت لعبدالسلام عارف فى قصيدة «وردة لعبدالسلام عارف» فى مساء اليوم الذى اعتقل فيه[٢٢] وتزوجت فى منتصف عام١٩٦١ بعد العودة من الدكتور عبدالهادى محبوبة، وقد ساقها هذا الالتفات الى عالم القومية العربية، فكتبت «أغنية للأطلال العربية»، وختمتها بقولها

فيا عربىّ.. أصخ لنداء تحدَّرَ من رَحْبَةَ المدنيه

وقفْ حاسراً تحت ضوء النجوم على ربع تلك الطلول الأبيه

وقل: يا رمال الجزيرة، يالحـ ـنَ ملحمة العرب الأزليه

غداً ستعود إليك الحياة تعود مع الوحدة العربيه[٢٣]

ثم كتبت «ثلاث أغنيات عربية»، جعلت فى مقدمتها كلمة «لقد دقَّتْ ساعة العمل الثورى»[٢٤]، وكما دندنت حول فلسطين، حلمت بالوحدة العربية، فى قصيدة الوحدة العربية[٢٥]، وانتظرت إعلان الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣[٢٦]، والملاحظ أنها نغَّمت الصياغة، وحافظت عليها، وقسمت الشطر على أساس المعنى دون الوزن، وطالبت بأن يرتكز الشعر الحر على نوع من

القافية الموحدة، فذلك يزيده موسيقى وجـمالا، وهناك من يرجع لفتتها المقفّاة إلى الانتماء القومى فى هذه الفترة[٢٧]، وهى نفسها تقول: من قال إن الشاعر الموهوب يستطيع أن يبدع أى شئ فى غير الإطار اللغوى لعصره[٢٨]، والملاحظ أنها ركزت على أن فكرة الجمال فى الحياة هى بعينها فكرة الجمال فى الفنون، وأن الحـرية وراء كل منهـما، وأن مـجئ الزائر المنتـظر إذا كان يمثل الـقمـة، فتحققه ينذر بالمنحدر[٢٩].

وإذا كانـت لم تنس قضـية فلسطين، فـإن تذكرها تضـاعف فى ديوان «للصلاة والثـورة» الذى صدر عام ١٩٧٥، بعـد فترة انقطاع استـمرت ثلاث سنوات، وقد كان الدافع وراء ذلك إنها تلقت بطاقـة تهنئة بعيد الفطر، وكان مرسومـاً على البطاقة صورة لمسـجد قبة الصـخرة بالقدس، فمـا كادت ترى الصورة حتى زلـزلت زلزالاً شديداً، وأسرعت بالكتابة على ظهـر البطاقة هذه الأشطر .

يا قبة الصخره

يا وردُ، يا ابتهالةً مضيئةَ الفكره

ويا هُدى تسبيحة علويّة النبره

يا صلوات عذبَة الأصداء

جاشت بها الأبهاء

يا حُرقةَ المجهول، يا تعطُّش الإنسان للسماء

يا ولع الركوع يا طُهْره

يا وردة الخشوع، ياانداه، ياعطره

واستمر تدفقها الشعرى، وكان ديوان «الصلاة والثورة ١٩٧٨م» أما الصلاة فهى رمز الجانب الروحى فينا، هى الورود التى تنبت فى النفس الإنسانية من أثر اتصالها بالمنابع الأزلية الجميلة، منابع الله.. والثورة مرتبطة أشد الارتباط بالصلاة، وكما قالت

متى نصلى؟ إنما صلاتُنا انفجار

صلاتُنا ستُطلع النهار

تُسلّح العُزَّلَ، تعلى رايةَ الثُّوَّار

صلاتنا ستشعل الإعصار

ستزرَعُ السلاح والزنبق فى القفار

تحول اليأس إلى انتصار

«فالصلاة هنا معادل حى للقيم الثورية، والقيم الجمالية، والقيم الإنسانية، وهى تربية للروح والجسم، وإكمال لإنسانية الإنسان»[٣٠]، ثم تتعرض لقضية الشكل فهو- بصفته المطلقة- صيغة جمالية مبرأة من العيوب، سواء أكان حراً أم خليلياً، وإنما تأتى العيوب من الشعراء، هذا مع الاتفاق على أن لكل عصر لفتة مزاجية، قد تجعله يؤثر شكلا من الأشكال على سواه، هذه اللفتة ترتبط بسمة العصر الحضارية فى الأساس[٣١]، وفى هذا الديوان نجد قصيدتى «الملكة والبستان»، و«سبت التحرير»، ليستا من الشعر الحر، وإنما من البند فى صورة حديثة، وهذا يسوقنا إلى الحديث عن بحر حين كتبت عن ابنتى داليا «خضراء براقة مغدقة» ثم توقفت عند هذه العبارة، حين وجدت أن وزنها «مستفعلين. فاعلن. فاعلن» ومن هنا كانت قصيدتها «تحية للطفلة دالية»[٣٢]، وقد دار حول هذا البحر نقاش كبير، خاصة بعد أن كتبت دراسة عنوانها «ميلاد بحر جديد فى الشعر العربى»[٣٣]، وتصدى لها الدكاترة

نور الدين صمود، وعبداللطيف عبدالحليم، وعبدالعزيز الدسوقى بدعوى أن هذا الوزن وجد فى الشعر الأندلسى فى نصٍ محدود، وإن كان الدكتور شعبان صلاح قد فصل فى هذه القضية فقال «لا يستطيع الباحث المنصف أن ينحى باللاءمة على أى من الشاعرة نازك الملائكة، أو الشاعر الدكتور عبده بدوى، حين ظنا هذا الوزن مخترعاً، وليس قديما، إذ أن ما صيغ عليه فى القديم لا يعدو أبياتاً، لا تشكل ظاهرة، ولا تلفت انتباها، فضلا عن أن تقر فى وجدان شاعر مدى طويلاً، فلعل الشاعرة قرأت النموذج الأندلسى منذ زمن، ثم صاغت عليه- حين صاغت- غير واعية بأنها مسبوقة بتلك النغمة[٣٤]، وحين تحدثت معها فى هذا الشأن قالت: يعلم الله أننى لم أقرأ هذا النص القديم، وبالتالى لم أصُغ عليه، ولكن لعله المناخ العام لحضارة المشتغلين بالشعر العربى[٣٥].

وأخيراً فالشاعرة فى هذا الديوان، شغلت نفسها بما يدور فى العالم العربى، فتكلمت فى قصيدة القنابل والياسمين، عن ليلة ١٠/ ٤/ ١٩٧٣، حين اقتحم الجيش الصهيونى بيروت وصيدا، وكان نسف البيوت، وقتل ثلاثة من قادة الفدائيين، ثم هاجم مخيم الفدائيين وغادر البلاد دون أن يعترضه أحد[٣٦]، ثم تتكلم فى «اختلاجات نحو القمة البيضاء» عن الطريق المسدود أمام العرب.

كيف أهرب؟ إن طريقى مقفلْ

وستارى البليد الكثافة مسدلْ

وستارى مسدل[٣٧]

ثم تتكلم عن «سبت التحرير»، وكيف بدأت قواتنا العربية تحريرها لسيناء والجولان، وسجلت نصراً كاسحا، ولكن أمريكا تدخلت، وطالبت

العرب أن ينسحبوا إلى مواقـع ما قبل يوم السبت- ١٠ رمضان[٣٨]، وكعادتها زارت القاهرة، وحيتـها قبل حرب رمضان ثم كانت الحـرب والانفعال بها فى قصيـدة «الماء والبارود» فى ديوان «يغير ألوانه البحـر-١٩٧٧»، والتى تضفرها بكلمـة الله أكبـر، وبقصة هـاجر، والطفل إسـماعيل، والـسعى بين الصـفا والمروة، وقصـة انفجار الماء فى رمـضان لفرقـة من الجيش المصـرى فى سيناء كانت صائمة[٣٩]، ومن هنا تكون قد أدارت ظهرها وشعـرها للرموز الإغريقية على وجه الخصوص، وتكون قد دارت فى فلك جديد، هو فلك «المليك».

إننى أصعد بالنار إلى ذروة آفاق حنينى

إنني أنبذ شكى وفتونى

وإلى الشمس، إلى أعلى الذرى

يمتد جذعى وغصونى

حيث ألقى فى المدى وجه مليكى

كبياض الثلج، كالأنجم

كالفل أُلاقيه مليكى

.. حبه. حب مليكى. رحلة فى اللانهايه

وجهه يستغرق الكون، ومن آفاقه تبدأ لى كل بدايه[٤٠]

فهى قد دخلت فى عالم جديد، علمت فيـه نفسها، وتجاوزت تشككها فى المطلق[٤١]

باسمك. باسمك. باسمك. باسمك

يا ضوئى. يا عطرى. يا مجدى. يا نجمى

- ٣ -

المهم أنهـا اهتدت إلى اللجـوء إلى مـرفأ جـديد،ومن ثم كانت ابتـداء قصيدة «الهجرة إلي الله» التى تدور حول وجوده فى كل شئ، وحول وجوده فى نفسها

مليكى، أنت طعم الصيف فى عمرى

وأنت تألق الأقمار

وأنت عذوبة الواحات فى قفرى

وأنت تبلّج الأسرار

وأنت تدفقى، أنت انبثاق الضوء والعطر

نثرت الخصب واللؤلؤ فوق شواطئ الخضر

وفى روحى سكبت النار

لك الأوراد والصلوات أنثرها

فدا عينيك يا مليكى، يواقيتى أكسِّرها(٤٢)

وهذا اللجوء إلى الله يسوقها إلى اللجوء للرسول، فتقدم «زنابق صوفية للرسول»، وتكتب تصوراً للرسول فى صيغة معاصرة، بعيدة عن كل ما عرف باسم البردة ونهجها، فالرسول طائر حط قربها، وامتصَّ قلبهـا، وكان بينهما حوار، ليس مثله حوار، وليس مثله طائر.

وطارت الطير فى الصباح

ولم يطر أحمد، ظل قربى

وظللتنا سحب مبقعة بالضياء

كنا نغنى

للحب، للبحر، للسماء

تكسرت فى غنائنا الشمس، والمرافئ، واللانهايه

والمد جاء

يلثم أقدامنا، يتكسرً

أحمد. أحمد

نحن أنا وأنت والأعالى

ليل، وصمت

والله فى روحنا غناء[٤٣]

وكانت قصيدة «دكان القرائين الصغيرة»[٤٤] التى تدور حول إنسانة تبحث عن مصحف هدية لحبيبها فيقال لها فى «مندلى» وهى كلمة تساوى كلمة «يوتوبيا»، وقد سافر الحبيب دون الحصول على الهدية، وأصل هذه الكلمة أنها اسم لمدينة عراقية جميلة من مدن لواء بعقوبا، تنبت الرمان والبرتقال، وسواها من الفاكهة، ثم تكتب ميلاد نهر البنفسج[٤٥]، وبقدر ما يقترن التجاوز من العالم المادى، يكون التعامل مع النار

ففى أغصانى النشوى يكاد يسيل نَسْغُ النار

وتنطوى رمزية الرحلة الصوفية فى هذه الأسفار النارية، على ثلاثة طرق متعاقبة، أو ثلاث دوائر نارية متتابعة، ترقاها النفس من الأضيق إلى الأرحب، ومن الأدنى إلى الأعلى، فإذا وصلت النفس إلى غايتها اتصلت،

وإذا اتصلت بالكلية عن كليتها انفصلت، كما قال المتصوفة، وعلى كل فالدائرة الأولى للنار- هى الدائرة الصغرى، والهوى الأول، والحس الترابى، والدائرة الثانية هى الوسطى، حب الأرض، والوطن، والأمة، والدائرة الثالثة العليا هى دائرة المليك، الحبيب الأول والآخر(٤٦)، المهم أن الشاعرة وصلت إلى هذه الدائرة الأخيرة بعد مجاهدة، وبهذا تكون قد اتصلت ومن هنا ينتهى السفر، وتصل المجاهدة إلى غايتها الأخيرة، بالصعود صوب وجه المليك، وفى هذا المجلى الصوفى، ينسرب ما يمكن أن يسمى «النور المحمدى»، ليوازى «أبدَ الضوء» الذى يطلع من كل الجهات، فى «زنابق صوفية للرسول»، وهى نفسها لها رأىٌ فى التصوف فتقول: «تسألنى عن التصوف، ولست متصوفة، إلا إذا كان حب الله العلى القدير، يكفى وحده لاعتبار المرء متصوفاً، فأنا شديدة الحب له سبحانه، وأقضى أوقاتاً طويلة فى بعض الليالى أناجيه، وأمجده، وأتغنى بجماله، وروعة خلقه».

- ٤ -

إذا كان لها دور فى «التنظير الاجتماعى، على حد ما نعرف من كتابها «التجزيئية فى المجتمع العربى ١٩٧٤(٤٧)، فإن لها دوراً فى التنظير الأدبى، على حد ما نعرف من مقالاتها، ومن كتاب «الصومعة والشرفة الحمراء»(٤٨)، فقد أبدت إعجابها به، لأنه كتب من أوزان عربية قل استعمالها مثل المُنْسرح، ومثلت لهذا،(٤٩) ولأنه لم يستجب لدعوى المزج بين البحور إلا فى قصيدة واحدة، مزج فيها بين البحر السريع، والبحر المتقارب، ولأنه كتب من «الموشح المسترسل»، ومن «الموشح الوصفى الغنائى»، ثم كان رد اعتبارها للقافية، وإثبات أن عروضها مستمد من عروض الخليل، وإنه يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة، مجموعة قصائد خليلية وافية، ومجزوءة، ومشطورة، ومنهكة، فللشكلين مزايا وعيوب، وهى حريصة عليهما معا،

وعلى إقامة توأمـةٍ بينهما، «مع ملاحظة أننى لا أخطو خطـوة فى تقنين قاعدة إلا بعد استشاره عروض الخليل الذى خبرت مداخله ومخارجه طويلا[٥٠]».

أما دورها الواضح فى التنظير لحركـة الشعر، ففى كتابها «قـضايا الشعر المعاصر» ١٩٦٢م المُهدى لجـمال عبدالناصر، نرى المقدمـة حريصة على إثبات أن حركات التطوير تـلك إنما كانت بدافع الرغبة إلى الجديد، ولـيست تخلصاً من قسوة عمود الشعر وكـرامته، وإلا ما ذهب «المعرى» وغيره إلى الزيادة فى القيود. . كـما أن حركة الشعـر الحر مرحلة تطورية لعروض الشـعر العربى، وليست مقـتبسة عن الشعـر الغربى، وإن كانت تشبـهه فى بعض الوجوه، إذ ليس كل شبيه مسـتمدا من شبهه[٥١]، أما الشاعرة فتؤكـد ابتداء أن الشعر الحر ليس حفيداً للبند، وأن هناك قصـائد نظمت قبل عام ١٩٤٧ من الشعر الحر، ولكنها لم تتعرف عليـها، ثم إنها وضعت أربعة شروط يجب أن تتوافـر فيما قيل، وحين نحكمـها نجد أن مـا قيل قـبل عام ١٩٤٧ كان «إرهاصـات» تتنبأ بقرب ظهور حركـة الشعر الحر[٥٢]، ولعل العصر نفـسه لم يكن مهيـأ لتقبل الشكل الجديد إذ ذاك، ولذلك جرف الزمن ما صـنعوا، وانطفأت الشعلة فلم تلتهب حتى صدر «شظايا ورماد» عام ١٩٤٩، وفيه دعوتى الرسمية الواضحة إلي الشعر الحر على أن فى مـقدمة ما كان يشغلها هـو محاولة الابتكار، فمن المعروف ان بحر البسيط التام هو «مستفعلن. فاعلن. مستفعلن. فاعلن»، وأن مخلعه هو «مـستفعلن. فاعلن. فعـول» وقد لاحظت أن من الممكن أن تقسم هذا البـحـر إلى تفـعـيلتين، فى الشـطر الواحـد، بحـيث يصـبـحن هكذا «مستفـعلاتن. مستفعلاتن. مـستفعلاتن. مستـفعلاتن» وفى ضوء هذا يكون بحراً صـافياً يضـاف إلى شعر التـفعيلة، إذا أضـفنا حرفاً واحـداً على مخلع البسيط الخليلى، بحيث يصبح مستفعلن. فاعيلن. فعولن

«وأظننى قد استفدت من تفعيلات الرصافى فى استخراج هذا البحر الجديد من بحور الشعر الحر»[٥٣] وما كادت تصل إلى هذا، حتى كتبت قصيدة «زنابق صوفية للرسول»، وفى الوقت نفسه لاحظت أنها وقعت فى خطأ، لأنها كانت تقول «مستفعلاتن. فعولن. فعولن. فعولن».

ومعنى هذا، أنها كانت تنتقل من تفعيلة الرجز إلى تفعيلة المتقارب، ولكنها حين كتبت قصيدة «نجمة الدم» التزمت فيها بتفعيلة مستفعلاتن التزاما تاماً «والحقيقة أننى لا أدعو أى شاعر إلى استعمال الوزن الأول المختل، واعترف أنه حدث دون أن أنتبه خلال وهج الحالة الشعرية، وإنما جاء الانتباه بعد الانتهاء من القصيدتين: «زنابق صوفية للرسول»، و«تمتمات فى ساعة الإعدام»، ولا شئ أدافع به عن نفسى، إلا كون هذا الوزن ابتكاراً منى، ولم يستعمله الشعراء قبلى، بحيث تكون أمامي نماذج، وأكون مجهزة بتجارب»[٥٤]

- ٦ -

وهكذا كان اهتمامها باللغة العربية وتراثها الأدبى، نحواً وصرفا وإيحاء[٥٥] وأما تجديدها فى العروض فيدور فى دائرة التعقل، والمحافظة ما أمكن على العروض الخليلى، وكما أن العالم متغير فاللغة والفن لا يقبلان الجمود[٥٦]، وإنما يقبلان التجديد والتجدد، وهل الشعر، فى واقعه، إلا مقدرة الشاعر على استعمال اللغة بحيث تشع ألفاظها المعانى والظلال ،والانفعالات، وإذا كان الشاعر لا يعترف بالأساليب والقواعد الرصينة، فكيف يصون شعره من ركاكة الفوضى، وضعف الروح[٥٧]

- ٧ -

ويبقى بعد ذلك عدد من القصائد لم ينشر فى ديوانها الشعرى، ويبدأ بقصيدة «الوردة الحمراء» المليئة بالشجن، والحزن، والنهاية غير السعيدة، ثم

«نجمة الدم» التى تتحدث عن المأساة التى تعيشها لبنان، ثم «الزرقاء والمدينة» التى تتحدث عن عين مازالت تجرى فى المدينة، ولها قصة شعبية مازالت تتردد، وتستحيل إلى سوسنة ترش السلام، وطعم السكينة، فى القلوب الحزينة، ثم «القمر على مزدلفة»، ففى فترة الحج، افتتنت بطقوس جمع الصخور من وادى مزدلفة تحت ضوء القمر ليلة العاشر من ذى الحجة، فقد كان القمر ينثر مرجاناً على هذا المكان، ثم يكون حلم ليلة من ليالى رمضان، حين أصبح قلبها عصفور فجر يزقزق بين يدى الله، وكيف كان ذكره المسبحة، ووجهه المجد، ولقياه أجمل وعد، وأخيراً تأتى قصيدة «سيمفونية السجاجيد» حين تتحول المدينة إلى سجاجيد سماوية، عليها صورة الكعبة، مجرد لمسها توبة.

سجاجيد، وتهمى أدمع الإيمان آلاف الثريات، وآلاف العناقيد وينزل خالقُ الأرض إلى الأرض سجاجيد.

فى ضوء هذا تكون نازك الملائكة رائدة، وعلامة بارزة فى الشعر الحديث، وفى الوقت نفسه تكون إضافة عاقلة فى حركة التجديد والتجدد، وليس من المبالغة فى شئ، إذا قلنا بأن حياتها قد تحولت إلى شعر خالص، فهى منضبطة فى حياتها كالوزن الشعرى، وحريصة على معرفة ما عند الآخر، ثم إن فيها الحزن والعمق اللذين يعتبران جناحين للشعر، بالإضافة إلى أنها من الشعراء الذين يتعاملون مع «النبوءة»، وأية قراءة عابرة لشعرها - تاريخيا - توضح أنها كانت تحس بالآتي، وتتعامل مع القادم، فكأنها زرقاء اليمامة العصرية.

... وأخيراً... فلعل من الوفاء أن تكون بداية ريادتها بقصيدة «الكوليرا» ١٩٤٧ التى لم يتنبه لها واحد من الشعراء المؤكدين، وأن يكون هناك مشروع إعادة طبع أعمالها فى القاهرة، فالوفاء ضرورة بين الشعر وبين المدن.

ويبقى الشكر للمجلس الأعلى للثقافة الذى عهد إلىّ بتقديم وإعداد الطبعة الثانية من ديوان الشاعرة التى تحقَّقتْ لها الريادة السّاطعة ما يقرب من نصف قرن.

هوامش:

(١) العمدة ٢/٣٠٨.

(٢) قضايا الشعرالمعاصر ص ١٢٩ ط٤، وجريدة العالم العربى ١٩٤١.

(٣) مأساة الحياة وأغنية للإنسان ص٦، ولم يكن ديوانها الأول «عاشقة الليل»، قد ظهر للوجود أو طبع عام ١٩٤٧.

(٤) نفسه ص٧.

(٥) نفسه ١٢٦، ١٣٠.

(٦) نفسه ٢٣٦، وقد قدمته على الهيكل المسطح، والهيكل الذهنى.

(٧) قضايا الشعر المعاصر ١٩٦ ط٤دار العلم للملايين.

(٨) تعود للكتابة بها بين الحين والحين، كما فى قصيدة «ضيّعنا وردة»، التى ودعت بها ابنها البراق عند سفره للخارج للحصول على الدكتوراة، نظرات فى الشعر العربى الحديث. د. عبده بدوى ص ٣٢ دار قباء

(٩) أجد فى اللغة اللاتينية سحرا يجتذب كيانى كله، ولست أعرف سر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة - لمحات من سيرة حياتى وثقافتى ٧ مخطوطة- كما أنها اقتبست فى التقفية من أسلوب الشاعر الأمريكى إدجار آلان بو ٢/١٨.

(١٠) أحد مقامات الموسيقى العربية، وهى مغرمة به، ولذلك يكثر ذكره فى شعر هذه المرحلة من حياتها

(١١) لمحات من سيرة حياتى وثقافتى، بقلم الشاعرة - مخطوط

(١٢) موسيقى الشعر ص ٥٠، ٥١ ط٤

(١٣) بالإضافة إلى دراسة الميثولوجيا الإغريقية بكل تفاصيلها وإلى التعرف على الفرنسية بعد ذلك

(١٤) نازك الملائكة. مقال سالم الحمدانى ٣٠٢ .

(١٥) لمحات من سيرة حياتى للشاعرة ص٤

(١٦) ديوان نازك الملائكة. المجلد الثانى ١٠ ومابعدها ط. دار العودة

(١٧) ها أنا بين فكى الموت قلبا لم يزل راعشاً بحب الحياة
فحرام أن تدفن الآن يامـــو ت شبابى فى عالم الأموات
المجلد الأول، ٤٩٢ - ٥٠٢.

(١٨) دراسات على يد ريتشرد بلاكور، وآلن روانر، وآلن تيت، وورنالد ستاوغر،

وديلمور شوارتز، ومؤلـفاتهم معروفة في النقد الأدبى، وبعد الـعودة بدأت صلتها بمجلة الآداب والأديب، ودار العلم للملايين ببيروت.

(١٩) ثم كان موت الأم في لندن والعودة بها في رحلة لا تنسى.

(٢٠) ديوان نازك. المجلد الثانى ٣٦٩، كما كتبت هناك قصيدة لحن للنسيان

لم يا حياة

تذوى عذوبتك الطريقة في الشفاه؟

لم وارتطام الكأس بالفم لم يزل

في السمع همس من صداه؟

بالإضافة إلى قصيدة «الهاربون»

(٢١) ديوان نازك الملائكة. المجلد الثانى ص ٤٤٩ ط١

(٢٢) نفسه ٤٧٩، ٤٨٠

(٢٣) نفسه ٤٦٩ - ٤٧٣.

(٢٤) نفسه ٤٩٦-٥٠٢ الكلمة لجمال عبدالناصر، ووضعت نكاية في عبدالكريم قاسم

(٢٥) نفسه ٥٢٢-٥٢٩

(٢٦) نفسه ٥١٧

(٢٧) الشعر والنظرية عبدالجبار البصرى ص ١٧٩.

(٢٨) قضايا الشعر ٣٢٢.

(٢٩) المجلد الثانى ص ٢١٧.

(٣٠)مقدمة للصلاة والثورة.

(٣١) نفسه.

(٣٢) نفسه ١٩٢، ١٩٣.

(٣٣) مجلة الدوحة، عدد سبتمبر ١٩٧٦م ص ٢٢-٢٥.

(٣٤) موسيقى الشعر بين الاتباع والإبداع ص١٥٣ ط٢.

(٣٥) تجارب وتطبيقات في الشعر العربى الحديث ١٢٩ د/ عبده بدوى. ط ذات السلاسل.

(٣٦) للصلاة والثورة ١٣٢.

(٣٧) نفسه ١٤٨.

(٣٨) نفسه ١٦٥.

(٣٩) يغير ألوانه البحر ٢٥.

(٤٠) نفسه ١٣٤.
(٤١) غطت هذه الفترة ما بين عامى ١٩٤٨-١٩٥٥ لمحات من سيرة حياتى وثقافتى ١٩.
(٤٢) للصلاة والثورة ٦٨-٧٦.
(٤٣) يغير ألوانه البحر ٥٢-٧٣.
(٤٤) اعترض عـامر العقاد على جـمع لفظ القرآن، وقال إنه مثل كلمـة «عند» لاتجمع، لأن القرآن واحد، ولايصحّ أنْ يتـعدّد، والجواب أنهم فى العراق يستـعملون كلمة قرائين فى لفظة دارجة، فـهى لاتعنى عندهم أن كتاب الله متعـدد، وإنما تشير إلى نسخ القرآن كقولنا مصحف ومصاحف.
(٤٥) يغير ألوانه البحر ١٠٨، «كلمة مليكى أو مـلكى فى قصائد هذه الفترة يراد بها الله مالك الملك وملك الملوك.
(٤٦) مقال د. جابـر عصفور فى كتاب نازك الملائكة اعـداد د. عبدالله المهنا ص٥٨٧ ط الكويت.
(٤٧) ط دار العلم للملايين.
(٤٨) الصومعة والشرفة الحمراء. ط. دار العلم للملايين.
(٤٩) قضايا الشعر المعاصر ص١٨٧-١٩٢.
(٥٠) قضايا الشعر المعاصر ٢٧ ط٤.
(٥١) مقدمة الدكتور عبدالهادى محبوبة فى الطبعة الأولى- دار الآداب.
(٥٢) قضايا الشعر المعاصر ١٤ وما بعدها ط٤.
(٥٣) يغير ألوانه البحر ١٩١.
(٥٤) مقدمة يغير ألوانه البحر.
(٥٥) كانت ترى أن اللغةكـانت يوما موحية، ثم ابتليت بـحيل المحنطين، ومن ثم كانت دعوتها إلى الإيحاء حديثا، فهو جزء لا يتجزأ من حيوية اللغة والشعر.
(٥٦) الله هو الثبات الوحيد المطلق، قضايا الشعر ٢٩.
(٥٧) نفسه ٢٢١.



لمحات
من سيرة حياتي وثقافتي

نازك الملائكة

وُلدتُ فى بغداد فى ٢٣ من شهر آب (أغسطس) سنة (١٩٢٣)، وكنت كبرى إخوتى وهم: أربع بنات، وولدان.

وقد تدرجت فى دراستى من الابتدائية إلى المتوسطة فالثانوية، وتخرجت فى الثانوية عام ١٩٣٩، وكنت، منذ صغرى، أحب اللغة العربية، والإنجليزية، والتاريخ، ودروس الموسيقى، كما كنت أجد لذة فى دراسة العلوم، بخاصة علم الفلك، وقوانين الوراثة، والكيمياء، ولكنى أمقت الرياضيات مقتًا شديدًا، وأعد السنين يومًا يومًا لأصل إلى إنهاء مرحلة الثانوية، فأتخصص بدراسة الآداب، ثم دخلت دار المعلمين العالية، فرع اللغة العربية، وخرجت منها بليسانس الآداب عام ١٩٤٤ من مرتبة الامتياز، وهى أعلى مرتبة تمنح، وخلال سنوات دراستى فيها تعرفت إلى موضوع الفلسفة، وأحببته حبًا شديدًا، فساعدنى على تكوين ذهن منطقى، وكانت دراساتى الكثيرة للنحو العربى، فى أصوله القديمة، قد هيأتنى له تهيئة واضحة، وقد بدأت نظم الشعر وحبه منذ طفولتى الأولى، والواقع أننى سمعت أبوىّ وجدى يقولون عنى إننى «شاعرة» قبل أن أفهم معنى هذه الكلمة، لأنهم لاحظوا علىّ التقفية، وأذنًا حساسة تميز النغم الشعرى تمييزًا مبكرًا. وبدأت بنظم الشعرى العامى، قبل عمر سبع سنوات.

وفي سن العاشرة نظمت أول قصيدة فصيحة، وكانت فى قافيتها غلطة نحوية، وعندما قرأها أبى رمى قصيدتى على الأرض بقسوة، وقال لى، فى لهجة جافية مؤنبة: «اذهبى أولاً، وتعلمى قواعد النحو. . ثم انظمى الشعر»، وكانت معلمة النحو فى المدرسة لاتميز الفاعل من المفعول، وسرعان ما اضطر أبى إلى أن يتولى تعليمى قواعد النحو بنفسه حين دخلت المتوسطة، وفى ظرف شهر واحد تفوقت على الطالبات جميعًا، وصرت أنال أعلى الدرجات.

ولاحظ أبواى أننى موهوبة فى الشعر، شديدة الولع بالمطالعة، فأعفيانى من المسؤوليات المنزلية، والعائلية إعفاء تامًا، وساعدنى ذلك على التفرغ، والتهيؤ لمستقبل أدبى، وفكرى خالص.

وكانت والدتى، فى سنوات الشعرية المبكرة، تنظم الشعر، وتنشره فى المجلات، والصحف العراقية، باسم السيدة «أم نزار الملائكة» وهو اسمها الأدبى الذى عرفت به، أما أبى فكان مدرس النحو فى الثانويات العراقية، وكانت له دراسة واسعة فى النحو، واللغة والأدب، وقد ترك مؤلفات كثيرة أهمها موسوعة فى عشرين مجلدًا، عنوانها «دائرة معارف الناس» اشتغل فيها طيلة حياته، واعتمد فى تأليفها على مئات المصادر، والمراجع، ولم يكن أبى شاعرًا، ولكنه كان ينظم الشعر، وله قصائد كثيرة، وأرجوزة فى أكثر من ثلاثة آلاف بيت؛ وصف فيها رحلة قام بها إلى إيران عام ١٩٥٥ . وكان أبى متواضعًا، ولم يرض يومًا أن يسمى نفسه شاعرًا، مع سرعة بديهته، وقدرته على الارتجال، وظرفه.

وكان لأبوىّ تأثير عميق فى حياتى الفكرية، والشعرية. أما أبى، فقد بقى أستاذى فى النحو حتى أنهيت دراسة الليسانس، وكنت أهرع إليه، بكل مشكل نحوىٍ يعرض لى، وأنا أقرأ ابن هشام، والسيوطى، والأشمونى، وسواهم، والحق أنى كنت، ولم أزل، شديدة الولع بالنحو.

وقد فرش لى أبى طريـقًا ممهدًا رائعًا، حين وضع بين يدى مكتـبته التى كانت تحـتوي على مـتون النحو، وكـتب الشواهد جمـيعًـا، ولذلك كان من الطبيـعى، تمامًا، أن أكون الطالبـة الوحيدة بين طلبـة قسم اللغة العـربية التى اختارت رسالة لمرحلة الليسانـس فى موضوع نحوىّ، هو : (مدارس النحو)، وكان المشرف عليها أستاذى الكبير العلاّمة الدكتور مصطفى جواد الذى كان له فى حيـاتى الفكرية أعمق الأثر، رحمـه الله، وجزاه عنا نحن تلاميـذه أجمل الجزاء، ولم تزل رسالتى هذه فى مكتـبة كلية التربية، وعليهـا تعليقات بالقلم الأحمر، كتبها الدكتور مصطفى عبدالجواد فى حينه.

أما والدتى، فـقد كان لهـا أثر واضح فى حياتى الشـعرية، لأننى كنت أعرض عليها قـصائدى الأولى، فتوجه إليها الـنقد، وتحاول إرشادى، ولكنى كنت أناقشها مناقشة عنيدة، فقد لاح علىّ، منذ مرحلة الثانوية، التأثر بالشعر الحديث؛ شعر مـحمود حسن إسماعيل، وبدوى الجـبل، وأمجد الطرابلسى، وعمر أبو ريشة، وبشـارة الخورى، وأمثالهم، بينما كانت هـى تعجب بشعراء أقدم مثل: الزهاوى خصوصًا. فقد كان شاعرها الأثير، وكان اهتمامها بالشعر القديم أكبر من اهتمامى، ولذلك كان تأثيره فى شعرها أبرز، ولكن ذوق أمى نفسـها بدأ يتطور، كمـا يلاحظ من يدرس شعرها الذى طبـعتُ المنشور منه، بعد وفاتها، فى ديوان سميته «أنشـودة المجد» وقد بدأت أمى تتجه نحو الشعر الحديث إلى درجة ملحـوظة، وكانت تعجب خصوصًـا بشعر إبراهيم ناجى، وصالح جودت، ولكن اتجاهاتـى الشعرية بقيت مختلفة عن اتجـاهاتها، بسبب معرفتى للإنجليزية، والفرنسية وكثرة قراءتى لشعرائهما.

ورغم ذلك فقد بقينا، أنا وهى، صديقـتين، فكانت تقرأ لى قصائدها، وأقرأ لها قـصائدى، حتى وفاتها عـام ١٩٥٣، وهى فى الثانية والأربعين من العمر، رحمها الله رحمة واسعة.

وخـلال دراستى فى دار المعلـمين العاليـة، كنت أسـاهم فى حفـلات الكلية، بإلقـاء قصائدى، وكـانت الصحف العراقـية تنشر تلك القـصائد فى حينها. غير أنى أهملت هذا الإنتاج المبكر، ولم أدرج منه شيئًا فى مجموعاتى الشعـرية المطبوعـة، لأننى بقيت أنظر إليـه على أنه شعر الصـبا قـبل مرحلة النضج، والواقع أننى أقبلت على نظم الشعر إقبالاً شديدًا منذ عام ١٩٤١ يوم كنت طالبـة فى الكليـة. فقـد دخلت فى ذلك العـام بداية نضـجى الروحى والعاطفى والاجتماعى، فضلاً عن أنه العام الـذى شهد ثورتنا القومية العظيمة التى هزت كيـانى هزًا عنيفًـا وهى ثورة رشيد عـالى الكيلانى، وكنت أتفـجر حماسة لتلك الثـورة ونظمت حولها القصائد المتحمـسة التى لم أنشر منها أى شيء: فـسرعـان ما انتـصـر الحكم البوليـسى فى العـراق، ونصبت المشـانق للأحـرار، ولم يعـد فى العـراق مـن يسـتطيع التنفس، ولكـننا، أنا وأمى، استمررنا ننظم القصائد الثائرة سرًا، ونطويها فى دفاترنا الحزينة.

وفى عام ١٩٤٧ صدرت لى أول مجموعة شعرية، وقد سميتها (عاشقة الليل) لأن الليل كـان يرمز عندى إلى الشعـر، والخيـال، والأحلام المبهـمة، وجمال النجوم، وروعة القمر، والتماع دجلة تحت الأضواء، وكنت فى الليل أعزف على عودى فى الحديقة الخلفيـة للبيت بين الشجر الكثيف، حيث كنت أغنى ساعات كل مساء، وقد كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفـاسى إذا ما سـمعت صوت عـبدالوهاب، أو أم كلثوم يـحمله إلىّ جهاز حاكٍ (غرامافون) يدور فى بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ لأى أغنية أسمعها، وكـانت أمى لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندمـا تسمعنى أغنى، وما زلت أذكر صوتها فى صغرى وهى تتلفت، وتقول: يا إلهى! من أين حفظت ابنتى كل هذه الأغانى؟ ومتى سمعتها؟ وكيف؟ ولم تدر أننى كنت حين أسمع حاكيًا يدور بأغنية أقف مسمرة فى مكانى حتى لو كنت فى الشارع. وفى تلك

الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحياة فى العراق طبعًا، فكان الاستماع إلى الأغانى لايتم إلا عن طريق الإسطوانات، ولم تبدأ إذاعة بغداد بالبث إلا فى سنة ١٩٣٥ ، كما أتذكر، يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر.

وبعد صدور (عاشقة الليل) بأشهر قليلة انتشر وباء الكوليرا فى مصر الشقيقة، وبدأنا نسمع الإذاعة تذكر أعداد الموتى يوميًا، وحين بلغ العدد ثلاثمائة فى اليوم انفعلت انفعالاً شعريًا، وجلست أنظم قصيدة استعملت لها شكل الشطرين المعتاد، مُغيِّرةً القافية بعد كل أربعة أبيات أو نحو ذلك، وبعد أن انتهيت من القصيدة، قرأتها فأحسست أنها لم تعبّر عما فى نفسى، وأن عواطفى ما زالت متأججة. وأهملت القصيدة وقررت أن أعتبرها من شعرى الخائب (الفاشل) وبعد أيام قليلة ارتفع عدد الموتى بالكوليرا إلى ستمائة فى اليوم، فجلست، ونظمت قصيدة شطرين ثانية أعبر فيها عن إحساسى، واخترت لها وزنًا غير وزن القصيدة الأولى، وغيرت أسلوب تقفيتها ظانة أنها ستروى ظمأ التعبير عن حزنى، ولكننى حين انتهيت منها شعرت أنها لم ترسم صورة إحساسى المتأجج، وقررت أن القصيدة قد خابت كالأولى، وأحسست أننى أحتاج إلى أسلوب آخر أعبر به عن إحساسى وجلست حزينة حائرة لا أدرى كيف أستطيع التعبير عن مأساة الكوليرا التى تلتهم المئات من الناس كل يوم.

وفى يوم الجمعة ٢٧/ ١٠/ ١٩٤٧ أفقت من النوم، وتكاسلت فى الفراش أستمع إلي المذيع وهو يذكر أن عدد الموتى بلغ ألفًا، فاستولى علىّ حزن بالغ، وانفعال شديد، فقفزت من الفراش، وحملت دفترًا، وقلمًا وغادرت منزلنا الذى يموج بالحركة، والضجيج يوم الجمعة،وكان إلى جوارنا بيت شاهق يُبنى، وقد وصل البناؤون إلى سطح طابقه الثانى، وكان خاليًا لأنه يوم عطلة العمل، فجلست على سياج واطئ، وبدأت أنظم قصيدتى المعروفة

الآن «الكوليرا». وكنت قد سمعت فى الإذاعة أن جثث الموتى كانت تحمل فى الريف المصرى مكدسة فى عربات تجرها الخيل، فرحت أكتب وأنا أتحسس صوت أقدام الخيل:

سكن الليل
أصغ، إلى وقع صدى الأنات
فى عمق الظلمة، تحت الصمت، على الأموات

ولاحظت فى سعادة بالغة أننى أعبر عن إحساسى أروع تعبير بهذه الأشطر غير المتساوية الطول، بعد أن ثبت لى عجز الشطرين عن التعبير عن مأساة الكوليرا، ووجدتنى أروى ظمأ النطق فى كيانى، وأنا أهتف:

الموت، الموت، الموت،
تشكو البشرية تشكو ما يرتكب الموت

وفى نحو ساعة واحدة انتهيت من القصيدة بشكلها الأخير، ونزلت ركضًا إلى البيت، وصحت بأختى "إحسان" انظرى لقد نظمت قصيدة عجيبة الشكل أظنها ستثير ضجة فظيعة، وما كادت إحسان تقرأ القصيدة - وهى أول من قرأها - حتى تحمست لها تحمسًا شديدًا، وركضت بها إلى أمى فتلقتها ببرودة، وقالت لى: ما هذا الوزن الغريب؟ إن الأشطر غير متساوية، وموسيقاها ضعيفة يا بنتى، ثم قرأها أبى، وقامت الثورة الجامحة فى البيت؛ فقد استنكر أبى القصيدة، وسخر منها واستهزأ بها على مختلف الأشكال، وتنبأ لها بالفشل الكامل، ثم صاح بى ساخراً «وما هذا الموت الموت الموت؟»

لكل جديد لذة غير أننى   وجدت جديد "الموت" غير لذيذ

وراح إخوتى يضحكون وصحت أنا بأبى «قل ما تشاء»، إنى واثقة أن قصيدتى هذه ستغير خريطة الشعر العربى، وكنت مندفعة أشد الاندفاع فى

عبارتى هذه، وفى أمثال لها كثيرة قلتها رداً على التحدى بالتحدى، ولكن الله سبحانه وتعالى كان يسبغ علىّ رحمته فى تلك اللحظات الحرجة من حياتى الشعرية، فكتب لقصيدتى أن يكون لها شأن كما تمنيت وحلمت، فى ذلك الصباح العجيب فى بيتنا.

ومنذ ذلك التاريخ انطلقت فى نظم الشعر الحر، وإن كنت لم أتطرف إلى درجة نبذ شعر الشطرين نبذاً تاماً، كما فعل كثير من الزملاء المندفعين الذين أحبوا الشعر الحر، واستعملوه بعد جيلنا.

وفى عام ١٩٤٩ صدرت ببغداد مجموعتى الشعرية الثانية (شظايا ورماد)، وقد صدرتها بمقدمة أدبية ضافية عرضت فيها موجزاً لنظرية عروضية لشعرى الجديد الذى نشرت منه فى المجموعة عشر قصائد؛ وما كاد الكتاب يظهر حتى أشعل ناراً فى الصحف، والأندية الأدبية، وقامت حوله ضجة عنيفة، وكتبت حوله مقالات كثيرة متلاحقة، كان غير قليل منها يرفض الشكل الجديد الذى دعوت إليه، ويأباه للشعر، غير أن الدعوة لقيت أروع القبول فى الأوساط الشعرية الشابة، فما كاد يمضى عام حتى كان صدى الدعوة قد تخطى العراق إلى خارجه، وبدأت أقرأ فى المجلات الأدبية فى مصر، ولبنان، وسوريا، وسواها قصائد من الشعر الحر، كان غير قليل منها يحمل لافتات إهداء نثرىّ: "إلى الشاعرة نازك الملائكة".

* * *

فى عام ١٩٤٢ بلغ نشاطى الشعرى واللغوى، والفنى، والأدبى أوجه، فاندفعت أطلب الثقافة، والعلم فى نهم لايرتوى، وحرارة لا تنطفئ، ففى السنة نفسها سجلت نفسى طالبة فى فرع العود بمعهد الفنون الجميلة، ودخلت طالبة فى فرع التمثيل، وانتميت إلى صف لدراسة اللغة اللاتينية، وكنت إذا

ذاك - فوق هذا كله - طالبة فى السنة الثانية من دار المعلمين العالية، وقد وهبت نفسى، فى حرارة لا مثيل لها، إلى هذه الدراسات كلها، وكنت أحبها أشد الحب.

أما العزف على العود فقد كان أمنيتى منذ صغرى، وحين رأى أبى حرقة تشوقى إلى هذه الدراسة، وافق بعد تردد طويل على أن أدخل معهد الفنون الجميلة لأدرس على الفنان الكبير الموسيقار الأستاذ محيى الدين حيدر الذى كان اسمه الفنى فى المعهد: «الشريف»، ولهذا الفنان طريقة فريدة فى العزف، والتدريس عليها أثر موهبته الفنية العظيمة، وله فى العراق اليوم تلاميذ معروفون من الموسيقيين، من مثل الأستاذ سلمان شكر، والأستاذ جميل بشير، وسواهما. وكانت مدة الدراسة ست سنوات، والمنهج يقوم على تدريسنا المقامات الشرقية على بشارف وسماعيات، وسواها، وكان الطالب يتدرج حتى يصل إلى قمة المهارة الفنية فى عزف مقطوعات الشريف محيى الدين التصويرية الرائعة مثل: «تأمل» و«ليت لى جناحًا» و«كابريس». وكان للشريف، يرحمه الله، مزاج فى العزف، فكان يغير، ويعدل فى البشارف، والسماعيات التى ألفها كبار الموسيقيين، من مثل: طانيوس أفندى، وجميل بك، وعزيز دده، ويوسف باشا، وكانت هذه التعديلات تجمل الأصل أروع تجميل، وتخرجه إخراجًا حيًا، وكنت أنا أجلس فى صف العود مسحورة، وكأنى أستمع إلى صلاة، وكان الشريف يكرر علىَّ أن لى سمعًا موسيقيًا حساسًا، وموهبة ظاهرة، ولكنه كان خائفًا علىَّ أن يجرفنى حبى للشعر ويبعدنى عن الموسيقى على أى شكل من الأشكال، ورغم أننى ما زلت، حتى اليوم، أعزف لنفسى لكى يصحبنى العود، وأنا أغنى ألحان عبدالوهاب، وأم كلثوم، وفيروز، وعبدالحليم حافظ، ونجاة. وهو انصراف محدود، غير ما كان أستاذى يتوقع منى، ولعله كان ينتظر أن أكون عازفة مشهورة فى الإذاعات ومؤلفة ألحان.

وأما دراستى للتمثيل، فالحق أنه كان لى فيها دافعان اثنان.

أولهما أن أتعلم فن الإلقاء، فقد كنت أرتقى المسرح لألقى قصائدى فأقرأها قراءة رتيبة دون أن أعرف كيف ألوّن صوتى بالانفعال، وأرفعه، وأنغمه مع معانى قصيدتى، وقد خطر لى أن دراسة التمثيل ستساعدنى فى هذا المجال. والدافع الثانى أننى اطلعت على منهج الدراسة فى هذا الفرع فبهرنى. كان منه دراسة مفصلة مسهبة للميثولوجيا الإغريقية، بكل تفاصيلها الدقيقة، ومداخلها، ومخارجها. وكان موضوع «تاريخ المسرح والأدب المسرحى» للسنة الثانية يشمل دراسة إسخيلوس، وسوفوكليس، ويوربيديس، وأريستوفان، وكنت أعلم مدى غنى الأدب اليونانى، ومدى ضرورته للممثل، والدارس، فاندفعت فى حرارة أسأل أبى أن يأذن لى بدخول فرع التمثيل، وقد رفض أبى أولاً، ولكن الله سبحانه شاء أن يشملنى برعايته، فإذا أبى يُكلَّف بتدريس اللغة العربية فى فرع التمثيل، وعندما وجد أننى سأكون تلميذة له أخذنى معه إلى الأستاذ حقى الشبلى المسؤول عن الفرع، وسجلنى طالبة، واكتملت سعادتى.

وأما اللغة اللاتينية فإن قصة دراستى لها كانت أغرب، فقد كننت طالبة فى قسم اللغة العربية، وكنا ندرس اللغة الإنجليزية، وصادف أن أستاذنا أشار فى الصف، مراراً، إلى ضرورة معرفة اللغة اللاتينية لمن يريد التخصص فى الأدب الإنجليزى، فشوقنى ذلك إلى دراستها، وبقيت هذه الرغبة عابرة فى نفسى حتى سمعت فى آخر العام الدراسى ١٩٤١- ١٩٤٢ أن إدارة الكلية قررت إضافة مادة اللغة اللاتينية إلى منهج طلبة السنة الأولى، فرع اللغة الإنجليزية، وهنا بدأت لهفتى، أردت - بأى ثمن- أن أنتمى إلى هذا الصف لأتعلم اللغة اللاتينية، وراجعت أستاذ المادة فاعتذر عن قبولى فى الصف، وسألنى مندهشا: «ولكنك طالبة فى قسم اللغة العربية، فماذا تنفعك

اللاتينية؟» ولم يوهن هذا عـزيمتى، وراجعت عميد الكـلية، ورجوته أن يأذن لى بالدراسة مع طلبة الإنجليزية، عندما رأى العميد لهفتى سمح لى، وانتميت إلى صف اللغة اللاتينية، وبدأت أحفظ، بحـماسة، تلك القوائم التى لاتنتهى من حالات الأسـماء وفصائلهـا، وتصريفات الأفـعال، وسواها مما يعتـبر من أصعب ما يعرفه طلبة اللغات.

وقد بقى حب اللغة اللاتينية فى دمى حـتى اليوم، وما زلت أقتنى كتب الشعـر اللاتينى، وأحاول أن أقرأها كلمـا وجدت فراغا، وأتذكـر أننى، بعد شهرين من بدئى لدراسة هذه اللغة، أصبحت أكتب مذكراتى بها، كما نظمت نشيدًا لاتيـنيًا على نغمة الأغنيـة المشهورة (At The Ballalika). وكان من الطبيعى أن يكون النشيد بدائيا ساذج الصيغة، فقد كنت لم أزل طالبة مبتدئة، ولقـد واصلت دراسة اللغـة اللاتينيـة سنوات كثـيرة وحـدى من دون أستـاذ بمساعدة القواميس، ثم دخلت صفا فيـها فى جامعة برنستن بالولايات المتحدة درسنا فيه نصوصًـا للخطيب الرومانى شيشرون، وقد أعجـبت أشد الإعجاب بشعر الشاعـر اللاتينى «كوتولوس»، وحفظت مجموعـة من القصائد له، وما زلت أترنم بها أحيانًا فى وحدتى، فأجد سعادة بالغة فى ترديدها. والواقع أنى أجد فى اللغة اللاتينية نفسها سحرا يجتذب كيانى كله، ولست أعرف سر هذا الافتتان بلغة يكرهها الطلبة عادة، وينفرون منها أشد النفور.

وفى عـام ١٩٤٩ بدأت بدراسة اللغـة الفرنسـية، فى البـيت، مع أخى الذى يصغرنى: نزار وكان إذ ذاك طالبًـا فى قسم اللغة الإنجليزية بدار المعلمين العالية، وكـان له ولع شديد بالأدب، واللغات، وهو شاعـر أيضًا، وإن كان مقلاً، وكانت تربطنى به صداقة عميـقة، وكنا نشترك أنا وهو فى غرفة واحدة تنتشر فيها الكتب على سـريرينا، وطالما قام الجدل بيننا فى موضوعات الأدب والحياة.

بدأنا إذن، أنا ونزار ندرس الفـرنسية من دون مـدرس، وذلك اعتـماداً على كتاب إنجليزى يعلم هذه اللغة، أهدانا إياه عمى، وقد سعدنا سعادة بالغة بتعلم هذه اللغة الجميلة، وواصلنا تعلمها حتى أصبحنا نقرأ فيها كتب الشعر، والنقد، والفلسفة، وفى عام ١٩٥٣ دخلت دورة فى المعهد العراقى، قرأنا فيها نصوصًا من الأدب الفـرنسى، من مثل قصص: ألفونـس دوديه، وموباسان، ومسـرحيات موليـير، ولكن نطقى بهـذه اللغة بقى رديئًا حـتى اليوم، لأننى تعلمتهـا من دون أستاذ يلفظ أمامى الكلمات، ولم تتح لى فرصـة للسفر إلى فرنسا، والحيـاة فيها فترة، وهذا ما يحزننى دائمًـا حين أجدنى أقرأ، وأفهم، ومع ذلك لا أحسن الكلام، ولا النطق الصحيح.

أمـا الأدب الإنجليزى فـقـد بدأت عنايتى به وأنا طالبـة فى دار المعلمين العالية يوم كنا نقرأ شعر شكسبير (Sonnets) ومسرحية «حلم منتصف ليلة صيف»، وقد ترجمت إلى الشعر العربى إحـدى سونيتات شكسبير، إذ ذاك. وأقبلت بعد ذلك على قراءة شـعر بايرون، وشيللى. وفى عام ١٩٥٠ دخلت دورة فى المعهد الثقافى البريطانى لدراسـة الشعر الإنجليزى، والدراما الحديثة، استعداداً لأداء امتحان تقيمه جـامعة كامبردج وتمنح بعده شهادة الـ(PROFI-CENCY)، وكان مسـتوى هذه الدراسة أعلى من ليسانـس اللغة الإنجليزية، لأن طالبة متـفوقة فى السنة الرابعة من فرع اللغـة الإنجليزية دخلت معى هذه الدورة، فكانت النتيجة أنها رسبتْ، ونَجحتُ. وكان سر نجاحى أننى انهمكت طيلة العام فى قراءة عشرات من كتب الشـعر، والدراما، فى حماسة، ونهم، والواقع أن أغلب الذين اشـتركوا فى الامـتحان مـعنا قد رسـبوا، ولم ينجح سـواى وسوى طالب واحـد خـارجى لم يشتـرك مـعنا فى الدراسـة بالمعهـد البريطانى، وكان لهـذا الامتحان امتحان ثـان أعلى منه تقيمه جامعـة كمبردج نفسـها، ولكنى لم أقدمـه، وإنما سافرت إلـى الولايات المتحدة لدراسـة النقد الأدبى.

وكانت هذه المرحلة تمتد عامًا، وقد أوفدتنى إليها مؤسسة روكفلر الأمريكية، واختارت لى أن أدرس النقد الأدبى فى جامعة برنستن فى نيو جيرسى بالولايات المتحدة، وهى جامعة رجالية ليس فى تقاليدها دخول الطالبات فيها، ولذلك كنت الطالبة الوحيدة، وكان ذلك يثير دهشة المسؤولين فى الجامعة كلما التقى بى أحدهم فى أروقة المكتبة، أو الكليات، وقد أتيحت لى فى هذه الفترة الدراسة على أساطين النقد الأدبى فى الولايات المتحدة، من مثل ديتشرد بالاكمور، وآلن دوانر، وآلن تيت، ودونالد ستاوفر، وديلمور شوارتز، وكلهم أساتذة لهم مؤلفات معروفة فى النقد الأدبى، كما عرفوا بأبحاثهم فى مجلات الجامعات الأمريكية، وسائر الصحف الأدبية.

* * *

بعد عودتى إلى العراق عام ١٩٥١ بدأت أتجه إلى كتابة النثر بخاصة فى النقد الأدبى وفى عام ١٩٥٣ ألقيت محاضرة فى نادى الاتحاد النسائى ببغداد كان عنوانها (المرأة بين الطرفين: السلبية، والأخلاق) انتقدت فيها أوضاع المرأة الحاضرة، وعقم المجتمع العربى، ودعوت إلى تحرير المرأة من الجمود والسلبية، وقد أثارت هذه المحاضرة ضجة فى بغداد، وتحدثت عنها المحافل طويلا بخاصة وأن إذاعة بغداد نقلتها كاملة، وأذاعتها على الجمهور . وسرعان ما نشرتها مجلة (الآداب) البيروتية التى كانت تصدرها إذ ذاك دار العلم للملايين.

وواصلت خلال ذلك نظم الشعر ونشره، ونشر مقالات النقد الأدبى فى مجلتى (الأديب) و(الآداب) ببيروت.

وفى عام ١٩٥٣ حدث لى حادث هز حياتى إلى أعماقها، فقد مرضت والدتى مرضًا مفاجئًا شديدًا، وقرر الأطباء ضرورة إجراء عملية جراحية لها فى لندن فورًا، ولم يكن فى بيتنا من يستطيع السفر معها إلى إنجلترا سواى،

بسبب معرفتى للندن، وحياتى فيها فترة وبسبب إتقانى للغة الإنجليزية - وكان نزار قد سافر إلى الولايات المتحدة للدراسة. كل هذا اضطرنى إلى أن أصحب أمى المريضة أشد المرض إلى لندن على عجل، والرعب مُستَوْلٍ علىّ، فقد كنت خائفة فى أعماقى من شىء رهيب سيقع لى لم أشخصه، وقبل سفرى بأسبوع حلمت أننى أسير فى شوارع لندن وأحاول شراء تابوت ملون، وأبحث، أبحث، وأبحث فى لهفة ورعب فلا أجد من يبيعنى تابوتًا، ولم أقص حلمى هذا على أحد فى البيت، وسافرت بها، وتم إدخالها إلى غرفة العمليات، وخرجت منها محمولة على نقالة حيث أودعوها فى عنبر الموتى بالمستشفى ريثما تتم إجراءات الدفن المعقدة، وقد رأيتها، وهى تحتضر فى مشهد رهيب هز حياتى إلى أعماقها، وكان علىَّ أن أحضر مشاهد الجنازة والدفن وأنهض بأعبائها، وهى أعمال لم أعتد القيام بمثلها، وعدت إلى العراق بعد أسبوعين ذابلة حزينة مهزوزة النفس، فقد كنت أحب أمى حبًا شديدًا لا مثيل له، وما كدت أرى إخوتى، وأقاربى يلبسون السواد وهم يستقبلوننى فى مطار بغداد حتى بدأت أبكى، وأبكى بكاء لا ينقطع ليلاً ولا نهارًا، وسرعان ما لاح لى بوضوح أننى مريضة، فبادرت إلى مراجعة طبيب عالجنى بالحبوب المهدئة، فتوقفت دموعى، وإن بقى الحزن يحفر فى حياتى حتى اليوم بعد خمسة وأربعين سنة من وفاة والدتى يرحمها الله، وكانت حصيلتى الشعرية المباشرة، بعد وفاة أمى، قصيدة سميتها «ثلاث مرات لأمى» استعملت فيها أسلوبًا جديدًا فى الرثاء لم يسبقنى إليه أحد، وسرعان ما ذاعت قصيدتى هذه، واستقبلها الشعراء بحرارة، وإعجاب بالغين.

وقد كان من حسن حظى - وأنا فى أحزانى التى هدمتنى بعد وفاة أمى - أن انتخبتنى مديرية البعثات العراقية لدراسة الأدب المقارن فى الولايات المتحدة، وقد قبلت فى جامعة وسكنسن، إحدى أول عشر جامعات فى

الولايات المتحدة، فسافرت متحمسة للدراسة أشد الحماسة، وأتاح لى موضوع الأدب المقارن أن أستفيد من اللغات الأجنبيـة التى أعرفها، بخاصة الإنجليزية، والفرنسـية. وخلال هذه الدراسـة اكتسـبت ثقافة غـنية رائعة أخـصبت ذهنى وملأتنى سعادة. وقد كنت أقضى أغلب الوقت فى مكتبة الجامعة الغربية التى كان لها أعمق الأثر فى حياتى فى تلك الفترة، كما اغتنت حياتى بأفكار عذبة كثيـرة منوعة، واكتسبت من التـجارب أضعاف ما كـسبته فى حيـاتى السابقة كلها. وتغيرت مفاهيمى، ومُثلى، ومقاييسى، وتبدلت شخصيتى كلها.

وقد كـان النظام فى هذه الجامـعة رائعًـا، لأنه لايتطلب كتـابة أطروحة كبيرة، بل يكلف الطالب بإعداد مجموعـة كبيرة من الأبحاث فى موضوعات أدبية منوعـة، فكنت أجد مـتعة عظـيمة فى كـتابة هذه المقـالات التى مرنت قابلـيتى فى النقـد الأدبى، وما زالت الأبحـاث المكتوبة بالإنجليـزية تنتظر أن أترجمها إلى العربية، وأنشرها. وسبب إعراضى عنها، حتى الآن، يرجع إلى أنها كـلها تتناول الآداب الأوروبيـة، فلا يتخلـلها اسم عربى، وقـد ألفت أن أشـعر أن كـتـابة الأديب العربى مـقـالات تغص بالأعلام الأجـنبيـة نوع من التكلف، وإقحام لثـقافة أجنبية على القارئ العـربى البسيط. ولذلك أنوى أن أوسع الجانب المقـارن فى أبحاثى هذه بحيث يشـمل أعلامًا عربيـة إلى جانب الأوروبية، وإذ ذاك سأسـتريح إلى نشرها، وأرجو أن يتـاح لى يومًا أن أفعل هذا.

وكان سفـرى إلى وسكنسن عام ١٩٥٤، واستغرق إعداد الماجسـتير فى الأدب المقـارن سنتين كتـبت خلالهـما مـذكرات أدبيـة كثـيرة سجـلت فيـها ملاحظاتى على الكتب التى قرأتها، والأشخاص الذين تعرفت إليهم، وعشت بينهم فى تلـك الفتـرة، كـما احـتـوت على آرائى المفـصلة المركـزة فى المرأة الأمريكية. ومع هذا كله، كنت فى مـذكراتى أغوص غوصًا عمـيقًا فى تحليل

نفسى، وقد اكتشفت أننى كننت لا أعـبر عن ذهنى، وعواطفى كما يفعل كل إنســان حولــى، وإنما ألوذ بالانطواء، والصـمت، والخجـل، واتخذت قـراراً حاسمًا أن أخرج على هذا الطبع السلبى، وشهدت مذكراتى صراعًا عظيمًا مع نفسى من أجل تحـقيق هذا الهدف، فكـنت إذا تقدمت خطوة تراجعت عـشر خطوات بحيث اقتضانى التغير الكامل سنوات كثيرة طويلة.

وأنا اليوم أدرك أن تغـيير العادات النـفسية من أصـعب الأمور، ولذلك أعتبر كفاحى المتـواصل لتعديل أعماقى النفسية، ومسلكى الاجـتماعى كفاحًا بطوليًا، لم يساعدنى علـيه إلا الله تعالى برحمته السابغـة، ورعايته الدائمة، مهـما يكن فإن فى نيتى أن أفـرغ يوما لانتخـاب مختارات من مـذكراتى فى مادسن/ وسكنسن للنشـر، وقد أعطيت حلقة منها إلى جـريدة الأهرام صيف سنة ١٩٦٦، فنشرتها فى عددها الصادر يوم ٥/ ٨/ ١٩٦٦.

وعندما رجعت من الولايات المتحدة، مررت فى طريق العودة بإيطاليا، وجنوب فرنسا، ثـم عرجت على دمشق حيث مؤتمر الأدباء الـعرب الثانى فى بلودان، وكانوا قد وجـهوا إلىّ دعوة وأنا فى الولايات المتحـدة. وكنت يومها أحُس بنوع من الأزمة أعانيـه، فقد كان التعـبير بالعربية لايـطاوعنى تمامًا بعد سنتين لم أتكلم خلالهما إلا بالإنجليزية، وكانت حياتى الفكرية والروحية كلها تقوم على هذه اللغـة الأجنبية، وكنت أحـس بذلك إحساسًا قـاسيًا بخـاصة خلال وجـودى فى مؤتمر الأدباء الذى افتـتحت به عودتـى إلى الوطن العربى الحبيب. ولـم يزايلنى هذا الإحـساس إلا بعد مرور أشهر فى العـراق استعدت خلالها طلاقة التعبير بالعربية.

وفى عام ١٩٥٧ صدرت فى بيـروت مجموعتى الشعرية الـثالثة (قرارة الموجة)، وقد احتوت على منتخبـات من شعرى بعد (شظايا ورماد)، ونشرتها دار الآداب ببيروت.

وفى عـام ١٩٥٨ قامت فى العـراق ثورة ١٤ تموز، وأثرت فى حيـاتى أعنف تأثير حتى اسـتغرقت كل لحظة من عمـرى ذلك العام. وقد استقـبلتها بقصيدة ساخنة بدأتها:

فرح الأيتام بضمة حب أبوية

فرحة عطشان ذاق الماء

فرحة تموز بلمس نسائم ثلجية

فرح الظلمات بنبع ضياء

فرحتنا بالجمهورية

وكانت القـصيدة تعبـيراً بسيطًا عن الفـرح العميق الغامـر. وتحذيراً من مؤامرات أمريكا، والصهيونية العالمية:

السوق صحا يا ورد حذار

من نقمته الصهيونية

ومخالبه الأمريكية

ولكن عبـدالكريم قاسم سرعان مـا انحرف، واستهوته شـهوة الحكم، وسمح للشـعوبية أن تمس جمـال الثورة، وتقضى على مـبادئها القومـية التى أحبـها أشد الحب، وقـد اضطرنى عسف الحكم، وتهـديده المستـمر إلى ترك العـراق، والسكن ببـيروت عـامًـا كـاملاً (١٩٥٩- ١٩٦٠) وخـلال ذلك، واصلت نشر إنتاجى القومى فى مجلة (الآداب).

فى عام ١٩٥٧ عينت مدرسة معيـدة فى كلية التربية ببغداد أدرس النقد الأدبى، العـروض، وبعد عـودتى من بيروت عـام ١٩٦٠ تعرفت إلى زمـيل جديد فى قسم اللغـة العربية هو الدكتور عبـدالهادى محبوبة، خريـج جامعة

القاهـرة. وفى منتصف عـام ١٩٦١ تزوجنا، فكان لى نعم الصديق والـرفيق والزميل.

وفى عام ١٩٦٢ صدر لى أول كتاب فى النقد الأدبى هو (قضايا الشعر المعاصـر)، وقد درست فيه الشـعر الحر دراسـة خاصة مفـصلة، ووضعت له عروضًا كـاملاً اعتمادًا على معـرفتى للعروض، وعلى قوة سمـعى الشعرى، وعلى كثرة قراءتى لشعر الزملاء من الشعراء، وقد أهديت الكتاب إلى الرئيس العربى جـمال عبـدالناصر، متحـدية عبدالكريم قـاسم الذى كان يمقتـه أشد المقت.

وفى عام ١٩٦٤ سـافرنا، أنا وزوجى، للعـمل فى تأسيس جامـعة فى البصـرة؛ حيث كان الدكـتور عبـدالهادى رئيسًـا للجامعـة، وكنت أعمل فى التدريس بقـسم اللغة العربية، ثم انتـخبت رئيسًـا للقسم واستمـر عملنا هناك أربع سنوات، وغادرنا البـصرة إلى بغـداد أواخر عام ١٩٦٨ حـيث عدنا إلى التـدريس فى كليـة التربيـة سنة واحـدة، غادرنا العـراق بعـدها إلى الكويت للتدريس فى جامعتها.

وفى عام ١٩٦٤ دعانى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة إلى إلقاء محاضـرات حول الشعر فى موضـوع أختاره، فعكفت على كتـابة كتاب عن الشاعر المبدع على محمود طه الذى كنت تأثرت بشعره خلال فترة الصبا، يوم كنت طالبة فى فرع التمثيل بمعهد الفنون الجميلة، وقد طبع هذا الكتاب (شعر على محمود طه) فى القاهرة عام ١٩٦٥ . وكان عنوان طبعته الثانية (الصومعة والشرفة الحمراء)، وقد طبعته دار العلم للملايين.

وفى أول سنة ١٩٦٨ صدرت لى مجموعة شعرية رابعة عنوانها (شجرة القمر)، تطور فيـها شعرى تطورًا واضحًا عما كـان عليه فى المرحلة السابقة،

مرحلة (قرارة الموجة) التى كنت خلالها أميل إلى الفلسفة، والفكر فى شعرى، ونثرى جميعًا.

وفى عام ١٩٧٠ صدرت مطولتى الشعرية (مأساة الحياة وأغنية للإنسان). عن دار العودة ببيروت.

* * *

وبعد، فهذه خطوات مركزة مختصرة من سيرة حياتى كتبتها تلبية لطلبات كثيرة ترد على من الباحثين، وطلبة الجامعات الذين يكتبون رسائل الماچستير، والدكتوراه. أما سيرة حياتى المفصلة، ففيها كثير من الغرائب الممتعة، وأرجو أن يتاح لى أن أفرغ لكتابتها يومًا قبل الموت.

مأساة الحياة

الطبعة الأولى ١٩٧٠



«أكثر هذه المطوّلة قد نُظم سنة ١٩٤٥ والقليل منها امتد إلى ١٩٤٦، وكان عمرى ثلاثة وعشرين عاماً».



تقدمة

- بقلم الشاعرة -

يضمّ الأثر الشعرىّ الذى أضعه بين يدى القارئ فى هذا الكتاب ثلاث صور شعرية لقصيدة واحدة، أولها قد نظم بين سنة ١٩٤٥ و ١٩٤٦، وثانيها قد نظم سنة ١٩٥٠ وثالثها متأخر التاريخ حتى ١٩٦٥، ولقد يمكن أن تعدّ قصيدة من هذه القصائد المطوّلة مستقلّة عن الأخريين، لولا أننى قد نسخت بعض الأبيات أحيانًا فنقلتها من قصيدة إلى أخرى على اعتبار أنها مازالت ترضى ذوقى رغم مرور السنين، ولعلّ من المفيد أن أشرح الظروف الزمنية والنفسية والفكرية التى أحاطت بى خلال عشرين عامًا من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥م:

أما القصيدة الأولى فقد نظمتها عام ١٩٤٥ - وكان عمرى إذ ذاك اثنين وعشرين عامًا- ولم يكن ديوانى الأول (عاشقة الليل) قد ظهر إلى الوجود أو طبع، وكنت إذ ذاك أكثر من قراءة الشعر الانجليزى فأعجبت بالمطوّلات الشعرية التى نظمها الشعراء وأحببت أن يكون لنا فى الوطن العربىّ مطوّلات مثلهم، وسرعان ما بدأت قصيدتى وسميّتها «مأساة الحياة» وهو عنوان يدل على تشاؤمى المطلق وشعورى بأن الحياة كلها ألم وإبهام وتعقيد، وقد اتخذت للقصيدة شعارًا يكشف عن فلسفتى فيها هو هذه الكلمات للفيلسوف الألمانى المتشائم «شوبنهاور»: (لست أدرى لماذا نرفع الستار عن حياة جديدة كلما أسدل على هزيمة وموت، لست أدرى لماذا نخدع أنفسنا بهذه الزوبعة التى تثور حول لا شئ؟ حتّام نصبر على هذا الألم الذى لا ينتهى؟ متى نتدرّع بالشجاعة الكافية فنعترف بأن حبّ الحياة أكذوبة، وأن أعظم نعيم للناس جميعاً هو الموت؟)، والواقع أن تشاؤمى قد فاق تشاؤم شوبنهاور نفسه، لأنه

- كما يبدو - كان يعتقد أن الموت نعيم لأنه يختم عذاب الإنسان، أما أنا فلم تكن عندى كارثة أقسى من الموت، كان الموت يلوح لى مـأساة الحياة الكبرى، وذلك هو الشعور الذى حملته من أقصى أقاصى صباى إلى سنّ متأخرة.

وهكذا بدأت نظم المطولة، وقد اخترت لها بحراً عروضياً مرناً هو البحر الخفيف الذى يجرى بين يدى الشاعر كما يجرى نهر عريض فى أرض منبسطة، وقد بلغت القصيدة ألفا ومائتى بيت نظمتها فى ستة أشهر تقريبا وانتهيت منها عام ١٩٤٦ وكان موضوعها فلسفيا يدور حول الموت والحياة وما وراءهما من أسرار، وقد تخلل القصيدة جزء منها شكوت فيه من المآسى التى سببتها الحرب العالمية الثانية التى كانت تستعر فى الغرب ودعوت إلى السلام وتغنيت به ونددت بتجار الحروب وقاتلى البشر، ثم انتقلت إلى الحديث عن السعادة متسائلة إن كان لها وجود حق فى الدنيا، ثم رحلت أبحث عنها فى مختلف الأوساط فلا أجدها، بحثت أولا لدى الأغنياء لعل السعادة فى قصورهم وحياتهم المترفة الناعمة، ولكنى لم أجدها لأنّ الغنىّ لا يستطيع أن يدفع وحشة القبر والأكفان بأمواله، ثم مررت بالرهبان والزاهدين فوجدت عواطفهم المكبوتة تقلقل حياتهم ومضض الحرمان يظلل مساكنهم ويبدو على وجوههم، ثم قلت لعلّ السعادة فى ارتكاب الشرور والآثام فطفت بأوكار اللصوص، والمجرمين، فوجدت أن ضمائرهم تعذبهم ولا تأذن لهم أن يرتاحوا، ووصلت إلى الريف بأشجاره وامتداداته الجميلة فوجدت سكانه فقراء محرومين يعيشون عيشة البؤس والعذاب، وصورت فى هذا القسم من المطوّلة، راعيا صغيرا يأكله الذئب ثم وصفت الثلوج التى تهبط طوال الشتاء وتحرم الفلاحين من استنبات الأرض فينتشر الجوع والحزن بينهم وتموت مواشيهم، ومن الريف انتقلت إلى دنيا الشعراء لعل السعادة عندهم، ولكن بارقة الأمل سرعان ما تخبو بسبب حساسية الشاعر وتألمه للجياع والمحزونين

والمحرومين، ثم أنتقل إلى العشاق لعلهم ذاقوا السعادة، فلا أجد بينهم من يعرفها لأن الشهوة الجنسية تدنس الروح وتحدّ آفاق الفكر، وهكذا تنتهى الرحلة بالخيبة فلا تجد الشاعرة السعادة مطلقا.

ولقد كانت «مأساة الحياة» صورة واضحة من اتجاهات الرومانسية التى غلبتنى فى سن العشرين وما تلته من سنوات، وكان من مشاعرى إذ ذاك التشاؤم والخوف من الموت وهما مفتاح هذه الصورة الأولى من المطولة، صورة ١٩٤٥.

وكنت فى عام ١٩٤٦ أنوى أن أقدّم المطوّلة للقراء بعد مجموعتى الشعرية الأولى «عاشقة الليل»، وعندما طبع هذا الديوان كان فى آخره إعلان صغير عن «مأساة الحياة» ولكن الظروف حالت دون ذلك، فأصدرت مجموعتى الشعرية الثانية «شظايا ورماد» عام ١٩٤٩ وهى المجموعة التى دعوت فيها إلى الشعر الحرّ.

وفى عام ١٩٥٠ كان أسلوبى الشعرى قد تطور تطوراً كبيراً عما كان أيام نظمى للمطولة، فأصبحت مواردى الأدبية أغزر، وأسلوبى أكثر صوراً وثقافتى أغنى، فلم أعد راضية عن (مأساة الحياة) ولذلك قرّرت أن أعيد نظمها بأسلوبى الجديد فكانت صورتها الثانية، وعندما مضيت فى نظمها لاحظت أنها - رغم وحدة الموضوع - قد أصبحت قصيدة ثانية تختلف فى كل لفظة منها عن (مأساة الحياة) فرأيت أن أهبها عنواناً جديداً خاصة وأننى بدأت أنظر إلى الحياة بمنظار جديد فيه مسحة من تفاؤل ووضوح بحيث لا أحتمل أن استبقى العنوان القديم ولذلك سميتها «أغنية للإنسان»، وقد مضيت فى نظمها حتى بلغت أبياتها ٥٨٦ بيتاً من الوزن الخفيف نفسه، وعند هذا بدأت أشعر بالضيق، فقد لاحظت اننى مقيدة بالنسخة الأولى مادمت أعيد نظمها فليس فى وسعى أن أخرج عن الإطار العام للقصيدة الأولى، وكان

على فى «أغنية للإنسان» أن أبحث عن السعادة فلا أعـثر عليها، بينما كنت قد بدأت أدرك أن السعادة ممكنة ولو إلى مدى مـحدود، فكيف أوفق بين الموضوع القديم وآرائى الجديدة؟

واستـعصى على الحل وقلت لنفسى إننى لا أسـتطيع مواصلة القصـيدة ولابد لى من تركـها، وكـان ذلك، اذ توقفت عن النظم وتركت الـقصيـدتين خمسة عشر عـاما من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٥ وقد كنت خلال هذه السنوات أشعر بالضيق كلمـا تذكرتها لأن «مـأساة الحياة» كـانت أجمل شعـرى فى مرحلتى الأولى، مرحلة «عاشقة الليل» وكانت نسخة ١٩٥٠ أجمل شعرى فى مرحلتى الثانية، ولذلك عزّ على أن تبقى محجوبة عن القراء، وراح الدكتور عبدالهادى محبوبة (زوجى) يحثنى على إتمامها، وفكرت فى ذلك فعلا، ولكنى لاحظت أن أسلوبى الشعرى قد تطور وتغـيّر ما بين ١٩٥٠ و ١٩٦٥ فلو أتممت (أغنية للإنسان) لظهر عليها فـارق الأسلوب، وبقيت حائرة ماذا أصنع، ثم قررت أن أنشر (مأساة الحياة) كما هى دون تعـديل، وجلست ذات صباح أنسخها معدّلة كلمة هنا وشطرا هناك دون أن أعيد نظمها كما صنعت سنة ١٩٥٠.

ولكنى ما كدت أمـضى صفحات حـتى بدأت التغييرات تـتسع وتشمل كثيراً من الأبيات، وبعد يومين وجدتنى أغير القصيدة القديمة تغييرا كاملا دون أن استبـقى من المطولة الأولى لفظة واحدة، وهكذا ولدت الصورة الثـالثة من القصـيدة عام ١٩٦٥، ولسـوف يلوح للقارئ أننى أقرب إلى التـفاؤل فى هذه القصـيدة، والواقع أن آرائى المتشـائمة كـانت قد زالت جمـيعا وحل مـحلها الإيمـان بالله والاطمئنان إلى الحـياة، ولذلك راح جـو مأسـاة الحيـاة يتـبدد تدريجيا، وقـررت أن تجد الشاعرة السـعادة فى هذه القصيـدة، وعندما بلغت ستمائة بيت أو يزيد شغلتنى الحياة بأعمال وظروف معقدة فاضطررت إلى ترك المطوّلة والانصراف إلى مشاغلى، ومنذ ذلك لم أعد إلى المطوّلة.

واليوم إذ أقدّم الصــور الثلاث إلى المطبعة، أحسّ انى أقدّم عــملا أدبياً متكاملا، لأن الشعر قد يقرأ لمجـرد كونه شعراً، وهذه المطوّلة بصورها الثلاث تدلّ على خط التطوّر فى شـعـرى ما بين السـنوات العشـرين من ١٩٤٥ إلى ١٩٦٥.

وبعد فلست أول من تعتريه هذه الحالات الشـعرية فى سنين مختلفة فإن الشاعر الانجليـزى جون كيتس مثـلا قد نظـم قصـيدة عنوانهـــا «هايبيريون» HYPERION تناول فيها سقوط الآلهة الأوائل فى الميثولوجى اليونانية، عندمـــا حلّت مكانها أسرة جـوبيتر Jupiter إله الآلهة الثانى، وقـد صوّر «كيتس» فى هذه المطوّلة ميلاد (أبولو) إله الشمس وكيـف حلّ محل الإله السابق هايبيريون إله الشمس الأول الســاقط، وتعده هذه القصيـدة من أروع شعر كيـتس، وقد نشرها فى مجموعته الشعرية الصادرة سنة ١٨٢٠، وعندما انصرم الوقت شعر كيـتس أن قصيدته لم تعـد تمثل أسلوبه، فعاد ونظم منهـا نسخة ثانية سـماها «سقوط هايبيريون» The Fall of Hyperion ونجد النسخـتين منشورتين فى ديوان كيتس تدلان على تطوره الشعرىّ من مرحلة إلى مرحلة.

وأنا إذ أقدم اليوم مطوّلتى باشكالها الثـلاثة إنما أرجو أن يعذرنى القارئ بعد أن قصصت عليه التاريخ النفسى لها وصلتـها بالتيارات الخفية من عواطفى وآرائى وحياتى، ومهــما يكن من أمر فإن نسخة ١٩٤٥ كـاملة لا نقص فيها، وأما القصيدتان التاليتان فحسبى أنهما تقدّمان الحقيقة الشعرية التى تختلف عن الحقـيقة القصـصية، فالشـعر أعمق وأجـمل من مجرد الموضوع الذى يعـالجه ولذلك يمكن أن ترتوى مـشاعـرنا بجزء من قـصيـدة، وأما القـصة فـإن تمام الحكاية فيها جزء من كمالها لا ينفصل عنه.

وأود هنا أن أقتبس نماذج من مـوضوع واحد من القصـائد الثلاث ليرى القارئ اتجاه التطور فى شعـرى عبر عشرين عاماً، ورد فى «مأسـاة الحياة» عام

١٩٤٥ فى موضوع البحث عن السعادة عند سكان الأديرة الأبيات التالية:

أيهـا الراهب الذى يـقطع العـمـ ـر وحيـداً فى كـوخه المكفـهـر
هات حـدثنىَ العـشـيّـة عـمـا عنـد دنيـاك من نعـيم وبشـر
حـدثونى عنكم فـقـالوا حيـاة من نـعـيم وأنـفس مـن نقـاء
عـجبـاً أين مـا يقـولـون؟ مـالى لا أرى غـيـر حـيـرة الأشـقـيـاء؟
مـا الذى عندكم من البشـر والأفـ ـراح مـاذا يـا أيهـا الزاهـدونا!
ليـس إلا عـمـر يمـرّ حـزيناً يتـهـاوى كـآبـةً وسكـونا

أما فى نسخة ١٩٥٠ فهذه هى الصورة التى صورت بها مشاعر الرهبان ومملكتهم التى تقوم على الكبت والحرمان:

شـيّدوها مـن كـل لفتة شـوق فـى العـيون الحبيسـة المحرومه
وسقـوا أرضهـا الجـدبية مـن بـر كـان تـلك العواطـف المكـتومه
وحمـوها مـن أن تغـازلها الشمـ ـس بألـوانها ولـين شـذاها
وأبـوا أن يلامـس القـمر المنـ ـفعل الضـوء فـى المسـاء دجـاها
وتمـنّوا ألاّ تمـرً بهـا ريـ ـحٌ عبـيرية الصـدى والنشـيد
فشفـاه الـرياح تكمُـن فـيها قـبلٌ عـذبة وذكـرى خـدود
وتمـنوا أن يقفـل الليـل عينيـ ـه وتخـبو نجـومه السحـريّه
فعـيون النجـوم تغـوى بأهدا ب حـريـرية الـرؤى قمـريه

أما فى نسخة عام ١٩٦٥ فقد تحوّلت هذه المعانى إلى الصيغة التالية:

أيهـا الراهـب الـذى يقطع العمـ ـر وحـيداً فـى غـرفة منسيـه
ليـس يدرى دفء المودة فى عيـ ـنين فـى قـرّ ليـلة شـتويه
حـدّثونى عنكـم فقالـوا ضياء وكـؤوس مـن الشـذى روحـيّه
وسموٌ إلـى الذرى الطاهرات الـ ـبيض فـوق الرغـائب البشـريه

عجــباً أين ما سمعــت هــنا شــو قٌ ونـــارٌ وأعـــينٌ مفـــتونه
وهـــوى قـــيّدوه عطشـــان محرو ما فأيـــن الســـلام أيـــن السكينه؟

ولكن الذى يلاحظ أن نسخة عام ١٩٦٥ قد لمحت تلمـيحاً واضحاً إلى أن هذه الشاعـرة لا تنظر بعيداً ولا عمـيقاً وهى تبحث عن السـعادة وإنما هى متشائمة لأن نظراتها تقع فوق السطوح ولا تغوص عميقاً وراء المظاهر الخادعة. وقد جاء هذا المعنى فى «أنشودة الرياح» التى خاطبت الشاعرة قائلة:

أنصـــتى تســـمـــعـــى فى الســكـون حـــفـــيـــف
وانـظـرى تـبـــصـــرى أن جـــــدبى وريـــــف
لـك قـلـــب غــــفـــا عن مــــعــــانى الـــــذرى
لــــك روح ثــــــوى فـى ضـــبـــاب الكــــرى

وهذا التطوّر فى النظرة هو التمهيد لفكرة عثور الشاعرة على السعادة فى ختام القصيدة.

وقد يتســاءل متسائل: لماذا بقيت متـمسكة بالبحر الخفـيف فى القصائد الثـلاث دون أن أخرج عنـه إلى بحور أخـرى؟ وجـواب هذا أننى رأيت هذا البحر أكـثر ملاءمة للمطوّلات فـهو يسمح بالعبـارة الطويلة على صورة تريح الشاعـر الحديث، ولا يخـفى أننا إنما دعونـا إلى الشعر الحـرّ لنمكن الشـاعر العربى من ايراد جمل طويلة دون تقطع.

نازك الملائكة

بحمدون فى ١٩٧٠/٨/١١



مأساة الحياة

عبثاً تحلمين شاعرتى ما من صباح لليل هذا الوجود
عبثاً تسألين لن يكشف السر ولن تنعمى بفك القيود

فى ظلال الصفصاف قضيت ساعا تك حيرى تمضك الأسرار
تسألين الظلال والظلّ لا يعـ ـلم شيئا وتعلم الأقدار

أبداً تنظرين للأفق المجـ ـهول حيرى فهل تجلىّ الخفى؟
أبداً تسألين والقدر السا خر صمت مستغلق أبدىٌ

فيم لا تيأسين؟ ما أدرك الأسـ ـرارَ قلبٌ من قبل كى تدركيها
أسفا يا فتاة لن تفهمى الأيـ ـام فلتقنعى بأن تجهليها

أتركى الزورق الكليل تسيـ ـره أكف الأقدار كيف تشاء
ما الذى نلت من مصارعة المو ج؟ وهل نام عن مناك الشقاء؟

آه يا من ضاعت حياتك فى الأحـ ـلام ماذا جنيت غير الملال؟
لم يزل سرها دفينا فيا ضيـ ـعة عمرٍ قضّيته فى السؤالِ

هُوَ سِــرُّ الحــيــاة دقّ عــلى الأفـ ـهـام حــتى ضــاقت به الحــكمـاء
فـايأسى يـا فـتـاة مـا فُــهـمت من قـبـلُ أسـرارها فــفـيـم الـرجـاء؟

جـاء من قـبلِ أن تجـيئى إلى الدُّنـ ـيـــا مـــلايـيـن ثم زالـوا وبادوا
ليتَ شـعـرى مـاذا جَنَوْا من ليـاليـ ـهم؟ وأيـنَ الأفـراحُ والأعـيــادُ؟

ليـس منهم إلا قـــبـــورٌ حــزينا ت أقـيـمت على ضـفـاف الحـيـاة
رحلوا عن حِــمَى الوجـود ولاذوا فى سـكونٍ بـعـــالم الأمـــواتِ

كم أطاف الليلُ الكئـيب على الجو وكـم أذعـنــت له الأكـــــوانُ
شـــهــد الليلُ أنّه مــثـلمــا كـــا ن فــأيـن الذين بالأمس كـــانوا؟

كـــيف يا دهر تنطفى بين كــفّــيـ ـك الأمـــانى وتخــمــد الأحــلامُ؟
كـيف تَذْوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويـعـــــيش الـظـلام وهْو ظـلامُ

كـيف تحـيـا الأشـواك والزهر الفـا تن يذوى فى قــبـضـة الإعــصـار
كـيــف تمضى إلى الفناء الأناشـيـ ـد وتبــقى ســخــريـة الأقــدار

حــدثّى الـقلبَ أنت أيتــهــا المأ سـاة يا من قـد سُـمّــيت بالحـيـاة
ما الذى تصنعـين بى فى الغد المجـ ـهـول مـاذا ترى مـصـيـر رفـاتى؟

أي قبر أعددت لي؟ أهْو كهفٌ ملء انحائه الظلامُ الداجي؟
أم ترى زورقي سيغرق بي يو ماً فأثوي في ظلمه الأثباج

لهفتي يا حياة كم تلعب الأو هام بي؟ كم يؤودني التفكير
أبدا أسأل الليالي عن المو ت وماذا ترى يكون المصير؟

طالما قد سألت ليلي لكن عز في هذه الحياة الجواب
ليس غير الأوهام تسخر مني ليس إلا تمزق واضطراب

هل فهمت الحياة كي أفهم المو ت وأدنو من سره المكنون
لم يزل عالم المنية لغزا عزَّ حلا على فؤادي الحزين

فليكن يا حياة لن أسأل الليـ ـل عن السر فاحكمي كيف شئت
امنحيني عمر الزهور فلن أبـ ـكي ومدى الأيام لي إن رغبت

ما الذي ينفع البكاء وما يصـ ـغي إلى الصارخين قلب القضاء
لن يزيد البكاء يوماً على عمـ ـري ولن يرحم المماتُ شقائي

ولتجرّعني الحياة كؤوس الـ ـحزن واليأس ما يشاء شقاها
هل ستصغي إلى رجائي المنايا إن تمنيت صمتها ودجاها

هكذا جئت للحياة وما أدري إلى أين سوف تمضي الحياةُ
وسأحيا كما يشاء لي المجهول حيرى تلهو بي الظُّلُماتُ

إن تمنيت أن أعيش فما يستمع الموت أو يمد السنينا
أو تمنيت أن أموت فما يُرْحم حلمي ولست ألقى المنونا

هكذا، ما يريده القدر المحتوم لا ما تُريدُهُ آمالي
سيرتني الحياةُ أين ترى مَرْسى سفيني؟ وعند أي رمال؟

ها أنا الآن حيرةٌ وذهولٌ بين ماضٍ ذَوىَ وعُمْرٍ يمرُّ
لست أدري ما غايتي في مسيري آه لو ينجلي لعينيَّ سرُّ

يا ضفافَ الأفراح يا ليتني أعرفُ شيئاً عن أفقكِ المجهولِ
لم أعد أستطيع أن أكتم الشوقَ فأيان يا ضفاف وصولي؟

كلُّ شيءٍ حولي يحدِّثني عنك ولكن متى يحينُ اللقاءُ؟
فارحميني من قبل أن يحطم الموجُ شراعي وتصخب الأنواءُ

آه يا ضفّة السعادة ما أنت؟ خيالٌ أم واقعٌ مشهودُ؟
أترى قلبي الطعينُ سيلقاكِ أخيراً أم أنت حلمٌ بعيدُ؟

طالما حـــدثوا فـــؤادى عن لـقـ ـيــاكِ لكن مـا زلتِ حُلْمَ صــبى

لم أزل أصـــرفُ الليـــالىَ أبـكى وأغنى حـــزنَ الوجـود الشـــقىِّ

علـى تل الرمال

لم يزل مـجلسى على تلّىَ الرمـ ـلىٍّ يُصـغى إلى أناشيـدِ أمسى
لم أزلْ طلـفـة سـوى أننى قـد زدتُ جـهلاً بـكُنْهِ عُمْرى ونفسى

ليـتنى لم أزَلْ كـمـا كنت قلبـا ليس فـيـه إلا السَّنا والنقـاءُ
كلَّ يـومٍ أبنى حـيـاتىَ أحـلا مـاً وأنسَى اذا أتانى المسـاءُ

أبداً أصـرف النهـار على التل وأبنى من الرمـال قـصـورا
ليت شعرى أين القصور الجميلا تُ وهل عُـدْنَ ظلمـةً وقبـورا؟

ايه تـلَّ الرمـالِ مـاذا تـرى أبـ ـقـيتَ لى من مـدينة الأحـلام؟
أنظر الآنَ هـل ترى فى حـيـاتى لمحـةً غـيـرَ نشـوة الأوهام؟

ذَهبَ الأمسُ لم أُعـدْ طفلة ترْ قُب عشَّ العـصفور كلَّ صباحِ
لم أعـد أبصـر الحيـاة كـمـا كُنْ ـتُ رحيـقـاً يذوب فى أقـداحى

لم أعـد فى الشتـاء أرنو إلى الأمـ ـطار من مَـهْدىَ الجميلِ الصـغيرِ
لم أعـدْ أعـشقُ الحـمـامـة إن غنّـ ـت وألهـو علـى ضفـاف الغـديرِ

كم زهورٍ جـمـعـتـهـا لم تذر منـ ـهـا الليالى شيئاً سوى الأشـواكِ
كم تعـاليلَ صـغـتـهـا فَنيتْ إلا خـيـــالاً يؤودُ قلبى البـــاكى

آه يا تـلُّ ها أنـا مـــثلمـــا كنـ ـتُ فـأرجع فـردوسىَ المفقـودا
أىُّ كفٍّ أثـيـــمـــة سـلبـتْ رَمْـ ـلَكَ هذا جـمـــالَهُ المعـبـــودا

كنتَ عـرشى بالأمسِ يـا تلىَّ الرمـ ـلىَّ والآن لم تَعُـدْ غـيـــرَ تلٍّ
كـان شـدو الطيـورِ رجعَ أنـاشيـ ـدى وكـان النعـيم يتـبـع ظلى

كـان هذا الوجـود مملكتى الـكبـ ـرَىُ فـيـا ليتـنى أعـودُ إليـهـا
ليت هذى الرمال تسترجع السحـ ـرَ وليت الربيع يحنو عليـهـا

لم أعـدْ أستطيعُ أن أحـكم الزَهْـ ـرَ وأرعـى النجـــوم فى كل ليلِ
هل أنا الآنَ غـيـرَ شـاعـرةٍ حَـيْـ ـرى وهل غير هيكـلى المضمحلِّ؟

ذهب الأمسُ والطفـولةُ وأعـتَـضْـ ـتُ بحسّى الرهيف عن لهو أمسى
كل مـــا فى الوجــود يؤلمنى الآ نَ وهذى الحـيــاةُ تَجـرحُ نفـسى

أيـن لونُ الأزهـار لم أعـــد الآ نَ أرى فى الأزهار غـيـر البـوارِ
كلمـا شـمـمتُ زهرةً صـوّر الوْهـ ـمُ لـعـــينىَّ قـــاطفَ الأزهارِ

أين شـدو الطيـور مـا عـدت ألقى　　　فى صَـفَـاهُ من يأس قلبى خـلاصـا
كلّ لحـنٍ لصــــادحٍ يتـــلاشى　　　فى ادّكـارى الصـيّاد والأقـفـاصـا

أينَ همـس النسـيمِ لم تَعُـد الأنـ　　　ـسامُ تغـرى قلبى بحبّ الجـمـال؟
فـغـداً يهــمس النسـيـمُ بموتى　　　فى عـميقِ الهُـوَى وفـوق الجبـالِ

أين منّى مـفـاتنُ القَـمَـرِ السـا　　　حـرِ والصيف والـظلام المثيـرِ؟
لم أعـدْ أعـشـقُ الظلامَ غـداً أر　　　قـدُ تحـت الظلام بيـن القـبـورِ

ها أنا الآن تحت ظلّ من الصَـفْـ　　　ـصاف والتين مسـتطاب ظليلِ
أقطف الزهر إن رغبتُ وأجنى الثَـ　　　ـمرَ الحُلْوَ فى صبـاحى الجميلِ

وغــداً ترسـم الظلالُ على قـبـ　　　ـرى خطوطاً من الجمـال الكئيبِ
وغـداً من دمى غـذاؤكَ يا صـفـ　　　ـصــاف يـا تيـنُ أىُّ ثأرٍ رهـيبِ

ذاك دأب الحـيـاة تـسلبُ مـا تعـ　　　ـطيـه بخـلاً لا كـان مـا تعطيـهِ
تتـقـاضى الأحـيـاءَ قـيـمـةَ عيشٍ　　　ضـمـهم من شَـقـاهُ أعـمقُ تـيـهِ

هى هذى الحـيـاةُ سـاقـيـة السمّ　　　كـؤوسـاً يـطفـو عليـهـا الرحـيقُ
أو مـأتْ للعطاش فـاغـترفـوا منـ　　　ـهـا ومـن ذاقـهـا فليس يُفـيـقُ

هى هذى الحـــيــاةُ زارعــةُ الأشـ ـواكِ لا الزهرِ والدُجى لا الضـيـاءِ
هى نـبعُ الآثامِ تســـتلـهمُ الشـــر وتحـيـا فى الأرض لا فى الســمـاء

آدم وحواء

حَسْبُها أننا دفعنا إليها ثمنَ العيشِ حَيْرةً ودموعا
أيُّ ذنبٍ جناه آدمُ حتى نتلقى العقاب نحنُ جميعاً؟

وليكن آدمُ جَنَى حسبُهُ فُقْـ ـدانُ فردوسِه الجميلِ عقابا
حسبُهُ يا حياةُ أن هبط الأر ضَ ليحيا ويَجرعَ الأوصابا

حسبُهُ أنه أتى الأرضَ مطرو داً من الخُلْد مستطاراً حزينا
حسبُهُ ما رأى من الشر والإثـ ـم وما ذاقَ من عذاب السنينا

ليت شعرى ماذا يروق لعينَيْـ ـهِ على الأرضِ بعد سحر السماء
كيفَ ينسَى جمالَ فردوسِه المفـ ـقود فى عالمٍ دجيِّ الفضاء

كيف ينسَى الأمس الجميل ليهنا بحياة موسومة بالشقاء؟
ليس يحيا فيها سوى الآثمِ الجبّـ ـارِ يا رحمتاهُ للضعفاء

قابيل وهابيل

ولماذا ينسَى وهل ثمَّ فى الأر ... ضِ عزاءٌ عن حلمه المعسولِ
كلما لاذ بالخيالِ تجلّى ... لأساهُ ما كان من قابيلِ

أوَ لم تسمع الحقولُ صدى صر ... خةِ هابيلَ حين خرَّ قتيلا؟
أو لم يشهدِ القطيع على الجا ... نى؟ ألم يبصرِ الدمَ المطلولا؟

أين هابيلُ؟ أين وقعُ خطًى أغـ ... ـنامه فى الحقول والوديان؟
ليس منه إلا ضريح كئيبٌ ... شادَهُ فى العراء أول جانِ

وأتت ظلمة المساء على الحقـ ... ـلِ وعاد القطيعُ من دونِ راعى
ليس إلا قابيل يمشى كئيباً ... وهو نَهْبُ الأفكارِ والأوجاعِ

ما الذى تنفعُ المدامعُ يا آ ... دم فيما قَضَتْ به السنواتُ
إن يكن من فقدتَ أول مقتو ... لٍ فلاً يا سَيُقْتَلُ العشراتُ

يا لأحزان آدمٍ حينما أبـ ... ـصَر بابنيه قاتلاً وقتيلاً
أيها المستطار لن تردع الأقـ ... ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلاً

استـرح أنت، نَمْ، دع العـالَم المحـ ـزون يحـيـا فـى ظُلْمـة الأرجـاسِ
دعْـهُ فـى غـيِّـه فــمـا كــان هابيـ ـلُ القــتـيلَ الوحــيـد بـين الناسِ

إنهــا لعـنةُ الســمــاء علـى العــا لَم مــســدولةَ الـرؤى مكفــهــرّه
كلـمـــا ذاق قطـرة من نـعـــيمٍ أعـقـبـتـهـا مـن الأسى ألف قطره

الحرب العالمية الثانية

لم يكد يستفيق من حربه الأو لىَ ويهنا حتى رمتْه الرزايا
رحمةً يا حياةُ حسبُكِ ما سا ل على الأرض من دماء الضحايا

انظرى الآنَ هل ترينَ سوى آ ثار دنيا بالأمسِ كانتْ جنانا
ليس من سحرها سوى سودِ أحجا ر تثير الدموع والأشجانا

أين نُعماك يا بقايا القصور الـ ـبيضِ أين الأزهار والأطيارُ؟
هجرتْكِ الطيورُ غيرَ غرابٍ وجفاك الأريج والإخضرار

أين أهلوكِ؟ حدثينى ماذا يا ركام الأنقاضِ كان المصير؟
أين يحيون؟ أى كهف من الأر ضِ زواهم أساه والديجور؟

أين أهلوك يا قصورُ أتحتَ الثـ ـلجِ أم مزقتهُمُ القاذفاتُ
أسفاً ضاقت الميادينُ بالقتـ ـلى وما عاد يُدْفَن الأمواتُ

فى سفوح الجبال تحت ذُرى الأشـ ـجارِ خلف القصور والاكواخ
ليس غيرُ الموتى عظاماً وأشلا ءً وغير اكتآبةٍ وصُراَخِ

يا مــلاكَ الســلامِ أقــبل من الأجــ   واءِ واهبط على الـوجـود الكئيبِ
إيكِ للـراقــدينَ فى وَجْــمــة المو   تِ وأشــرِقْ عـلى الظلامِ الـرهيب

طف بهـــذى القُــرىَ لتلـمَسَ آها   تِ الحـزَانَى والسـاغبــينَ الظمـاءِ
وارحم الصـارخينَ فى سُرر الأمـ   ـراضِ بيـن الأحـــزانِ والأدواءِ

طُفْ بانقــاضِ عـالـمٍ ليس يدرى   هل سيحظى بمبهـجات الحيـاة؟
هو إن نـامَ لحظةً هـبَّ مــذعــو   راً لـيـــبكـى ويـرسلَ الآهـاتِ

مـا دَرَى حيـنَ أضـرمَ الحـربَ إلا   حُلُمَ الـنَصْـر والفَــخَـارِ العـظيمِ
يا لقـلب المسكين! مـا ينـفع المجـ   ـدُ لـقلـبٍ مُلَوَّعٍ مـــصـــدومِ

فلْيُـفقْ حــسبُــهُ خيــالاً وأوها   مــاً ليَلْقى مــا قــد جَنَتْ كــفَّــاهُ
عــــالم مـظـلم يـضـجُّ به المرْ   ضَـى ويشكـو مـن الـطَوىَ أبْنـاهُ

جفَّ زهْرُ الـرياض والورقُ النَضْـ   ـرُ وآوتْ إلى الجـفـاف الحـقـولُ
أسـفـاً لم تَدَعْ لـنا الحـرب شيـئاً   وتلاشى الحُلْـمُ الطَرُوبُ الجـمـيلُ

من ترى يحرثُ الحقولَ ويشدو أغنيات المراحِ وقتَ الحصادِ
أين لهوُ الأطفالِ عند البحيرا تِ وفوقَ الثلوج فى الأعيادِ

أين؟ ضاع الخيالُ والحُلم الفا تنُ ضاع الجمالُ ضاع الرخاءُ
ليس إلاّ دنيا من الجوعِ والفقـ ـرِ عليها يعذَّبُ الأبرياءُ

يا قلوب الأطفال لا تخفقى الآ نَ حنيناً لن يرجعَ الآباءُ
هكذا شاءتِ السنينُ فرفقاً بعيونٍ قد عضَّ فيها البكاءُ

عيون الأموات

يا رُفاتَ الأموات فى الأرض ماذا رَسَم الموتُ فوق هذى العيونِ؟
أىّ رعبٍ وحَسْرَةٍ وشَكاةٍ أىُّ معنىّ من الرجاء الحزينِ؟

كل عينين فيهما صور تبـكى وترثى للعالم المغرورِ
كلّ عينينِ تَسْخَران من العَيْـش وتستهزآن بالمقدورِ

كل عينينِ تنظران إلى الأفـق بعيداً عن كل ما فى الحياةِ
آه يا ربِّ آه لو فهم الأحـيـاءُ ماذا فى أعين الأمواتِ

يا فتاةَ الخيال حسبُك شدواً برثاء الموتى وحسبُك، حزنا
سوف يبقَى الخصام والشرّ ما عا ش الأناسىُّ والاناشيدُ تَفْنَى

هكذا شاءت المقاديرُ للعا لمِ إثم وشقوةُ وحُروبُ
وهىَ النفسُ تحملُ الشرّ والبغـ ـضَ فماذا يُفيدُها التهذيبُ

كم تغنَّى بالسلم والحبِّ والرَحْـ ـمة من شاعرٍ ومن فيلسوف
أسفاً ضاعت الأغانى ولم تَبْـ ـقَ سوى ضَجّةِ القتالِ العنيفِ

يا لهـذا الكون المعـذب فى قيـ ـد من الشـر والاذَى والأثـام
كـيف ينجـو من الآسى ومتى يَشْـ ـفى من الموجـعـات والآلام؟

كـيف ينجـو والطبعُ والقَـدَرُ القا سى يَسُـوقـانه الى الأحـزان؟
يَـا لَقَـلْب المسكيـنِ ليسَ له فى حـومـة الشـرِّ والشَـقَـاء يدانِ

كم أرادَ السُـمُـوَّ عن وَهْدَة الشر فـحـالت طبـاعُـه الآثمـاتُ
كم أرادَ النجـاة مـن مـخلب الغـدْ رِ فـعـزَّتْ علـى مُنَاهُ الـنجـاةُ

مـا الذى رامَـهُ المسيحُ لـكى يُجْـ زى بما كـان مـا الذى كـان منه؟
أيهـا العـالمُ الـذى اقتـرفَ الذنـ ـبَ أمـا آنَ أن تكـفِّـرَ عـنه؟

أو لم يَكْـفكَ الشـقـاءُ أمـا زلـ ـتَ مَشُـوقـاً إلـى حيـاة الدمـاء؟
جفَّ نبـعُ الدمـوعِ والدمِ يـا كـو نُ فـهـلاَّ رثيـتَ للاشـقـيـاءِ؟

لُذْ ببُـرْج السـمـاء من نشـوةِ القَـتْـ ـلِ ألا ولْيُـخـتمْ سـجـلُّ الرزايا
وليكن مـن فـقـدتَ فى هـذه الحـر بِ ختـامَ الذين مـاتوا ضحـايا

أنشودة السلام

أيها السادرونَ فْى ظلمة الأر ض كفاكم شقاوةً وذهولا
احملوا نادمينَ أشلاء موتا كم ونوحوا على القبور طويلا

ضمّخوها بالعطر لفّوا بقايا ها بزَهْر الكنارِ والياسمينِ
واهتفوا حولها بأنشودة السلـ مِ ليهنا فى القبر كلُّ حزينِ

اجمعوا الصبية الصغار ليشدوا بلحون الصفاء والإبتسامِ
أنقذوا الميّتين من ضجّة الحر بِ ليستشعروا جمال السلامِ

فيم هذا الصراع يا أيها الأحـ ياءُ؟ فيم القتالُ؟ فيم الدماءُ؟
فيمَ راح الشُبّانُ فى زَهْرة العُمْـ رِ ضحايا وفيمَ هذا العداءُ؟

أهْو حبُّ الثراء؟ يا عَجَبَ القلـ ب! وما قيمة الثراء الفانى؟
فى غدٍ رحلةٌ فهل يدفع الأمـ وات بالمالِ وحشةَ الأكفانِ

كل حيّ غداً إلى القبر مغدا ه فهل ثَمَّ فى المماتِ ثراء
افتحوا هذه القبورَ وهاتوا حدثونا أين الغنى والرخاءُ؟

انظروا ها هنا على الشوك والرمْـ ـلِ ثوى الأغنياء والمعدمونا
أيُّ فَرقٍ ترى وهل غير صمت الـ ـموتِ فوق القبور والراقدينا؟

عجباً ما الذى إذن ساق هذا الـ ـكون للموت والأذى والدمَارِ
فيم تحدو الشعُوبَ أطماعُ غرٍّ يتصبَّى عينيهِ وهْجُ النارِ

نشوةُ النَصرِ؟ يا لسُخرية الألـ ـفاظ! يا للأوهامِ يا للضلالِ
أيها الواهمونَ حسبكمو وهْـ ـماً وهبّوا من الكرَى والخيالِ

نحن أسرى يقودنا القدر الأعـ ـمى إلى ليل عالمٍ مجهولِ
ليس منا من يستطيع فكاكاً ليس منا غير الأسيرِ الذليلِ

أبداً تأمرُ الليالى وتمشى ليس يُجْدى تضرّعٌ أو بكاءُ
ليس يخشى المماتُ صولةَ جبّا رٍ وما يستثيرهُ الضُّعَفاءُ

هكذا الموت غالبٌ أبد الدهـ ـر ونحن الصرْعى الضعافُ الحيارى
وله النصْرُ والفخارُ علينا فاندبوا ما دعوتموهُ انتصارا

أيها العالمُ المخرَّب قد أسـ ـفرتِ الحربُ عن غلاب المنايا
شهدتْ هذهِ القبورُ لها بالنـ ـصْرِ يا رحمتا لتلك الضحايا

ثم مــاذا يا ســاكنى العــالم المحـ ـزونِ؟ مـاذا من القتــال جنيتُمْ؟
هل وصلتم إلـى النجـوم البـعـيـدا تِ وهل من كفّ العـذابِ نجوتم؟

هل تغلَّبـتُمُ علـى الفـقــر والأحـ ـزان والسُــقْمِ أيهــا الواهــمــونا
أنجـــــــــوتم مـن المـآثـمِ أم لـم يَزَلِ الـعــيشُ فــتنةً ومــجــونا

أسـفــاً لـم تزل كـمــا كــانت الأنـ ـفُسُ تحـيــا فى إثمــهــا الابدىِّ
لم تزل خـمـرةُ الضـلال رجـاء الـ آدمــيــيـنَ فى الوجــود الـشــقىِّ

لم تزل فى الـوجـود أغنيـةُ الحـز نِ يغنّى بـهـا الضـعـاف الجـيـاعُ
لم يزل فى الوجود مـرضى حيارى أبداً تـعـــتـــريهـمُ الأوجـــاعُ

كل شئ باق كــمــا كــان قــبل الـ ـحـرب غـيــر الأيتـام والأمـواتِ
غــيــر ظلّ من الكـآبة والحـيْـ ـرةِ يمـشى عـلى ضـفـاف الحـيـاةِ

هؤلاء الأيـتـــامُ بالأمس كـــانوا صــورةَ البـشــرْ والمراحِ الجـمــيلِ
تحت ظلّ الآباء يقــضـون عـيـشـاً مـا دروا غـيــر صــفـوه المعــسـول

وأفــاقـوا من حلـمـهم فــإذا الاقـ ـدارُ حــربٌ والكونُ قـــتلٌ ونارُ
يا عـيـونَ الأطفـال لا تسـألى الدنـ ـيـا عـلام اللظـى؟ وفـيم الدمـارٌ؟

في سـبيـل المجدِ المزيف هذا الـ ـهولُ لا كـان مـجـدهُـم لا كـانا
في سـبيل النَصْـر المموّهِ عـاد الـ ـعـالم الحلو في اللـهيبِ دخـانا

هؤلاء الصرعى على الصخر والشو ك شـبـاباً وفـتـيـةً وكـهـولا
كـيف كـانوا بالأمس أيـة رؤيا رسـمـوها فـلم تَهِشَّ طـويلا؟

أيهـا الأشـقـيـاءُ في الأرض يا من لم تمتـهم قـذائفُ النيـرانِ
عـبـثـاً تـأملون أن يـرجع الآ نَ أعـزاؤكـم إلـى الاوطـانِ

أنظـروا ها هـم الجنـود يعـودو ن فـرادى مـهـشّـمي الاعـضـاء
آهِ لولا بـقـيـةٌ من حـيـاةٍ لمْ يُعـدّوا في جـملةِ الأحـيـاءِ

عـبثـاً يـحـشـون في هذه الأنـ ـقـاضِ عن أهلهم وعن مـأواهم
عـبثـا يسـألون مـا يعلم العـا برُ شـيـئـاً فـيـا لنارِ أسـاهم

كـيف ذاقـوا مـرارة الخـيـبـة السَوْ داءِ بـعـد الآلامِ والأدواءِ
هل نجـوا من براثـن الموت والأسـ ـر لكي يسـقطوا أسـارى الشقـاءِ؟

أيهـا الأشـقـيـاء يا زُمَـر الأحـ ـيـاء في كـل قـرية وصـعـيـدِ
آنَ أن نسـتـعـيـد مـاضيَ حبٍّ هو مـفـتـاح حلمنا المفـقـودِ

مــا الذى بينـنا من البــغض مــاذا كـــان سـر القــتــال والأحـقــادِ؟
أيهـا النـاقـمـون نحن جـمــيـعـا شـــرعٌ فى أيدى الخطوب الشـــداد

نحن نحـيـا فـى عـالم ليس يُدْرَى سـرُّه فــهـو غـيــهبٌ مـجــهـولُ
تطلعُ الـشــمس كل يومٍ فــمــا كنْــهُ سنـاها؟ وفـيـم كـان الأفـــولُ؟

مـا الذى يُطْلعُ النـجـومَ على الكو نِ مـســاءَ؟ مـا كـنْهُ هذا الوجـودِ؟
أى شئ هذا الفــضـــاء ومـا ســر دجـــاه؟ هل خلـفَـــهُ من حـــدودِ؟

نحن هل نحن فى الوجود سوى الجهـ ـلِ مَـصُـوغاً فى صـورة الإنسـانِ؟
كلُّ مـــا فى الأكـــوانِ يحكمنا مـــا ذا إذنْ ســـرُّ ذلك الـطُغْـــيـــانِ؟

فـيم نطغى؟ وكـيف ننسى قـوى الكو نِ ومـــا فى الوجـــود أضـعـف منّا
ينخَـــرُ الدودُ مـــا نشــيـــدُ ولا تُبْـ ـقـى البـــراكـــينُ والـرياحُ علينـا

فـيم نقــضى حـيـاتنـا فى العـداوا تِ ونمضى السنين يأسـاً وحـزنا؟
كـيف ننـسى أنّا نعـيش حــيـاة الـ ـوردِ ســرعـان مـــا يمـــوت ويفنى

لن تدوم الأيـام لن يحــفـظ الدهـ ـرُ كـــيــــانـاً لكـائنٍ بـشـــرىٍّ
فلـندعْ هذه الضـــغـــائـنَ والأحـ ـقـــادَ ولنـحى فـى الوداد النـقىِّ

البحث عن السعادة

قد بحثنا عن السعادة لكنْ ... ما عثرنا بكوخها المسحورِ
أبداً نسأل الليالىَ عنها ... وهى سرٌّ الدنيا ولغزُ الدهورِ

طالما حدّثوا فؤادىَ عنها ... فى ليالى طفولتى وصبايا
طالما صوروا لعينىً لقيا ... ها وألقوا أنْباءها فى رؤايا

فهى آناً ليستْ سوى العطرِ والألـ ... ـوانِ والأغنياتِ والأضواءِ
ليس تحيا إلاّ على باب قَصْر ... شيدته أيدى الغنى والرخاءِ

وهى آناً فى الصوم عن مُتَع الدنـ ... ـيا وعند الزهّادِ والرهبانِ
ليس تحيا إلا على صخر المعـ ... ـبدِ بين الدعاء والإيمانِ

وهى حيناً فى الإثم والمتع الدنُـ ... ـيا وفى الشرّ والأذى والخصامِ
ليس تصفو إلا لقلب دنىءٍ ... لائذٍ بالشرور والآثامِ

وهى فى شرع بعضهم عند راعٍ ... يصرف العمر فى سفوح الجبالِ
يتغنىً مع القطيع إذا شا ... ء ويغفو تحت الشَّذَى والظلالِ

وهى فى شـرع آخَرينَ ابنةُ العُزْ ... لة والفنّ والجمـال الرفيعِ
ليس تحـيـا إلا علـى فمِ غـرّيـ ... ـدٍ يغنّى أو شـاعـرٍ مطبوعِ

وهى حيناً فى الحبِّ يُلْهمها سَهْـ ... ـمُ كـيـوبيـد قلبَ كلّ محبُّ
ليس تحـيـا إلا على شـفـة العـا ... شقِ يشـدو حـيـاتهُ لحنَ حُبٍّ

حَدَّثونى عنهـا كـثـيـراً ولكن ... لم أجـدْها وقـد بحـثـتُ طويلا
لم أزَلْ أصـرفُ الليـالىَ بحـثـا ... وأغنىٍّ بهـا الوجـودَ الجـمـيـلا

مرَّ عـمرى سـدى وما زلت أمشى ... فـوقَ هذى الشـواطئ المحـزونه
لم أجـدْ فى الرمال إلا بقـايا الـ ... ـشـوك! يـا للأمنيـةِ المغـبـونه

أين اصـدافكَ اللوامع يـا شطُّ ... إذن أيـن كـنـزُكَ الموعـودُ؟
هاتـهِ رحـمـةً بنا، هات كـنزاً ... هو مـا يرتجـيـهِ هذا الوجـودُ

هاته حـسبُ رملك البـارد القـا ... سى خـداعـاً لنا وحـسـبُكَ هُزْءا
يا لحـلمٍ نـزيدُ منه اقـتـرابا ... وهو مـازال أيهـا الشط يـنأى

لم تعـد قـصة السـعادة تغـريـ ... ـنى فـدعنى يا شـاطئ الآهاتِ
عـبـثـاً أرتجى العـثور على الكنـ ... ـز فـلا شئ غيـرُ صمتِ الحيـاةِ

أين من هـذه الحيـاة ابتـسـامـا ... تُ الأمـانـى ونشـوةُ الأفـراحِ؟
كيف يحيا فـيها السـعيـدُ وليستْ ... غـيـر بحـرٍ تحت الدجـى والرياحِ

طال بـحـثـى يا ربِّ أيـن ترى ذا ... ك السـعيـدُ الجـذلانُ أين تراهُ؟
ليس حـولى إلا دياجـيـرُ كـونٍ ... لـيس يَفْنَـى بكاؤه وأسـاهُ

كل يوم مَـيْتٌ يسـيـرُ به الأحـ ... ـيـاءُ باكـينَ نـحـوَ دُنْيـا الظلامِ
يا لأسطـورةِ الخلود فـمـا الخـا ... لدُ غـيـر القـبـور والآلامِ

يـا دوىَّ النُّـوَاحِ فـى الأرض أيّـا ... ن يكفُّ البـاكـونَ والصـارخـونا؟
ومـتى ينتـهى الشـقـاءُ مـتى يَرْ ... تاحُ كـونٌ ذاق العـذاب قـروناً

عـالمٌ كلُّ من على وجـهـه يَشْـ ... ـقَى ويقـضى الأيامَ حـزنـاً ويأسـا
جـرّعـتْـهُ السنينُ حنـظلَهـا المرَّ ... فـعـافَ الحـيـاةَ عـينـاً ونفسـا

إيه أُسْطورةَ السـعـادة هـاتى ... حـدِّثينى عن سـرِّك المنشـودِ
أينَ ألـقـاكِ؟ أين مـسكنُـك المر ... موقُ؟ فى الأُفْـق أم وراءَ الوجودِ؟

سرتُ وحـدى تحت النجوم طويلاً ... أسـألُ الليـلَ والدياجـيـرَ عنك
أسفاً لم أجدْكِ فى الشاطئ الصخـ ... ـرىِّ حـيـثُ الميـاهُ تفـتـأُ تـبكى

حيثُ تبـقَى الأشواكُ والورد يَذْوى تحتَ عـــينِ الأيّام والأقـــدارِ
حيثُ يفنى الصـفـاءُ والـليلُ يأتى بجنونِ الأنـواءِ والأعـــصـــارِ

حيثُ تقـضى الأغنامُ أيامـهـا غَرْ ثى ولاعُـشبَ فى جـديبِ المراعى
أبداً تـتـــبعُ الســـرابَ وتشكو بُـخْلَ دهـرٍ مـــزيّـفٍ خَـــدَّاعِ

حيث يحيـا الغـرابُ، والبلبلُ المو هوبُ يَهْـوى فى عـشّـه المضـفـورِ
ويغنّى البـومُ الـبـغـيضُ على الدَوْ حِ ويثْـوى القـمرىُّ بين الـصخـورِ

حيـث تبقى الغـيومُ فى الجـوّ رمزاً لحـيــــاة ســـوادُها لـيسَ يَفْـنَى
حيـث تبــقى الرياحُ تصـفــر لحناً هو ســـخـــريّـةُ المقـــادرِ منّا

حيثُ صـوتُ الحياةِ يـهتفُ بالأحـ ـيـاءِ: ماذا تحـتَ الدُجَى تبتـغـونا؟
انظروا كلُّ مـا عـلى الأرض يبكى فـأفــيـقــوا يا مـعـــشـر الحـالمينا

بين قصور الأغنياء

سرتُ بيـن القصور وحـدى طويلاً	أســألُ الـعــابرينَ أيـن الطروبُ؟
فــإذا فـتنـة القــصــور ســتــارٌ	خـادعٌ خلفَـهُ الأسَـى والشحـوبُ

لم أجـدْ فى الـقـصــور إلا قـلوباً	حــائرات وعــالماً مـــحــــزونا
ليس إلا قــوم يضــيــقــون بالأيّـ	ـام ضــيقَ الجـيـاع والبــائســينا

ليس ينجـيـهم الـغنى من يد الأشـ	ـجـانِ ليستْ تُنْجـيـهمُ الكبـرياءُ
ليس يعـفو الممـاتُ عنهم فهم حـز	نٌ وصـــمــتٌ وحــيــرةٌ وبـكاءُ

كم وراء القــصــور من مُـقَـل تبـ	ـكى وتـشكو قــســاوةَ المقــدورِ
كم قلـوبٍ تَوَدُّ أن تُبــدلَ الـقــصـ	ـرَ بكـوخٍ على حِـفــاف الغــديرِ

إن يكونوا نَجَـوا من الجوع والفـقـ	ـر ولم يـفــتــرِسْــهمُ الحــرمــانُ
فلقــد طالما أحــسُّــوا بجــوعِ الـ	ـروحِ واســتـعـبـدتهمُ الأحــزانُ

إن يكونـوا يقــضـونَ أيّـامَـهـم بيـ	ـن الحــــرير الملَّون الجــــذّابِ
فــغـداً تعــبــرُ الدهورُ وهم مَــوْ	تَى على الشَّوْكِ والحَصى والترابِ

إن يكن فى قصورهم من سَنا الأضـ ـواءِ مـا يُرجِعُ الظلامَ ضيـاءَ
فغداً يخمَدُ الضياءُ وتبقى ظلمةُ الليلِ بُكْرةً ومساءَ

ليس تُنْجى القصورُ من ربْقة الحُزْ نِ إذا طافَ بالقلوب دجاه
كم غنيٍّ يَقْضى الحياةَ شقيّاً مُغْرقاً فى أنينهِ وبُكاه

كل ما فى هذا الوجود من الأمـ ـوالِ لايستطيعُ دفْعَ الشقاءِ
كلُّ تلكَ الكنوزِ ما غَمَرَتْ قطُّ غنياً بساعةٍ من هناءِ

يا طريقى ملْ بى العشيّة ما عا د جمالُ القصور يَحلُو لعينى
لم أجدْ ومْضَةَ السعادة فيها لم أجدْ غيرَ ظلّ يأسٍ وحزن

عند الرهبان

سِرْ بنا نحو ذلك المعْبد القا ئم فوق الصخور بين الجبالِ
سِرْ بنا سر بنا لعلّ لدى الرُهـ ـبان سرَّ النعيمِ والآمالِ

هؤلاءِ الزُهَّادُ فى القنّةِ البيـ ـضاء حيث الصفاءُ ملء الوجودِ
علَّهم يعرفونَ ما قد جَهِلْنا عن شِهابِ السعادةِ المفقودِ

قد سألتُ الرهبان عن كنزنا السِّحْـ ـريِّ لكن لم ألقَ منهمْ جوابا
لم يُجِبْنِى منهم سوى صوتِ محزو نٍ يغنّى ويجرَعُ الأوصابا

لم أجدْ فى تلك الصوامعِ غير الـ أوجُهِ الشاحباتِ والديجورِ
لم أجد غيرَ وحشةٍ تبعثُ اليأ سَ وصمتٍ كمثل صمتِ القبورِ

هؤلاء الأشباحُ ماذا تراهم؟ آدميّونَ أم بقايا طُيوفِ
فيم جاءوا هنا وأيةُ سلوىً وجدوها ما بينَ هذى الكهوفِ

فى بعيدِ الآفاقِ تحتَ دياجيـ ـرِ وجودٍ تمضى الكآبةُ فيهِ
حيثُ ما زالتِ الحياةُ كما كا نتْ على عهدِ آدمٍ وبنيهِ

حـيث لا زهر لا عـرائش لا أشـ ـجـار لا شئَ غـير هـذا السكونِ
لا جـديدٌ فيـه سوى مـوتِ حيٍّ من بنيـهِ مـا بـينَ حـينٍ وحـينِ
٥
أيّهـا الراهبُ الذى يـقطعُ العُـمْـ ـرَ وحـيـداً فى كـوخِـهِ المكفـهرِّ
هاتِ حـدِّثْنى العـشـيَّـةَ عـمـا عنـد دنيـاكَ من نعـيمٍ وبِشْـرِ
حـدَّثونى عنكم فـقـالوا حيـاةٌ من نـعـيمٍ وأنـفُسٌ مـن نقـاءِ
عـجبـاً أين مـا يقـولـونَ؟ مـا لى لا أرى غيـر حَيْرةِ الأشـقـيـاءِ
مـا الذى عندكم من البشـر والأفـ ـراحِ؟ مـاذا يا أيّهـا الـزاهدونا؟
ليس إلا عُـمْـرٌ يـمـرّ حـزيناً يتـهـاوَى كـآبةً وسكُونا
حـدّثونى عنكم فـقـالـوا قلوب نُسِـجتْ من نـقـاوة وثَرَاءِ
ونفوسٌ صيغَتْ من الزهْرِ والعطـ ـرِ وهـامتْ مـع السَّنَا والنَّقَـاءِ
أين هـذا الذى يـقـولـونَ عنـكم أيّهـا الراهـبـونَ؟ أيـن تراهُ؟
إسمُ (تاييـسَ) لم يَزَلْ يمـلأُ الكو نَ فـأيـنَ الذى أضـلَّت خُطَاهُ؟

مــا نَســينا غَــوَايَةَ الراهــبِ المِسْـ ـكينِ فى حبِّـهـا، وكـيف هداها!
يـا لـه بـائـســـــاً بـابـنـةِ الإثـ ـمِ إلى قـــمّــةِ السَّـمــاءِ وتاها

أيّهــا الـراهبــون لن تنبت الأز هارُ والعطرُ والسَّنا فى النفـوسِ
عـبـثـاً تَهْـربونَ من مُـغْـريات الـ ـعَيْشِ كم فى الـوجـودِ من تاييسِ

لن تذوقـوا شهـدَ السعادة مـا دمـ ـتم أناسيّ من تـرابٍ ومـــــاءِ
كـتـبـت هذه الطبـيـعــةُ للأحـ ـياءِ أن يَكْرعـوا كـؤوسَ الشـقـاءِ

أوَ تَـنْسَـــــون أنكـم لـم تزالـوا مـثلمـا كنـتـمـو حَـيَارَى حَزَانَى
لم تَـزَلْ فــتـنةُ الوجـــود تنـاديـ ـكم وتُـهْـفـيكمُ إلى مـا كـانا

لم تَـزَلْ ذكـريـاتُ أمْـسِكُمُ المهـ ـجور تحـيـا فى الأنفسِ المحـزونه
وخـيـالٌ من عـالـمٍ فـاتنِ الألـ ـوانِ ملءَ المشـاعـر المغـبـونه

أيهـا الراهبــونَ مـاذا إذَنْ نفـ ـعُ اعـتـزالٍ تشـوّهُ الصـبـواتُ
آهِ عــودوا إلى مـصـارعـةِ الدهـ ـر وعـيـشـوا كـمـا تشـاءُ الحياةُ

أيهـا المعـبدُ الحـزين وداعـاً — أنـت يا مـن لاذتْ بـه آمـالـى
لم أجـدْ فى حِمَـاكَ زهـرةَ أحـلا — مى فـيـا ضَيْـعـةَ السُّرى والكلالِ

لم أجـد زهرةَ السـعـادةِ والأفـ — ـراحِ عـند الـزهّاد والـراهبـينا
آه ضـاعتْ أيّامُ عُـمـرى ومـا زا — لَ شِـراعى يـطوى فـراغـاً حـزيناً

عند شط الحـيـاة ألـقيتُ مَـرْسَى — زورقى فى الضبـابِ تحت الظلامِ
أرقُبُ السائرينَ فى الشاطئِ الصخـ — ـرىِّ بيـن الـوهـاد والآكـامِ

أين ألـقـاكِ يا سـعـادةُ؟ هـاتى — حـدّثينى فـقـد بـحـثـتُ طويلا
طال تيـهـى فنبـئـينى مـتـى يبـ — ـلغُ قـلبى مـقـرّكِ المجـهـولا

أولَم أقـطعِ البـحـارِ إلى الرُهْـ — ـبـانِ والزاهدينَ فى الـصْحـراءِ
أولَم تُـنكـر الفـضـيلـةُ ألوا — نَكِ يا لـهـفـتـاهُ ضـاع رجـائى

مع الأشرار

قد رقبتُ الأشرارَ حيناً فلم أعـ — ـشر لديهم على سناك الحبيبِ
فهمُ البائسونَ تَطحَنُهم أيـ — ـدى الليالى بما جَنَوا من ذنوبِ

ورأيتُ الطغاةَ يحيون محزو — نين بين الأوهامِ والأشباحِ
ليس يشفيهمُ من الحزن واليأ — س دواءٌ فالداءُ فى الأرواحِ

فإذا أخمدوا هُتافات مظلو — مٍ فما يُخمدون صوتَ الضميرِ
ذلك الراقبُ الإلهىُّ فى النفـ — ـس لسانُ الهُدَى وصوتُ الشعورِ

أبداً ساهرٌ يراقبُ أقدا — رَ الليالى وسَطْوة الأيّامِ
أبداً يرمقُ الحياةَ من الأعـ — ـماقِ، مُستهزئاً من الأعوامِ

فإذا حادت القلوبُ عن الخيـ — ـرِ علا صوتُ ذلكَ الجبّارِ
فَهُوَ الناقمُ النبيلُ على الشرِّ — وقاضى الطُّغَاةِ والأشرارِ

كيف ينجو الأشرارُ من شقوة الرو — حِ وصوتُ الضمير بالمرصادِ
لا ملاذٌ من حاكمٍ يملكُ الرو — حَ بما فى كفَّيْهِ من أصفادِ

عـجـبــاً أينَ تلتـقـيك حَــيَــاتى؟ يا ضـفــافَ السـعـادة المـنشــوده؟
جــبتُ هذا الوجــود أبحـث لكن لم تزالى الحـقــيــقـةَ المـفـقــوده

جــهلتْك الـدنيــا فــلا أحــدٌ يعـ ـلم مــا أنت واقعٌ أم خــيــالُ؟
كلُّـهم يـســـــألون عـنكِ ولـكن لـم تحــــدّثْ بســــــرِّكِ الآزالُ

ها أنا ذى حـملتُ قلـبى على كـفّـ ـى وســرتُ الحــيــاةَ أبحـثُ عنكِ
أســألُ العــابرينَ هل فــيــهمُ من قـــد روَى قلبَـــهُ المشــوَّقَ مـنكِ

فى الريف

عند هذى الأكواخ شاعرتى ألـ ـقى المراسى تحتَ الفضاء الصاحى
أنظرى أىُّ عالم فاتنِ المجـ ـلى بعيدِ عن ضَجَّة الأتراحِ

أنظرى علّنا بلغنا أخيراً ذلكَ الشاطئَ الذى نتمنَّى
بعدَ ليلٍ من المسير طويلٍ ضاعَ فيه عمرى كَلالاً وحُزْنا

أنظرى أنظرى هنا العُشْبُ الأخـ ـضرُ نشوانَ فى سُفوح الجبالِ
عندَ نبعٍ من قُنَّةِ الجبلِ الأبـ ـيضِ يَجْرى تحتَ السَّنا والظلالِ

الصباحُ الجميلُ قد توَّجَ الود يان بالضوء والجمال البهيجِ
ما أحبَّ الحياةَ فى هذه الجنَّـ ـةِ تحتَ الضياءِ بين المروجِ

ما أحبَّ الصفاءَ يحتضن الأشجـ ـجارَ والوادىَ النضيرَ الخصيبا
ما أرقَّ الأزهارَ فى مَهْدها الور دىِّ ما أعطر الرُّبَى والسهوبا

كلُّ شئٍ فى هذه الجنَّةِ الحُلْـ ـوة يوحى بأننا قد وصلنا
ها هنا شاطئُ السعادةِ هذا حُلْمُ قلبى فما ألذَّ وأهنا

فلنُطفْ بالعرائشِ الخُضْر فلنَغْـ ـنمْ صفاءَ الحياة بَعْدَ أساها

فلتجفَّ الدموعُ فليمضِ أمسٌ مـرَّ بالقلب باكيـاً أوّاها

ولنعش للصفاء يفتنُ دنيا نا غناءُ الرُعَاة عند الجبالِ

ونشيدٌ تُديرُهُ شَفَتَا طفـ ـلٍ يُغنّى على تلولِ الرمالِ

وقطيعُ الأغنامِ فى المَرْجِ تحت الظـ ـلِّ والفجرُ والنَدَى والنسيمُ

وليالى الحصادِ والقَمَرُ السحْـ ـرىّ والطيفُ والصَدى والغيومُ

فلنُقَضِّ الحياةَ فى هذه الجنـ ـة ناسينَ حادثات الحياةَ

ها هنا فتنةُ الطبيعة تُنْجى الـ ـكائنَ الحىَّ من خيالِ المماتِ

هاهنا أستطيعُ أن أفهم السرَّ فـفيم الأسى وفيم البكاءُ؟

هل خَلَتْ هذه المجالى من الأغـ ـنامِ يوماً؟ وهل تعرَّى الفضاءُ؟

ها هنا يستطيعُ أن يفهَمَ القلـ ـبُ جمالَ الدنيا وسرَّ الخلودِ

كل حىٍّ باقٍ فإن ماتَ غِرِّيـ ـدٌ فكم فى الأعشاش من غِرِّيدِ

ها هنا كلُّ زهرة تبعثُ العطـ ـرَ فإن تَفْنَ فالشذَى غيرُ فانِ

كم زهورٍ ستنشُرُ العِطْرَ والألـ ـوانَ من بعدُ فى فضاءِ المغانى

ها هنا إن يَسِرْ أبولو بضوء الشـ ـمس نحوَ المغيب كلَّ مساءِ
فالنجومُ الملألئاتُ جمالٌ شاعريٌّ الألوان والأضواءِ

ها هنا تنطقُ العرائشُ بالشعْـ ـرِ وتحنو على مجارى الجداول
هاهنا تستحمُّ آلهةُ الأنـ ـهار فى الماء تحت ظلِّ الخمائل

كلُّ شيءٍ حُلْوٌ فأينَ ترى السكـ ـانُ؟ أين الفلاّحُ والقُطْعانُ؟
فيمَ لا يملأون عالَمَهم لهـ ـواً؟ وأين الآمال والألحانُ؟

سرتُ فيه وحدى أسائلُهُ عن ساكنيه وأىُّ وادٍ حَوَاهم؟
أىُّ لحنٍ يرنّمونَ إذا الشمـ ـسُ أطلّتْ؟ وما ترى نجواهم؟

كيف يحيَوْنَ فى صفاء من العيـ ـشِ بعيد عن قَسْوة الضرّاءِ
أأظلَّتْهُمُ السعادةُ بالأحـ ـلامِ أم هُم كسائرِ الأشقياءِ

اتراهم يرنّمونَ الأغاريـ ـدَ ويَلْهُونَ فى ليالى الحصادِ
تحت ضَوْءِ النجومِ والقَمَر البا سمِ بين العطورِ والأورادِ

أتراهم أولئك البَشَر اللا هونَ بين الجمال والأحلامِ؟
أتراهم كما تخَيل قلبى؟ أم ترانى أمعنتُ فى أوهامى

يا رُعاة الأغنامِ فى السفح عند النـ ... ـبعِ بين العرائش السّنْدسيّه
حدّثونى عن أغنياتكم الجَذْ ... لَى وعن بسمة القُرَى الشاعريّه

حدّثونى عن الربيع إذا مرَّ ... على هذه القُرَى والشطوط
حدّثونى عن الحَصَادِ ومجنى الـ ... ـزهرِ والبرتقالِ والبلّوط

حدّثونى ما لى أراكم حَزَانَى؟ ... كلُّ راعٍ فى وحشةٍ واكتئابِ
كلُّ راعٍ جهمُ الملامح لا يشـ ... ـدو ولا يَزْدهيه سحرُ الغابِ

أنت يا أيّها الحزينُ أجبنى ... أىُّ حزنٍ فى مقلتيكَ أراهُ؟
أى قيدٍ من المرارة واليأ ... س أظلَّتْكَ يا كئيبُ يداهُ؟

كيفَ يَشْقَى من فى حمى هذه الجنـ ... ـةِ يحيا وتحت هذى السماءِ
كيفَ يشقى الراعى وبين يدَيْهِ ... جنّةٌ من مفاتنٍ وضياءِ

أسفاً قد خُدِعْتُ لم تَصْدُقِ الأحـ ... ـلامُ فيما رسمن من أفراحِ
لم أجدْ عند ذلكَ الشاحبِ ... الصامتِ إلا مرارة الأقداحِ

فهو عندَ الينبوعِ ينظُرُ فى الظلِّ ... إلى الأفْقِ شاحباً مصدوما
ممعناً فى الجُمُودِ والصمتِ كالمو ... تَى يُنَاجى الفضاءَ يَرْعَى الغيوما

لم تزلْ قُـربَـهُ على العُـشْـب النا دى عظامٌ لكائنٍ مـقـتـولِ
هو ذاكَ الراعى الصـغيـرُ الذى را حَ طعـامـا للذئبِ بين الحقـولِ

إيه راعـى الأغنـامِ يا أيّهـا المقـ ـتولُ فوق العُشْب الندىّ النضيرِ
كيف مـاتَ الراعى ولم تَمُتِ الأغـ ـنامُ يا لَـلْمـقـدَّر المَسْطورِ

يا لحَكمِ الأقـدارِ يا راعـىَ الأغـ ـنامِ يـا ظُلْمَ مـا تُريـدُ الصـروفُ
كيف تَفْنَى الأشـواكُ حارسةُ الزهـ ـرِ ويَبْقى الوردُ الرقيق الضـعيفُ؟

إنهـا قـصَّـة الطبـيـعـة يا را عـى قـتـالٌ وأدمـعٌ وشكـاةُ
إن تكنْ قـد قُـتلتَ فـالثـأرُ باقٍ وغـداً تَقْـتلُ الـذئابَ الرُعَـاةُ

نازعـتنا البـقـاءَ فـى هذه الأر ضِ وحـوشُ الأحـراش والأطيـارُ
فلـنا النـصـرُ مـرّةً ولهـم أُخْـ ـرى كـمـا تبـتـغى لنا الاقـدارُ

فـعـزاءً يا أيّهـا الجَـسَـدُ المصـ ـروعُ فى غـمـرة الـكرى الأبدىّ
قـد بكاكَ الراعى الصـديقُ ومـا زا لَ غـريقـاً فـى حُـزْنِهِ الأخـوىّ

لم يَزَلْ جـامـداً على حـافـةِ النبـ ـعِ وفى مـقـلتيـه دَمْعُ الشـجـونِ
يرقب الماءَ شـاكـيـاً قـسـوة الاقـ ـدار مـسـتـنكراً ضـلال المنونِ

صامتاً ساهماً بعيداً عن الأغـ ـنام حيرانَ فى ضَبَاب الوجودِ
رازحاً تحت وَطأة الألَمِ الطا غى مُشيحاً عن الشذى والورودِ

كلما جفَّ دمعُهُ ذكر المقـ ـتولَ والذئبَ فاستردَّ أساهُ
يا لأحزانه المُلحّاتِ يا لـلـ ـهولِ ماذا ترى يعيدُ صفاهُ؟

السَّنا والجمال؟ يا حَيْرةَ الرا عى ويا ضَيْعةَ السنا والجمالِ
بعد حينٍ ستَعْصفُ الريحُ بالصفْـ ـصافِ والوردِ فى سُفُوح الجبالِ

بعد حين يأتى المساءُ كئيباً ويلفُّ الجبالَ بالأحْزانِ
ويسودُ السكونُ غير هتَّافٍ ردّدتْهُ ضفادعُ الغدرانِ

غيرَ صوت النشيج فى قرية الرا عى تعالَى تحتَ الدُجَى المنشورِ
غير صوتِ القَدُومِ يُعْمِلُهُ الحفْـ ـارُ فى الأرض بين صَمْتِ القبورِ

ثم يمضى الليلُ العميقُ إلى غيـ ـرِ رُجوعٍ وتبسمُ الاضواءُ
ويعودُ القُمْرىُّ يَصْدحُ جذلا نَ كأنْ ليس فى الحياة شقاءُ

غيرَ دار ماذا يعذِّبُ أهل الـ ـقرية البائسين من آلامِ
غيرَ دارٍ ما خلفَ اكواخهم من رَعَشاتٍ ولوعةٍ وسَقَامِ

ليسَ يدرى القُمْرِىُّ لا ليس يدرى ما وراء الأكواخ من حِرْمانِ
ليس يدرى أنّ الطبيعةَ تَقْسو ليس يدرى مرارةَ الأحزانِ

ليس يدرى ماذا وراء بيوت الطـ ـين هذى من وحشةٍ وظلامِ
ليس يدرى ماذا يهزُّ الخيامَ الـ ـسودَ من لهفةٍ ومن آلامِ

ليس يدرى القمرىُّ ما يُحْزِنُ الفـ ـلاحَ فى كوخهِ وليس يراهُ
ليس يدرى أنّ الأماسىَّ قد تمـ ـضى عليهِ وما يغيبُ أساهُ

ليس يدرى ما يفعلُ الجوعُ والحز نُ بأهلِ الأكواخِ كلَّ شتاءِ
حينما تَغْمُرُ الثلوجُ ثَرَى المر جِ وتطغَى عواصفُ الأجواءِ

حينما فى حَضَائرِ القريةِ الحيـ ـرَى يموتُ القطيعُ موتَ غَبينِ
حينما تُذْبلُ العواصفُ زهر الـ لوز والبرتقال والياسمينِ

حينما تدفن الثلوجُ حقول الـ ـقمح يا رحمتاه بالفلاّحِ
حينما يصرخُ الجياعُ الحَيَارَى فى ظلامِ الأكواخِ كلَّ صباحِ

أيّها الصادحُ المغرِّدُ فوق الـ ـدَّوحِ طِرْ عن هذا الوجودِ الأليمِ
دَعْ أساهُ يا طيرُ لى أنا وحدى واحىَ أنتَ الجذلانَ بين الغيومِ

دعْــهُ لي دَعْ آمـــالَ قـلبيَ تـذبل　　بعـد بحثى الطويل فى الكون عنـها
دع فـؤادى يَعُـدْ إلـى ظُلْمـة الأحـ　　ـزانِ واخلص يـا بلبلى أنت منـهـا

خَـيبتْ هذه الـقُـرَى حُلْوَ أحــلا　　مى فــلا رَسْمَ للسـعـادة فـيـهـا
ليس يدرى الـراعى المعـذَّبُ مـأوا　　ها ولا كـــان مــرّةً من بـنيــهــا

خـدعـتنى الأوهامُ لـيس لدى الرا　　عى رخـــاءُ الحــيـــاة ليس لـديْه
فـهو ذاك المكدودُ تصهـرُهُ الشمـ　　ـس ويقسو الحَصَى على قَـدَمَيْه

يتــمنّى أن لو تبـــدّلَ بيتُ الـطـ　　ـين قـصـراً على حـفـاف المدينه
ويُريدُ الحـــيــاةَ لـهــواً فـــلا أغـ　　ـنامَ تـشـغـو ولا نُـفُـوسَ حـزينه

•

يا لوهـم المسكين، كـم من شـقىٍّ　　فى ظلال القـصــور كم مـصـدومِ
ليـس للـمـــال أن يُـذيقَ فـــؤاداً　　بشـريّا مـــعنى الرضى والـنعـيمِ

يا سـفيـنى ما عـاد فى القـرية الحلـ　　ـوة مـرسى لـنا فـفـيمَ البـقـاءُ
ليسَ تحتَ الصفصاف إلا بيوتُ الطـ　　ـيـن والسُـــقْم والـطَوَى والبـكاءُ

أقلعـى أقلعى بـنا قــد ســئـمنا　　صَـرَخـات الجيـاع فى كلّ شـعْبِ
قــد رأينا الـدموعَ فـى كلّ عــينٍ　　وشَــهِـدْنا الشـقـاءَ فـى كلّ قلبِ

مـا الذى يا سـفـيـنُ يُغْـرى بأن نَبْـ ـقى إذن؟ مـا الذى تـرى يُبْـقـينا؟

هل وجـدنا طيفَ السعـادة هل فى هذه الأرضِ فـــرحـــةٌ تُغْــرينا؟

بين الفنانين

انشرى يا سفينُ أشرعةَ السيـ ـر وشُقّى عُبابَ هذى الحياة
ثم ارسى بنا على شاطئ الفنِّ وبين الأشعار والأغنيات

علّنا واجدونَ فى ذلك الشا طئ ظلَّ السعادة المتمنَّى
علهم قد ترشّفوا شهدَهَا السا حرَ حتى صاغوه شعراً وفنّا

طالما صوّروا لألحانهم ما قد دَعَوْهُ بنشوة الفنّان
طالما حدّثوا عن الأملِ الحلـ ـوِ وغنّوا بالنور والألوان

فلنقف عندهم إذن ولنراقبْ ركبَ أيّامهم وكيفَ تمُرُّ
أتراها ليلٌ ودمعٌ وحزنٌ؟ أم تراها فجرٌ وضِحْكٌ وبِشْرُ؟

مأساة الشاعر

قد هبطنا فى شاطئ الشعر والفن ... فماذا فيه من الأفراحِ؟
ها هو الشاعرُ الكئيبُ وحيداً ... تحت سمع الآصال والأصباحِ

أبداً ساهمٌ يراقبُ أيّا ... مَ حياة لاتنقضى بَلْواها
لا يرى الواهمون غير ضُحَاها ... ويعيشُ الفنّانُ تحت دُجَاها

يرقبُ الأشقياءَ فى ظُلْمة العَشْـ ... ـشِ ويبكى لهم بكاءَ غَبينِ
ويصوغ الألحانَ يرثى لبلوا ... هُم ويبكى على الوجودِ الحزينِ

طالما باتَ ساهدَ الطرف حيرا ... نَ يُسرُّ الظلامَ أحزانَ شاعر
لا يَرَى فى الحياة إلا وجوداً ... ظلّلتهُ يدُ الشقاء العاصرْ

أبداً لا يَرَى سوى مسرح المأ ... ساة بين الدموع والتنهيد
وستاراً من الدُجَى يتجلّى ... كلَّ يومٍ عن ميّتٍ ووليدِ

واكتئاباً يمشى على صور الكو ... ن جميعاً ولوعةً وشقاءَ
ودموعاً تلوحُ فى كل عينيـ ... ـنِ ودهراً يخادعُ الأحياء

ليس يَلْقَى الحيــاةَ إلاّ حــزينَ الـ ـقلب حيــرانَ فى همـوم الحيـاةِ
كلمــــا أنَّ بائــسٌ ذرف الشـــا عـــرُ دمع الأسَى عـلى المأســاةِ

وإذا أذبـلَ الجليـــــــدُ زهو الـ لوز رانَ الأسى الـعـمـيقُ عـليـهِ
واذا مــاتـت البــلابلُ ظـمــأى جـال دمعُ الـرثاءِ فى مُـقْلَـتَـيـهِ

فـهو قلبٌ قـد صيغَ من رقّـة الزهـ ـر وعـينٌ قـد طُـهّـرتْ بالدمـوعِ
وحــيـاة حـسّـاسـة لـيس يدرى سـرَّها غـيـرُ شـاعـرٍ مطبـوعِ

هى عـمـر ظمآنُ تعـصُـرُهُ العُـزْ لةُ عَـصْـراً، يمـرُّ كـالآزالِ
فى سكونٍ لا صـوتَ يُسْـمعُ فـيـه غـيرُ صـوتِ الصرَّارِ تحت الليـالى

غـير هـمس الحمام فى الجَبَل المو حشِ أو لحن بلبلٍ مـهـجـورِ
وحـفيف الأشـجار فى قـبضـةِ الر يحِ وصـوت الرعـود فى الديجـورِ

غير هَمس الأشباح ملء دُجَى الشا عـرِ فى ليـله الطويل الجـديبِ
يتلقّى الأشعـارَ عنهـا ويحيـا أبداً فى حـمى الأسَى والشحـوبِ

أيهـا الشــاعـرُ الذى يسـهـرُ الليـ ـلَ وحـيداً مسْتَـغرقـاً فى الجمـودِ
مُـحْـرِقـاً روحَـهُ بَخُـوراً على حبٍّ (أبولـو) ووحـيِـهِ المنشـودِ

ساهداً حانياً على القلم الشا عر يرثى الدجى ويبكى السنينا
راسماً للحياة صورتَها المرّ ةَ بين الجياعِ والبائسينا

أطفئ الضوءَ أيّها الشاعر المتـ ـعبُ وارحم فؤادَكَ الموجوعا
كاد يخبو ضوء السراج وتأتى ظُلُمات الدُجَى عليه جميعا

رقد العالَمُ المعذَّبُ تحت الـ ليلِ فارقد واتركْ بقايا النشيدِ
حسبُكَ الآن ما سهرتَ مع الحا رسِ تَرْثى لليله المكدودِ

قد أوى الحارسُ الكئيبُ إلى الكو خِ إلى غمضة الكرَى والطيوفِ
فكَفَى يا حزينُ عطفا على الكو ن ورفقاً بقلبك الملهوفِ

عجباً كيف تُسْهر الشاعرَ المُلـ ـهَمَ أحزانُ من عن الحزن ناموا
كيف ترقا مدامعُ الورد فى الحقـ ـل ويبكى على أساها الحَمَامُ

آه يا شاعرى المعذَّبَ ماذا؟ أكذا تصرف الحياةَ غبينا؟
فى سبيل الوحى السماوىِّ تحيا شاحب الوجه متعباً محزونا

بعتَ بالشعر لهوَ أيّامك الظمأ ى وعُفتَ الحياةَ عيناً وقلبا
ونذرت الشبابَ والحبَّ للفن لتحيا على الجراح مُحبّا

ليس يعنيكَ أن ترافــقَك الأحــ ـزانُ مــا دمت مُلْهَــمـا صَــدَّاحـا
ليس يُــرْضــيك غــيــرُ لحنٍ تغنّيــ ـه وإن صــغــتَــهُ أسـىً ونواحــا

ليس تُعْطى الحيـاةُ للشـاعـر المجـ ـدَ إذا لـم يَذُقْ همــوم الحــيــاةِ
ليس تسـمـو الأرواحُ إن لم تطهّـرْ ها مـــعـــانى الدمــوع والآهاتِ

فـإذا أشـحبَ الأسى وجنةَ الـشـا عـــــــرِ أو بـات لـيـلَـهُ أوّاهـا
وإذا عضّ قلـبَـهُ مـخلبُ الحـز نِ وضــاقـت حــيـــاتُهُ بأســاها

خـاطبتْهُ الحيـاةُ: يا شـاعـرى الملـ ـهمَ يا ابن الشـحــوب والآلامِ
النجـومُ الوضـاءُ لاتـبـعثُ السحـ ـرَ اذا لـم يُسْــدَلْ سـتــارُ الظلامِ

والذى يجـــمعُ الزهـورَ يدوس الـ ـشـوكَ يا شـاعـرى ويمـشى عليهِ
والذى يعــشقُ الطبـيــعــةَ لا يَثـ ـقُلُ صمتُ الدُجَى على مِسْمعيهِ

فاحـتمل ما استطعتَ أحزان عـمر هو لولا الأحــزانُ مـا كـان شــيّـا
وادفنِ النورَ فـى جـفـونك مَيْـتـاً وابعثِ الشــعــرَ من فـؤادك حــيّـا

غنِّ هذا العــذابَ صـف لحيـاة النـ ـاسِ مـــاذا يُبْكى فـــؤادَ الشـاعــر
صِفْ لهم كيف يصرفُ العمرَ حيرا نَ ويحــيــا عـلى أسـاهُ الـعــاصــر

صفْ لهم ذلك الصراعَ صراعَ الـ ـفكر والقلبِ فى ظلامِ الحياةِ
كلَّما أخفتَ النعيمُ صراخَ الـ ـقلب ضجَّ الفكرُ الأبىّ العاتى

فهما فى حياته نبعُ أحزا ن يَردّ الحياة أفقاً كئيبا
وهما الثائرانِ لابدَّ ممن صو تهما وليكنْ دماً ولهيبا

شرعة الفكر أن يغرِّدَ بالشعـ ـر ويشدو وان يكن محزونا
ومُنَاه السموُّ للعالم الأعـ ـلىْ وان يَلْق فى الطريق المنونا

فهو أفقٌ حرٌّ يريد حياة الـ ـعقل فى معزلٍ عن الإحساس
وسواءٌ لديه أن يشحبَ الشا عرُ أو أن تقسو عليه المآسى

أفليس الشحوبُ والألمُ العا صرُ نبعاً للشعر والألحانِ
أو لا تقنعُ الحياةُ من الشا عر باللحنِ فى حِمَى الحرمانِ؟

فيمَ كان الصراعُ يبعثه القلـ ـبُ إذنْ فيم؟ فيم لا يطمئنُّ
فيمَ يأبَى الحياةَ فى وحشة العُزْ لةِ والفكر فيم يمضى يئنُّ؟

هكذا تصرُخُ الخواطرُ بالشا عر فى ليله، فإن جاءَ فجرُ
ورأى الراعىَ الصبىَّ يسوقُ الـ ـغنَم الظامئاتِ لم يبقَ شِعرُ

ومضى القلبُ صارخاً أين حبّى؟ أين لهوى؟ وفيمَ أبقَى أسيرا
أبداً لا أنى أضحّى بأفرا حى، وأحيا ذاكَ الحزينَ الكسيرا

من بكائى تصوغُ شعركَ للكو نِ ومنّى المُنَى ومنّى الحنينُ
من دمى هذه الملاحمُ فارحمـ ـنى أنا العاشق الشجِى المغبونُ

انطلق بى دعنى أذقْ فرحة الحبِّ لعلّى من الشقاء أفرُّ
ما غنَاُء الأشعارِ يا شاعرى المتـ ـعَبَ إن كانتِ الحياة تمرُّ؟

ليس يُغْنى عنكَ النشيدُ إذا متَّ حزيناً وليس يرويك لحنُ
لاتَقُلْ فى غدٍ غدٌ نَدَمٌ قا سِ على ما مضى ويأسٌ وحزْنُ

تحت ثقْلِ الثرَى وفى وحشة المو تِ سيخبو هذا النشيدُ ويَفْنى
فإذا لحنُكَ الذى صغتَهُ يأ سا وحزناً للناعمينَ يُغنَّى

وستُنْسَى أنت الذى ملأ الدنـ ـيا جمالاً وماتَ ظمآنَ جَهْما
وسيُبْلى الترابُ ما يتبقّى منك يا مستطارُ لحماً وعظما

ثم ماذا؟ غداً يقولونَ قد كا نَ فتىً بيننا طواهُ الهزالُ؟
ما رأينا منه سوى طيفِ إنسا نٍ فقدناهُ واصطفاهُ الخيالُ

سيقولون شاعرٌ رَكبتْهُ ... لُوثَةٌ فانزوَى وعاشَ غريبا
أبداً يرقب الفضاء يصيد النـ ... ـجمَ أو يحصدُ الظلام الكئيبا

يرمق الزهر من بعيد وفى عيـ ... ـنَيْه أحلامُ عاشقٍ ولهانِ
جامداً قانعاً بعُذْرِيٍّ حبٍّ ... يكتفى بالعطورِ والألوانِ

أيها الشاعرُ السجينُ كفانا ... غربةً فى حياتنا ووجوما
حسبُكَ الآنَ ما خضعتَ لصوت ... العقل وارحم شبابَكَ المحروما

ويمرّ النهار والشاعر المغـ ... ـبونُ حيرانُ بين فكّى أساهُ
بين همس الصوتين يحيا كئيباً ... ويناجى طيوفَهُ ومُنَاهُ

فاذا جاش قلبُهُ بمعانى الـ ... ـيأس ألقى أحزانَهُ فى النشيدِ
لائذاً باليَرَاع يسكبُ فيه ... ما يُعَانى من العذابِ الشديدِ

ساكباً روحَهُ على كل بيت ... ناحتاً من فؤاده الألحانا
راضياً بالشُحوب والسُقم حبّاً ... لأبولو مُسْتسهلاً ما كانا

كلُّ بيت من شعره يتقاضا ... هُ شحوباً ورعشةً وسَقَاما
فهوَ فى لحنه يُذيبُ صباهُ ... ويضيعُ الشبابَ والأحلاما

ثم مــاذا؟ ســرعــانَ مــا يزأر الإعــ ـصــارُ، والزهرةُ الجـمــيلةُ تذْوى
وإذا الضـوءُ فـى الأعـالىّ يخــبــو وإذا النجـمــةُ الوضــيـئــةُ تهـوى

ويغــيبُ الضــيـاءُ فى لـيلِ قــبــرِ ليـس تبـكى لـه ســـوى الأمـطارِ
ليس يرثـيـه غــيــر ذاوى صِـبــاهُ وبقــايا الـقــيــثــارِ والأشــعــارِ

ذلك الشــاعــرُ الذى كــان يحــيـا عــمَــــرهُ باكـــيــاً علـى كلّ باكِ
ذلك العــاطفُ النبيـلُ على الأحــ ـزان ذاكَ المُـلقَى عـلى الأشـــواكِ

نبـــذْتهُ الأيام فـى قـــبـــره المو حش تحت الرياح والظلـمـــاتِ
حــيثُ لا آهةٌ يُـصَــعِّــدُها قـلــ ـبٌ ولا دمـــعـــةٌ على المأســاةِ

هكذا فى العذاب تمضى حياة الشـ ـاعـــرِ الملهمِ الرقـــيقِ وتُنْسَى
هكذا يـمــلأ الوجــود جــمــالاً ويذوق الآلام كـــأســـاً فكأســا

هكذا كـلُّ شــاعــرٍ فــارحـلى بى يا ســفـينى عن عــالَمِ الشــعـراءِ
ولندْعــهم فى ذلك الشَـجَـنِ العــا صــفِ بـيــن الآهــات والأدواءِ

ولنسـر فى بحـر الحـيـاة كـمـا كنّـ ـا ونُلْقى المرَسـى على كل سـاحلْ
ربما يـا ســفـــينُ نلـقى ضــيــاءً يتـــجلّـى بعــد الظـلامِ القـــاتلْ

عند العشاق

ربما كــان فـى حـيــاة المحـــبـيـ ـــنَ رجــاءٌ أو دفـقــةٌ من ضـيــاءِ
ربما كـــــان عـنـدهـم ذلكَ الإكـ ـــسـيـــرُ بين الخـيـــالِ والأهواءِ

شــاطئَ الحبِّ أيّـهــا اللامعُ الخـا دع هات الحـــديث عـن أبنـائكْ
صفْ مُنَاهم وبِشْــرهم وأســاهم صفْ لنا مـا اختـفى وراء صفـائك

صفْ لنا كيف يعصرُ العاشقَ الشو قُ إلــى مـن يـنـــامُ عـــن بـلــواهُ
كـيف يلهو به الخيالُ فـيُمْضى الـ ـليـلَ سـهـرانَ غــارقــاً فـى مناه

صفْ حـيـاةَ الذى استبـدَّ به الحبُّ فــخـــال الحـيـــاةَ جنّة ســحْـــر
ومــضـى فــاتحــاً ذراعـيـــه لـلنو رِ يصـــوغُ الحـيـاةَ ديوانَ شِعْــر

يلثم الـزهْرَ فى الحـقـول ويشــدو للـيـــالى الحـــصـــادِ لحنَ هواهُ
راقـصـاً كـالفـراش لـلقَـمَـر الحلـ ـو خـليـــاً مـن يأسِـــهِ وأســاهُ

راسـمـاً للغـدِ الجـمـيلِ من الأحـ ـلام مـــا لا تطيــقُـــهُ الأقـــدارُ
ســادراً فـى أوهامــهِ غـيــرَ دارٍ أن هذى الحــيـــــاةَ هـولٌ ونارُ

فى يـديه كــأسُ الرحــيق يغنيــ ـه على مِــسْمعِ النهــار ويَشْـربْ
وعلى ثغــره ابتــسامــةُ مـخــدو عٍ يُغّنى له الشــقــاءُ فــيطرَبْ

ثم يخــبو الضيــاءُ ذات مــســاء ويُفـــيقُ النشـــوانُ بـالأوهامِ
فــــإذا الحــــقل ذابـلٌ لا زهورٌ لا فــراشٌ لا شىءَ غــيــر الظلام

أين تلكَ الأحلامُ؟ كيف ذوى الحبُّ؟ وأين الوجــهُ الحبــيبُ النضــيرُ
يا لَغَــدْرِ الأيامِ لـم تحـفظِ العــهــ ـدَ لقـلبٍ جَنَى علــيــه الشــعــورُ

وتمرّ الحــيــــاةُ والعـــاشق المهـ ـجــورُ قلبٌ دامٍ ووجـهٌ شــاحبْ
أبداً يُـرجعُ الخــيـــــال إلـى الما ضى ويبكـى على الغــرام الذاهب

أبداً يَرْمقُ الحــيــاة كــئــيـــبــاً من وراء الــدمـــوع والأحـــزان
ويراهــا الذئبَ الـذى ينـهشُ القلـ ـبَ ويقسو على الأسى الإنسـانى

أبداً يــســــأل الظلام حـــزينـاً شـــاردَ الفـكر أين ألحـــانُ قلـبى
أيـن زَهـرى وأيـن بـلـبـلـىَ المنـ ـشـودُ؟ ماذا أضـاع أحلامَ حـبّى؟

أين تـلكَ التى سـكبتُ علـيــهـــا من حــيـــاتى ومن فــؤادى ولحنى
أين تلـكَ العــيــونُ تُلْـهمُ أحــلا مى وتمحــو غشـاوة الحـزن عنّى؟

يا لَقلبِ المسكينِ تلذعه الذكـ ـرى وتُخْـيى غـرامَـه وأسـاهُ
هكذا قـد قضى عليه كيوبيـ ـدُ فـمـاذا تُفـيـدُهُ شكواهُ؟

فليجدْ فى الخيالِ والشعرِ والذكـ ـرَى دواءً لحـبِّـه المصدومِ
وليقض الحياةَ بين حقـول الـ ـقمح والقطن تحت ضوء النجومِ

وليحبَّ الغيومَ والفجرَ والنهـ ـرَ ويُمْضى الأيّامَ بين التلالِ
يتغنّى فيعشقُ الزهرُ موسيـ ـقاهُ عند الهُوَى وفوق الجبالِ

فحياةُ الخيالِ أجملُ من وا قعِ حبّ ملفّعٍ بالرمادِ
وهنا يا مصدومُ حرّيةُ الرو ح فماذا يُغْريكَ بالأصفادِ

سل كيوبيد عن شقاوة صرعا هُ وماذا يَلْقَوْن من تعذيبِ
كيف يَحْيَوْن فى جحيمٍ من الشكِّ وليل من الضَنَى والشُحُوبِ

إن قضتْ بالحرمانِ أيَّامُهم عا شوا حَزَانَى معذَّبين حَيَارى
يشتكون الأقدار والزمن العا تى ويحيون أشقياء أسَارى

وإذا ما تحقق الحُلُمُ العَذْ بُ أشاحوا عن سحره كارهينا
ويعودُ الضياءُ ليلاً دجيّاً وتعود الأزهارُ شوكاً وطينا

هكذا يخـمـد الغـرامُ وتخبـو شـعلةُ الحبّ والمنى والحنينِ
فـالسعيـدُ السعيـدُ من دَفَنَ الحبَّ وعـاشَ الحيـاةَ غيـرَ سجيـنِ

يا دمـوع العشّاق قـد شبع العـا لم بـؤسـاً فـلا تَزيـدى أسـاهُ
قـد مـلأنا الكون الجـميل دمـوعاً وشـبـعنا من صـمـتـهِ ودجـاهُ

فـانضبى أنتِ حسبُنا شَجَنُ العيـ ـش وبلوى الحـيـاةِ والأيامِ
حسبُ هذى الأرضِ الكئيبةِ دمع الـ ـبـائسيـن الجيـاعِ والأيتـامِ

انضبـى واطردى خيـالَ كيـوبيـ ـدَ وحسبُ الغرامِ هذى الضحايا
لن ينالَ العـشّاقُ يومـاً سوى أد مـعِ حبٍّ حـفَّتْ سناهُ المنايـا

قيس وليلى

كيف مات المجنون؟ هل سَعدتْ ليـ ـلى؟ سلوا هذه الصحارى الحزينه
اسألوها ما حدَّثَ الريحَ قيسُ الـ أمسِ ليلاً وكيف عاش سنينَهْ

ذلك الشاعرُ الشريدُ الخياليُّ صديقُ الظباءِ فى الصحراءِ
ونجيُّ الرمالِ والوحشِ والبيـ ـدِ وطيف الشحوب والأدواءِ

سحقَ الحبُّ قلبَهُ المرهَفَ الغضَّ فعاش الحياةَ دونَ مقرٍّ
فوق تلك الرمالِ يُنْشِدُ أشعا رَ هواهُ لكل هوجاءَ تسرى

راسماً فوق صفحةِ الرملِ ما كا ن من الشوقِ والأسى والحنينِ
لاثماً كلَّ موضعٍ خطرت ليـ ـلَى عليه فى ماضياتِ السنينِ

يومَ كانت ترعى الشياهَ ويرعى قيسُ أغنامَهُ فتشدو ويشدو
وتدوّى باللحن تلك الرمالُ الـ ـسُمْرُ حيث الظباءُ تلهو وتعدو

يومَ كانتْ يا لهفةَ الشاعرِ العا شقِ ماذا قد أبقتِ الأقدارُ؟
نضبتْ فرحةُ الصبا وذَوَى الوا دى وجفَّت فى رَحْبِهِ الأزهارُ

وتبــقَّى قـبــر على قَـــدَمِ التلِّ ذَوَتْ تحــتَــهُ مـــعـــالم ليلى
وحَنَتْ فـــوقَـــهُ شـجـيــرةُ ورد تخِـذَتها الأشـلاءُ فـى القـبـرِ ظلاً

وتبــقَّى قـــيسُ المعـــذَّبُ يبكى مــا تبـقَّى من عُـمْــره المصــدومِ
راقـداً عـند حـافــة القبــر لا يفـ ـتـأ يشـكو إلى الصَبَـا والـغـيـومِ

يتـــمنى ليـلَ المنـايا ويـدعـــو هُ إليـــه بأعــذبِ الأســـمــاء
ويغنِّى للمـــوت أجـملَ ألحـــا نِ هواهُ تحت الدُجى والضـــيـــاء

ثم جــاء الصبــاحُ يومــاً وقــيسٌ فى يـد الموتِ ذاهلٌ مـــصـــروعُ
ليس تَبـكيه غـيــرُ تنهيــدةِ الريـ ـحِ وصـوتِ البومِ الـكئيبِ دمـوعُ

يا قلوبَ العشَّاق حسبُك حبّاً واقبسى من مـأسـاة قـيس مـثـالا
هى هذى الحـيــاةُ لاتمنحُ الأحـيـ ـيـــاءَ إلا الـعـــذابَ والأهوالا

خـدعـتنا بالحبّ والشـوق والذكـ ـرى ومـا خلفــهـا سـوى الأوهامِ
عـــالمٌ ســافـلٌ يضجُّ مـن الإثـ ـم ويحـيــا بين الهُـوَى والظلامِ

فى أحضان الطبيعة

أيها الشاعرون يا عاشقى النبـ ـلِ وروحِ الخيال والأنغامِ
ابعدوا ابعدوا عن الحبِّ وانجوا بأغانيكمُ من الآثام

اهربوا لا تدنّسوا عالمَ الفنِّ بهذى العواطف الآدميّه
احفظوا للفنون معبدها السا مى وغنّوا أنغامَها القُدُسيّه

قد نعمتم من الحياة بأحلى ما عليها وفزتُمُ بجَنَاها
يعمَهُ الآخَرون فى ليلها الدا جى وأنتم تحيَوْنَ تحت سناها

اقنعوا باكتئابكم واعشقوا الفنَّ وعيشوا فى عُزْلة الأنبياءِ
وغداً تهتفُ العصورُ بذكرا كم وتحيَوْنَ فى رِحابِ السماءِ

اقنعوا من حياتكم بهوى الفنِّ وسحر الطبيعة المعبودِ
واحلموا بالطيور فى ظُلَلِ الأغـ ـصان بين التحليقِ والتغريدِ

اعشقوا الثلجَ فى سفوح جبال الـ أرضِ والوردَ فى سفوحِ التلالِ
وأصيخوا لصوتِ قمريّةِ الحقـ ـلِ تغنى فى داجيات الليالى

اجلسوا فى ظلال صَفصافة الوا دى وأصْغُوا إلى خرير الماءِ
واستمدّوا من نغمة المَطَر السا قط أحلى الإلهام والإيحاءِ

وتغّنوا مع الرعاة إذا مرّ وا على الكوخ بالقطيع الجميلِ
وأحبّوا النخيلَ والقمحَ والزَهْـ ـرَ وهيموا فى فاتنات الحقولِ

شجرات الصَّفْصاف أجملُ ظلاً من ظلال القصورِ والشُرُفاتِ
وغناءُ الرعاةِ أطهَرُ لحناً من ضَجيجِ الأبواقِ والعَجَلاتِ

وعبيرُ النارنج أحلى وأندى من غُبارِ المدينةِ المتراكِمْ
وصفاء الحقول أوقَعُ فى النفـ ـسِ من القَتْل والأذَى والمآثِمْ

وغرامُ الفراشِ بالزهر أسمى من صبابات عاشقٍ بَشَرِىٍّ
ونسيمُ القُرَى المغازلُ أوفى لعهودِ الهَوَى من الآدمىِّ

وحياةُ الراعى الخيالىِّ أهنا من حياة الغنىّ بين القُصُورِ
فى سفوح التلالِ حيثُ القطيعُ الـ ـحلوُ يرعَى على ضفاف الغديرِ

حيثُ تثغو الأغنامُ فى عطفة المَرْ ج وتلهو فى شاسعاتِ المجالى
وينامُ الراعى المغرِّدُ تحت السّـ ـروِ مستسلماً لأيدى الخيالِ

فى يـديه الناىُ الـطَروبُ ينـاجــيـ ـه ويـشــدو على خُطَى الأغـنامِ
مـسـتـمداً من همـسِ ساقـية السـفـ ـح لحـونَ الشـبــاب والأحــلامِ

آه لو عـشتُ فى الجـبـال البـعـيـدا ت أســوقُ الأغـنامَ كل صــبــاحِ
وأغَنى الصـفـصافَ والسَّروَ أنغـا مِىَ وأُصْـغـى إلى صـفـيــرِ الرياحِ

أعـــشقُ الـكَرْمَ والعــرائشَ والـنبـ ـع وأحـيــا عُـمْـرى حيــاةَ إله
كلَّ يومٍ أمـــضـى إلى ضـفَّــة الوا دِى وأرنو إلـى صـــفـــاء المـيـــاه

أصـدقــائى الثلـوجُ والزَهْرُ والأغـ ـنامُ، والـعــود مـؤنسـى ونجـيّى
ومـعى فى الجـبــال ديوانُ شـعــرِ عــبـقــرىٍّ لشـاعـرٍ عـبـقــرىٍّ

أتغنَّى حـيـناً فـتُـصْـغـى إلى لحـ ـنى مـيــاهُ الوادى ومـرتـفـعــاتُهْ
وأناجى الـكتــابَ حـيـناً وقــربى هدهدٌ شــاعــرٌ صَـفَـتْ نـغـمــاتُهْ

وخـريرٌ من جدولٍ مُـعْشبِ الضِـفَّـ ـة يجـرى إلـى حــفــاف الوادى
وثغــاءٌ عـــذْبٌ من الـغنَم النـشـ ـوَى وهمسٌ من الـنسـيم الشادى

آه لو كـــان لـى هنـالك كـــوخٌ شـــاعــرىٌّ بيـن المروج الحـزيـنه
فى سكون القُرى ووحـشتـهـا أقـ ـضى حيـاتى لا فى ضجـيج المدينه

ليتني من بنات تلك الجبال الـ ـغُنِّ حيثُ الجمالُ في كل رُكْنِ
ليتني ليتني وهل تبعث الأحـ ـلامُ إلا الدموعَ في كلّ عينِ

قدّرتْ لي السنينُ أني هنا أقـ ـضي حياتي قلباً رقيقاً شجيّا
في ضبابِ الخيالِ أمشي وحولي عالم للغنى يموت ويحيا

قد أحبُّوا أيّامَهمْ وتمرّدْ تُ عليها فعشتُ في أحلامي
إن أكنْ قد وُلدتُ في هذه الضجّـ ـة فلألتجئْ إلى أوهامي

ولأعشْ في الخيال حيث تهيمُ الـ ـروحُ بين المروجِ والقطعانِ
هكذا تَهْدأُ الأماني إلى حيـ ـنٍ وتخبو مرارةُ الأحزانِ

هكذا أدفِنُ الطموحَ كما يَدْ فِنُهُ كلُّ طامحٍ بَشَريٍّ
وعيونُ الأقدارِ يضحكن مني هازئاتٍ بضعفيَ الآدميِّ

يا عيونَ الأقدار لا ترمقي دمـ ـعي ولا تهزأي بقلبي الحزينِ
إن يكن في دمي طموحُ نبيٍّ فأسى اليائسينَ ملء عيوني

كان هذا الطموح لعنةَ أيّا مي فيا ليتني عصيتُ هواهُ
كلما حقّق الزمانُ لقلبي حُلُماً صوّرتْ حياتي سواهُ

لست أدرى مـاذا سيجنيه قلبى ... من شُـرُودى فى كل أُفْقٍ ونجمٍ
أبداً أرتقى النجـومَ وأرنو ... لمجاهيلِ عـالمٍ مـدلهمٍّ

لست أدرى شيئاً أنا اليأس يا أر ... ضُ وأنت ابتسامتى ودموعى
أنتِ وحيى ومنكِ تنبُعُ أحلا ... مى، وإن كنتُ فى حماكِ الوضيعِ

ارفعينى إلى السماء إذا شئـ ... ـت بوحيٍ من سحرِكِ الشاعريِّ
وأعيدى منى إذا شئتِ للطيـ ... ـنِ فتاةً تبكى على كل حيٍّ

أضحكينى وأطلقينى ورقاء ... تغنى بحسنكِ الفتَّانِ
أو دعينى أبكى على أشقياءِ الـ ... أرضِ بين الحنينِ والحرمانِ

ضاع يا أرضُ فيكِ معنى الأمانى ... وتبقَّى الشقاءُ والأكدارُ
وخبَتْ فى كآبةِ الموتِ أصوا ... تُ الأغانى واستسلم القيثار

فعلام العزاءُ والأمل المو ... هومُ فى حومة الدجى المدلهمِّ
ولم الأشقياءُ يُخفون بلوا ... هُمْ ويَخْيَوْن فى خداعٍ ووهمٍ

قد وصفتُ الشقاء فى شعرى البا ... كى وصوّرتُ أنفسَ الأشقياء
وشدوتُ الحياةَ لحناً كئيبا ... ليس فى ليلِهِ شعاعُ ضياء

فـــأثارت كـــآبتى عَـــجَبَ الـنا   سِ وحـاروا فى سـرِّهـا المجـهـولِ
مـــا دروا أننى أنوح عـلى مـــأ   ســاتهم فى ظلامـــهـــا المســدولِ

أنـا أبكى لكـل قلـب حـــزيـنٍ   بعـــثـــرتْ أُغنيـــاتـه الأقـــدارُ
وأروِّى بأدمــــعى كـلَّ غــــصنٍ   ظـامئٍ جـفَّ زهـرُهُ المـعـطـارُ

القصر والكوخ

كلَّ فجرٍ أرى الرعاةَ يمرّو ... نَ فأبكى على حياة الرُّعاةِ
فى ثلوجِ الجبالِ أو لهب الشمـ ... ـسِ يريقون مبهجات الحياةِ

ويمرّ القطيعُ بى فأرى الأغـ ... ـنامَ بين الذبَّاحِ والسكّينِ
يا حياةَ الإنسانِ لا فرحةٌ فيـ ... ـكِ إذا لم تُصحبْ بدمع غبينِ

فكنوز الغنىِّ يجمعها الفلاَّ ... حُ فى عُمُره الشقىّ الكسيرِ
ذلكَ الكادحُ المعذّبُ فى القَرْ ... يةِ بين المحراثِ والناعورِ

كلَّ صيف يسقى البساتين تحت الشـ ... ـمسِ ، والقصرُ هاجعٌ وسنْانُ
فهو يُلقى البذورَ والمترفُ الها ... نئُ يجنى وتشهدُ الأحزانُ

يا ليالى الحصادِ ماذا وراء الـ ... ـحقلِ والحاصدينَ من مأساةِ
شهد الكوخُ أنّه يحمل الحز ... نَ لتحظى القصورُ بالخيراتِ

كيف يجنى الأزهارَ والقمحَ والأثـ ـمارَ من لم يجرحْ يديْه القَدُومُ؟
ويموتُ الفلاّحُ جوعاً ليفترَّ لعيْنَي ربٍّ القصورِ النعيمُ؟

كيف هذا يا ربّ؟ رفقاً بنا رفـ ـقاً قد غَصَّتِ الكؤوسُ دموعا
وطغت في الفضاء آهاتُنا الحيـ ـرَى تغني رجاءنا المصروعا

كآبة الفصول الأربعة

نحن نحيا في عالمٍ كلُّه دمـ ـعٌ وعُمْرٍ يفيض يأساً وحزنا
تتشفّى عناصر الزمن القا سي بآهاتنا وتسخَرُ منّا

في غموضِ الحياةِ نسربُ كالأشـ ـباحِ بين البكاءِ والآهاتِ
كلَّ يومٍ طفلٌ جديدٌ ومَيْتٌ ودموعٌ تبكي على المآساةِ

ثم ماذا؟ في أيّ عالمنا المُحْـ ـزن نلقَى العزاءَ عمّا نقاسي؟
عند وجهِ الطبيعة الجهم أم عنـ ـدَ فؤادِ الزمانِ وهو القاسي

قد عبرنا نَهْرَ الحياة حَيَارَى في ظلامِ الفصول والسَنَواتِ
وثبتنا على أسانا خريفاً وربيعاً فما جمالُ الحياة؟

طالما مرّ بي الخريفُ فأصغيـ ـتُ لصوتِ القُمْريّةِ المحزونِ
وأنا في سكون غرفتي الدجـ ـياءِ أرنو إلى وجوم الغصون

طالما في الخريفِ سرت إلى الحقـ ـل وأمعنتُ في وجومي وحزني
كيف لا والكآبةُ المرّةُ الخر ساءُ قد رفرفتْ على كلِّ غصنِ

والحمامُ الجميلُ قد هَجَر الأعـ ـشاشَ سأمانَ من وجومِ السهوب
وطيورُ الكنار آثرت الهجـ ـرةَ والعيشَ في حقول الجنوبِ

وغصونُ الأشجار مصفرّةُ الأو راقِ والزهرُ ذابلٌ مكفهرٌّ
ورياحُ الخريف تعبث بالأو راقِ والسُحْبُ في الفضاءِ تمرُّ

طالما سرتُ في المساء وفي سمـ ـعيَ صوتُ الأوراقِ تحت خُطايا
كلّما سرت خطوة أنّت الأو راقُ فاستجمعتْ بعيد أسايا

أرمقُ الحقل والجداولُ قد جفـ ـتْ ولون الفضاء أسودُ غائم
وأحسُّ اليومَ الكئيبَ يُغنّى من بعيدٍ بين النخيلِ الواجمْ

وأرى النهر من بعيد كسرٍّ غلّفته أيدى الخريف الكئيبِ
لا رُعاةٌ على شواطئه يُزْ جونَ أغنامهمُ قُبيلَ الغروبِ

لا اخضرارٌ يغرى الحزانى بأن يَسْـ ـعَوْا إليه ولا صفاءٌ جميلُ
ليس إلا رطوبةُ الأرض والوحـ ـشةُ والصمتُ والربَى والنخيلُ

فإذا رعشةٌ تضمُّ فؤادى وإذا الروحُ ضائق بأساهُ
ما أمرَّ الخريفَ يا ربِّ ما أو حشَ إصباحَهُ وأقسى مَساهُ

ثم يأتى الشتـــاء بالثلج والأمـ ـطارِ والريح فى سكون الليــالى
وتمرّ الأيام مـــوحـــشـــةَ الخطـ ـو بطاءَ الإصبـــاحِ والآصـــالِ

وتموتُ الأزهارُ فى قـبـضـةِ الثلـ ـجِ ويعرو الأشـجارَ لونُ الزوالِ
وتغـيب الأطيـارُ فى الموقـد المهـ ـجور أو فى كـهفٍ وراء الجبـالِ

ويـجىءُ المســـاءُ بـالمطر المنـ ـهلِّ يبكى على شَـجا الإنســانِ
وتظَـلُّ الرياحُ تـعـــصـفُ بالنخـ ـلِ وترثـى لكـل قـلبٍ عـــانِ

آه مـا أكـأبَ الـشـتـاءَ ليـاليـ ـه وأيـاَمـــهُ ومـــاأقـــســـاهُ
حـينَ أخلو لنارِ مـوقـدىَ الخامـ ـدِ والـقلبُ مُـــغْـرَقٌ فى أســاه

لستُ أصـغى إلا إلى ضجة الإعـ ـصارِ بين النخيل والصفـصافِ
واصطفاقِ الأمواجِ فى شاطئ النهـ ـرِ ووقعِ الأمطارِ فـوق الضفـافِ

كل شىء فى الكون حـولى كئيب فى ليـالى الشـتـاء ذات الرعـودِ
كل شىء حولى سوى ساعتى الصمّـ ـاء فى صـمتِ غـرفتى المعهـودِ

ايه يا سـاعـتـى الكئـيبـةَ يا من صـحبـتنى فى فرحتى وشقـائى
مـا الذى تبعثين فى نفسى الحيـ ـرَى من الحزن فى ليالى الشتـاءِ

أبداً تخفقين في معصمي البا ... رد والليلُ مُظلمٌ ممدودُ
لحظاتٌ تمرُّ في ثِقَلِ السا ... عِ وليلٌ معذَّبٌ منكودُ

كم سهرت المساءَ أصغي إلى دقـ ... ـاتك الحائرات في مسمعيّا
أنت يا من أحصيتِ ساعاتِ أيّا ... مي وكنتِ الرسولَ منها إليّا

رحمةً في الشتاء بي لا تعدّي ... ما تبقّى يا ساعتي من حياتي
واتركيني أُصْغي إلى نَغَم الأمـ ... ـطارِ فوقَ الحقولِ والرَّبواتِ

اتركيني فنغمةُ المَطَرِ الهـا ... مرِ أحلى من صوتكِ الجبّارِ
يا رسولَ القضاءِ والزَمَنِ المُفْـ ... ـنى وصوتَ الأحداث والأقدار

اتركيني وحدي وإن كان ليلي ... مكفهراً تحت البروقِ طويلا
اتركيني أُصْغي إلى الرعدِ والأمـ ... ـطارِ يا ساعتي وكُفّي العويلا

وغداً يُقْبِلُ الربيعُ فيحلو ... عقرباكِ المحبّبان لعيني
وتعود الدقّاتُ منك نشيداً ... أتغنّى به ويصدَحُ فنّي

الربيعُ الجميلُ فصلُ الطيور الـ ... ـبيضِ والزَهْرِ والسَّنا والعطورِ
عندما تكتسي العرائشُ بالكر ... مِ وتشدو طيورُها في البكورِ

عندمـــا يخـــرجُ الرعـــاةُ إلى الوا دى بأغنامــهم وتزهـو الضفــافُ
عندمـا يُزْهر البنفـــسجُ والخـبّـ ـازُ والبــرتقــالُ والصــفـصــافُ

وتذوبُ الثلوجُ فى القـــمم العُلْـ ـيـا فتجرى السيـولُ فى كل وادِ
ويعــودُ البطُّ الجـمــيلُ إلى الشــا طئ بـين الأعـــشـــابِ والأورادِ

ويعــود الفّــلاحُ يخــرُجُ للحــقـ ـلِ طروبَ الـفـؤادِ كلَّ صــبــاحِ
تحت شمسِ الربيعِ يسقى جذورَ الـ ـتـيـنِ والبـرتـقــالِ والتــفّــاحِ

وتعـــود الطيـــورُ لـلوطن المهـ ـجـور جَـذْلَى مفـتـونةً بـالربيعِ
فى ثنايا الأغـصـانِ تتــخـذُ الأعـ شــاشَ تحتَ الـنور النقىِّ البـديعِ

والقــمــارىُّ تســتــحـمُّ وتلهــو بين زهر الخبّــاز فـوق الضفـافِ
وتغّنى للـنهـــر أعـــذبَ ألحـــا نِ الأمانـى فى مِسْمعِ الصفصافِ

وزهورُ السـفـوحِ تضـحـكُ للنحـ ـلِ وتُحنى رؤوســهــا للنســيمِ
وقـطيـعُ الأغنـامِ يمَـــــرحُ والـرا عى يُقَـضّى النـهـارَ تحت الكروم

وصـبــايا القُــرَى يرحنَ ويغــدو نَ نَشَاوى على ضفـافِ السـواقى
منشـــداتٍ أحـلامَـهنّ علـى سـمـ ـع الـيـنـابيـعِ والورودِ الـرقـــاقِ

وسماء الحياة تزخر بالوحـ ـى ويصحو الشعورُ والأحلامُ
أى أدونيس آهِ لو عشتَ فى الأر ضِ فعاشَ السَّنا ومات الظلامُ

آه لو لم يكن مقامُكَ فى عا لمنا المكفهرِّ حُلماً قصيرا
آهِ لو دمتَ يا أدونيسُ للأر ض وأبقيتَ عطرَكَ المسحورا

يا ضياع الأحلام فى مِسْمع المو تِ وماذا تُفيدنا الأحلامُ
ليس يبقى الربيعُ إلا قليلاً ثم يخبو الجمالُ والأوهامُ

مثل زهْر الصحراء سُرْعان ما تقـ ـتلُهُ الشمسُ والرياحُ الهوجُ
وتعودُ الواحاتُ قَفْراً كما كا نت ويَذْوى العشبُ النضيرُ البهيج

هكذا يرحل الربيعُ سريعاً وتعود الحياةُ للأحزانِ
وتموتُ الآمالُ فى كل قلبٍ وتعيشُ النفوسُ للحرمانِ

فكأنّ الحياةَ لم تبتسم إلاّ لتُلقى سوادَها فى رؤانا
وكأنّ الزهورَ لم تنشرِ الأشـ ـذاءَ إلا لكى تُثيرَ أسانا

وكأنّ النضارةَ الحلوة الجَذْ لى حُداءٌ بنا لصمت القبورِ
وكأنّ الطيورَ ترسل لحن الـ ـموتِ فى سمع كلِّ حىّ غريرِ

يا شبابَ الحياة ما أنتَ بالخا   لد إلا خلودَ زهرِ الربيعِ
ليس تُبْقى على نَضَارتك الأقـ   ـدارُ فى حومةِ الأسَى والدموعِ

أسفاً يا ربيعُ يا وردُ يا عطـ   ـرُ أهذا ختامُ كلِّ جمالِ
أكذا يخفتُ الضياءُ ويَبْقى الصـ   ـمتُ والحزنُ فى سكون الليالى

قصّةُ الحبِّ والجمال أهذا   ما إليه تكونُ بعد صباها؟
تتصدَّى لها يدُ الزَمَن الما   حى فتُبْلَى ضياءَها وصداها

هكذا يا ربيعُ يَخْتتم النسْـ   ـيانُ والصمتُ كلَّ شىء جميلِ
ويعيشُ الإنسانُ تعصرُهُ الذكـ   ـرى ويبكى على أساهُ الطويلِ

فإذا عضّت الكآبةُ قلبى   فى أضاحى الربيعِ واشتدَّ حزنى
فعلى مصرَعِ الفراشاتِ أبكى   وذبولِ الوادى الشجيرِ الأغنِّ

يا معانى الزوَال والعَدَم الرا   ئع رحماكِ وارفقى بصبايا
لا تُطلّى علىَّ من كلِّ شىءٍ   فى وجودى فقد سئمتُ أسايا

اتركينى أرَ الربيع طيوراً   ليس يَنْوى لها الأذَى مُغْتالُ
ولتكن زهرةُ البنفسج فى عيـ   ـنى خلوداً لا يَعْتريهِ زوالُ

ودعـينى أعشْ مع الذكـريات الـ ـبيض فى أمسىَ الجميلِ الراحلْ
علَّ هذا يجلو أسَى الصيفِ عن قلـ ـبى ويُحْيى مَواتَ حُلمى الذابلْ

فلقـد جفّت الرياضُ الجميلا تُ فـلا زهرةٌ ولا أشـذاءُ
وانطوتْ فرحَةُ الربيع ومات الـ ـعُشْبُ فى أرضـها وجفَّ الماءُ

لم تَعُدْ فى العشاشِ قمريّة تشـ ـدو وتسقى أفراخها فى النهارِ
كيف تحيا الطيورُ فى لَهَب الشمـ ـسِ وتلهـو تحتَ اللظى والنارِ

لم يعـد للنسيم قلبٌ يحبُّ النـ ـهـرَ والمرجَ فى ظلام الأماسى
لم يعـد للأزهار لونٌ جـميلٌ يتـجلّى لمرهفى الإحساسِ

كلُّ شىء فى الصيف ينطق بالقَسْـ ـوة والشمسُ شعلةٌ ولهيبُ
تتشكّى عريشةُ الكَرْم لكن ليس يُجْدى توسُّلٌ ونحيبُ

آه ما أكأبَ الظهيرة فى الصيـ ـف إذا لاذَ جوُّها بالسكونِ
وتلاشى فى الجوِّ كلُّ هُتافٍ غيرَ صوتِ الطاحونةِ المحزونِ

وبكاءُ الحمامة الخافت النا ئى وصوتُ الغرابِ بين الكرومِ
وأزيزٌ من نَحْلَةٍ تملأُ القلـ ـبَ مَلالاً بصوتها المسؤومِ

ثم ماذا؟ ماذا ترى العينُ فى الصيـ ... ـف إذا أقبل المساءُ الداجى؟
هل سوى مَنْظرِ النخيلِ البعيدا ... تِ وحزنِ الاشجار خلفَ السياجِ

هل سوى منظر الرعاة يعودو ... نَ بأغنامهم حيارَى بطاءَ
بعدَ يومٍ أمضَوهُ تحت لَظَى الشمـ ... ـس ملالاً وشقوةً وعناءَ

هل سوى الصائدين فى النَهَر الضَحْـ ... ـلِ يعودون فى المساءِ الكئيبِ
لم يصيدوا وصادَ أرواحَهم حرُّ ... نهارٍ مؤذٍ وعيشٍ جديبِ

كلَّ يوم يمضى النهارُ ولا صيـ ... ـدَ يعزِّى صيّادَهُ الطَوّافا
يا لَقَلْبِ المسكينِ قد سئمَ النهـ ... ـرَ وعافَ المياهَ والمجذافا

فهو عند الغروبِ يرجعُ بالزَوْ ... رق سأمانَ واجمَ الألحانَ
إن تغنَّى فبالشكاةِ يُزَجّيـ ... ـها إلى خافق الحياةِ الجانى

كم رأيتُ الصيَّادَ فى الشارع المُقْـ ... ـفرِ يمشى معذَّباً مَصْدوما
عكستْ مقلتاهُ أحزانَ قلبٍ ... سئم العيشَ والوجودَ الأليما

لستَ أنتَ المحزونَ وحدَكَ يا صيّـ ... ـادُ فى حومة الشقاء المخيف
هو سجنُ الحياةِ قد كبّلت أقـ ... ـيادُهُ السودُ كلَّ قلبٍ رهيفِ

ذلك شـأنُ الإنسـانِ يا أيّهـا الصيّـ ـادُ يـا شـــاكـيــاً ظلامَ الـرزايا
فى صـــراعٍ مع العـناصـــر لا يَـهْـ ـدأُ حـــتـى يأوى لـوادى المنـايا

فى سـبـيل الحـيـاة يـبـدلُ أفـرا ـحَ صِـبَـاهُ ويسـتـطيب أسـاهُ
فـهــو يجـرى وراءَ حُلْـم كـذُوبٍ رسـمـتْـهُ أوهامُـهُ ورؤاهُ

وعـجـيـبٌ أنّا نذوقُ سـوادَ الـ ـعـيش واليـأسِ والملال لنـحـيـا
أىُّ عُـمْـرٍ هذا؟ وأيّـةُ مـأسـا ةٍ بَـلَوْنـا سـوادَها الأبـديّـا؟

أبداً نـحنُ فى كـفـاحٍ مـع الأقـ ـدار والحـادثاتُ تُـبْلـى وتُفْنى
يتـحـدَّى أحـلامَنا الواقـعُ المرّ ويقـسـو زمـانُنَا المتـجـنّى

ونخـافُ الغـدَ الدجىَّ ولا نـعـ ـلمُ مـاذا يكـونُ فـيـه المصـيـر
يا ظلامَ المجـهـولِ مـا أرهبَ التـفـ ـكيـرَ لا كـانَ سـرُّكَ المَسْـتـورُ

آه لو كـان فى الحـيـاة مـفـرٌّ من شـقـاءِ الأوهامِ والأفـكار
فى شـعـابِ الهُـدوء يا ليـتـنا نُلْـ ـقى بـأعـبـاءِ خـوفِـنا الجـبَّـار

أسطورة نهر النسيان

مـخلبُ الخوفِ والتشاؤم قد جَرَّ　　حَ أيَّامنـا وأدْمَى صـبـانـا
ليت نَهْـرَ النسيـانِ لم يكُ وهماً　　صــورتْهُ أحـلامُنـا لأسـانا

ليَـتـهُ كـانَ ليتَ أخـبـارَهُ حقٌّ　　لننسَى مـا كـان أو مـا يكونُ
ونعـيشُ الأحـرارَ مـن قـيـدِ بلوا　　نا ويـعـفـو عنا الـغـدُ المجنونُ

يا ضفـافَ النسيـان قد جـاءك الشا　　عـرُ فلتـرحـمى جـراحَ أسـاه
انضَـحـيـهِ بمائك الأسـودِ البـا　　ردِ ولتُـشْـفـقـى على بـلواهُ

فـهـو ذاكَ القلبُ الذى طوّقـتـهُ　　حـادثـاتُ السنين بـالأشـواكِ
منحـتْـهُ الحسَّ الرهيفَ وقـالتْ:　　لتكن فـى الحـيـاةِ أوّلَ باكِ

يا ضـفافَ النسـيـانِ يا ليتَ هذا الـ　　مـوجَ يَطْغَى على الوجـودِ الحزينِ
يغـسلُ الإثـمَ والدمـوعَ ويأسـو　　كلَّ جـرحٍ فى قلبـه المطعـونِ

أَلمُ العيش يا ضِعافُ قويٌّ　　　وشقاءُ المماتِ أقوَى وأقسَى
فى ظلام الحياةِ نضطربُ الآ　　　نَ ونفنى عمَّا قليلٍ ونُنْسَى

كلُّ عُمْرٍ قصيدةٌ كتبتْها　　　فى كتابِ الحياةِ كفُّ الزمانِ
وغداً يمحَّى الكتابُ جميعاً　　　وتذوبُ الحروفُ فى الأكفانِ

أنشـودة الأموات

لحظةُ الموت لحظةٌ ليس من رَهْـ　　　ـبتـهـا فى وجودنا المرِّ حامى
وسيأتى اليومُ الذى نحنُ فيه　　　ذكرياتٌ فى خاطر الأيّام

كلُّ رسمٍ قد غيّرتْهُ الليالى　　　كلُّ قلبٍ قد عادَ صخراً أصمّا
دفنتْ عُمرَنا السنينُ كأنْ لم　　　نملأِ الأرضَ بالأناشيدِ يوما

ليسَ إلا صوتُ العواصف فوق الـ　　　ـمدفنِ الصامتِ الرهيبِ الستورِ
وحفيفُ النخيلِ فى رعشةِ الريـ　　　ـحِ ونوحُ الأمواج بين الصخورِ

قد سمعنا صوتَ الرياحِ المدوِّى　　　حينَ كان الوجودُ ملْكَ يدينا
وعَشِقنا صوتَ النخيلِ وهِمنا　　　بخرير الأمواجِ قلباً وعَيْنا

وعبدنا أشعّةَ القمر الضا　　　حكِ فى الصيف وابتسمنا إليهِ
وشدونا الأنغام تحتَ سناهُ　　　ورسمنا الأحلامَ بين يَدَيْهِ

وضحكنا مع الزمانِ وسرنا　　　فى ظلامِ الحياة مُبْتسمينا
تارةً ساخرين من كل ما نَلْـ　　　ـقَى وأخرى تحت الدُجَى باكينا

وبنينا قصورنا تحت ضوء الشـ ـمس يوماً إلى جوار القبور
وزرعنا زهورنا وتخذنا من دماء الموتى غذاءَ الزهور

وضحكنا إذ الطبيعةُ تبكي بالدُجى والرياحِ والأمطارِ
وسَخِرنا والدهرُ غضبانُ جَهْمٌ ورَقَصْنا على حفاف النارِ

فإذا غَنّت العصافيرُ وافترّ تْ ثغورُ الأزهار فوقَ ثرانا
وتمشّى الأحياءُ فوقَ بقايا نا وداسُوا عظامَنَا ودمانا

فهو ثأرُ الطبيعة البارد المرّ وسخريّةُ الزمانِ العاتي
وحقودُ الحياةِ لابدَّ للميـّ ـتِ منها في عالم الأمواتِ

يا جموعَ الأحياء في الأرضِ هيها تَ يعودُ الماضي الجميلُ إليكم
فاغنَموا لَيلكُم وغنُّوا فمن يَدْ رى؟ لعلّ الصباحَ يقضي عليكم

علّها الليلةُ الأخيرةُ من عُمْـ ـرِكمُ في الوجود يا أحياءُ
ليس منكم من يضمَنُ الغَدَ فاشدوا فقريباً يضيعُ هذا المساءُ

ربما كنتمُ مساءَ غدٍ تحـ ـتَ تراب القبورِ والأحجارِ
يتباكى عليكمُ البومُ والغِر بانُ بعدَ الكؤوسِ والأوتارِ

وتعودُ القصورُ والزهرُ ملكاً ... لسواكم من ضاحكى الأحياءِ
ويظلُّ القمرىُّ يشدو وأنتم ... فى سكونِ المنيةِ الخرساءِ

وتعود الحقولُ فى الفجر خلواً ... من أغانيكمُ ووقعِ خطاكمْ
ويذيبُ النسيانُ ذكر أمانيـ ... ـكمْ ويُذْوى المماتُ غصنَ صباكم

ويظلّ الراعى يغرِّدُ للأشـ ... ـجارِ والنبع فى صفاء المغانى
وتنامونَ أنتمُ لا حَرَاكٌ ... لا نشيدٌ فى قبضةِ الأكفانِ

لن تنوحَ الحياةُ إن مُتّمُ أنـ ... ـتم فغنّوا ولا تَنوحوا عليها
فهى تلكَ الخَلُوبُ تبسِمُ للأحـ ... ـياءِ والسمُّ كامنٌ فى يديّها

فانعَمُوا فى ظلال أفراحكم فيـ ... ـها وروُّوا الظَماءَ قبلَ المماتِ
وامرحوا فى الحقولِ واستنشقوا العطـ ... ـرَ وصوغوا فواتنَ النَغَماتِ

ودِّعوا هذه الشوارعَ عند النـ ... ـهر يا أشقياءُ قبلَ الرحيلِ
ودّعوها فليس فى القَبْرِ غيرُ الصـ ... ـمتِ والهمِّ والظلامِ الطويلِ

وابسموا للنجومِ والقمر الحُلـ ... ـوِ وغنّوا النسيمَ كلَّ مساءِ
أىُّ غبنٍ أن تفقِدُوا كلَّ شىء ... فى البِلَى والسكونِ والظلماءِ

مرثية للإنسان

أيُّ عُبنٍ أن يـذبلَ الكـائنُ الحيُّ ... ويذوى شـبـابُهُ الفَـيْنانُ
ثمّ يمضى به محبُّوهُ جثما ... ناً جَفَتْهُ الآمالُ والألحانُ

ويُنيمونَه على الشوكِ والصخـ ... ـرِ وتحتَ الترابِ والأحجارِ
ويعودونَ تاركينَ بقايا ... هُ لدنيا خفيّةِ الأسرارِ

هو والوَحْدةُ المريرةُ والظُلْـ ... ـمةُ فى قبره المخيفِ الرهيبِ
تحت حكم الديدانِ والشوكِ والرَمْـ ... ـلِ وأيدى الفَناءِ والتعذيبِ

وهو من كان أمسِ يضحَكُ جذلا ... نَ ويشدو مع النسيمِ البليلِ
يجمعُ الزهْرَ كلَّ يومٍ ويلهو ... عند شطِّ الغديرِ بين النخيلِ

ذلكَ الميّتُ الذى حَملوهُ ... جُثّةً لا تُحِسُّ نحو القبورِ
كان قلباً بالأمسِ تملؤه الرغـ ... ـبةُ والشوقُ بين عطرِ الزهورِ

كان قلباً له طموحٌ فماذا ... تَرَكَ الموتُ من طموح الحياةِ
يا لحزنِ المسكين لم تبقَ أحلا ... مٌ سوى ظُلمةِ البِلَى والمماتِ

آهِ يا حــامـليــهِ نحــو ســكون الـ ـقـبرِ لاتُسـرعـوا وسيـروا الهـوَيْنا
اتركـــــوه يودّعِ العـــــالمَ الـفــــا تنَ قــبل الرحــيل ظلمــاً وغُــبنا

واكشفوا جسمَهُ الغبينَ لضوء الشـ ـمسِ والـعطر فـهـى آخِــرُ مــرّه
لن يَرَى بعــدُ ذلكَ الضــوءَ لن يـنـ ـشقَ فى ســجنِ قــبـرِهِ عِـطْرَ زهرَه

لا تنوحــوا عليــه وليكـنِ الشَــدْ وُ خــتــــامــــاً لما وَعَــتْ أذُناهُ
حـــســبُـــــهُ أنّـه يودِّعُ دنيـــا هُ إلـى قـــبـــــرهِ وتـفنـى مُنَـاهُ

فـاتركوا نعـشَهُ على الأرض حـيناً قــبل أن تقــبــروهُ تحت اللحــودِ
ربّمـا كـان خـائفـاً من دُجَى القبـ ـرِ حـريصـاً على جـمـالِ الوجـودِ

ربما كـــان راغـــبــاً فـى وَدَاع الـ أرضِ من قــبلَ أن يـســودَ الظلامُ
قـبلَ أن تـتـركـوهُ فى وحــشـة المو تِ وتخــبــو العطورُ والأنــغــامُ

اتــركـــــــــوهُ يــراكـمُ أنــتـمُ يـا من دفــعـــتُمْ به إلى الـظلمــاءِ
وهو من كـــان أمسِ ملءَ أمـــانيـ ـكم فــصــار الغــداةَ ملءَ الـفناءِ

هـكذا الآدمـى يُسْلـمُـــــهُ أحـ ـبـــابُهُ لـلـتـــرابِ والديـدانِ
ربِّ لا كــانـت الحـيــاةُ ولا كنّـ ـا هـبطنا هـذا الوجــودَ الفـــانى

٢

فـيمَ جـئـنا هنا؟ ومـاذا يـعـزّيـ ـنا عن الـعـالم الذى قـد فـقـدْنا
ليـت حـوّاءَ لم تذُقْ ثـمَـرَ الدو حـةِ لـيت الشـيـطانَ لم يتـجنّا

علـمـتْنَا ثمـارُهـا فكرةَ الشـرِّ فكان الحـزنُ العـمـيقُ العـاصرْ
وفـهـمنـا مـعنى الفـناءِ وأدركـ ـنا صـراعَ البـقـاءِ تحتَ الـدياجـرِ

وهبـطنا هذا الـوجـودَ لـنشـقى منذ فـجـرِ الحـيـاةِ حـتى المغـيبِ
كلّنا نسـتـغـيثُ من شَـجـنِ العـيـ ـش فـيـا لليلِ الحـزينِ الـرهيبِ

يا لَظـلـمِ الأحـزانِ مـا سَلِم الأطـ ـفـالُ من أسـرِها ولا الشـبَّـانُ
كم وليـدٍ يبكـى ومـا تعـلم الأمّ لمـاذا يبـكى ومـا الأحـزانُ

مأساة الأطفال

ودمـــوعُ الأطفـــال تجـرحُ لـكن		ليس مـنهـا بدٌّ فـيـا لَـلْشـقـاء
هؤلاء الذيـنَ قـد مُنحـوا الحسَّ		ومـــا يـملكـونَ غـيـــرَ البُكاءِ

منحـتْـهم كـفُّ الطبيـعـة قلبـاً		بشـرّيـاً يسـتـشـعـرُ الآلامـا
ورمـتْـهم فى كـفّـة القَـدَر الـغا		شمِ جسـمـاً لا يستطيـع كـلامـا

فـإذا مـا بكوا فـأدمعُ خُـرْسٍ		ربمـا كـان خلفَـهـا ألـفُ مـعنى
ربمـا كـان خـلفـهـا الألـمُ القـا		تلُ أو رغـبـــةٌ مع الـريحِ تَفـنَى

ربمـا ربمـا ومــــا يـنفـع الـظَـنُّ		ونَوحُ الأطـفـــال ملء الحـيـــاةِ
وُلِدوا صــارخـــينَ بين يـدِ الأقـ		ـدارِ فليـصـرخُـوا ليـوم المماتِ

علهـم يدركـونَ مـا لم نقـفْ نحـ		ـنُ عليـه من ظُـلْمـةِ الأسـرارِ
ويرونَ الحـيـاة ليـلاً من الشـرِّ		تدلّـى على حـــفــاف النـارِ

فـهـمُ يصـرخـونَ من ألـم المُقْـ		ـبلِ أو ينـدبون مـا قـد أضـاعـوا
أو لم يُقْـبلوا على غَـيْـهَب الـعـا		لم حـيـثُ المحـيـا أسىً وصـراعُ

لم يَـزَلْ فى نفـــوســـهم أثَـرُ المَا ضى النقىِّ الجـمـيـلِ أو ذكـراهُ

حين كــانوا فى عـالم عـبـقـرىٍّ كـلُّ حــىٍّ عـلـى ثـراهُ إلــهُ

عـالمٌ غـيرُ عـالم البَـشَـر المرّ بعـيـد عـن الدُجَى والفَنَاءِ

ليس فــيــه أسىً عنيف ودمعٌ وقــبـورٌ تلـفّـعـتْ بالخَـفَـاءِ

ليس فيه طبيعة جَهْمةُ المر أى تدوسُ الأحـيـاءَ والأيّامـا

ليس فــيـه مـعـذّبون حَـيَـارَى وثَكَالى تحت الدُجَى ويتـامَى

ليس فــيــه شــرٌّ وظُلْم وتعـذيـ ـبٌ ولا فــيــه مـولدٌ ومماتُ

ليس فــيـه هـذا النزاعُ على الخُـبْـ ـزِ ولا فى صـفـائه مـأسـاةُ

يا جموع الأطفال يا مُرْهَفى الحسِّ كــفــاكم تفـجـعـاً وبكاءَ

لم تـزالوا فى أوّلِ الـعُـمُـر المرِّ ولأياً سـتـعـرفـونَ الشـقـاءَ

لاتنوحـوا على الذى قـد فـقـدتم من جـمـالٍ ومـتـعـةٍ وسـمـوٍّ

وأصـيـخـوا لمأتم القَـدَر الظا لم فى عـاصـفِ الحـيـاةِ المُدوّى

لم تزالوا براعـمـاً لم تُفَتّحْـ   ـهـا الليـالى على ظـلام الحيـاةِ
فـاضحكـوا الآنَ قبلمـا يزأرُ الهـو   لُ وتسـتنسرُ الهـمـوم العـواتى

قـبلـمـا تدلهمُّ أعـمـارُكم تحـ   ـتَ غـيوم الشـبـاب والاحـلامِ
وتَرَوْنَ الوجـود قـفـراً فـمـا فيـ   ـهِ سـوى الليلِ والأسى والقـتـامِ

أينمـا تـرسلوا عـيـونَكُمُ الـظمـ   ـأى فـثَمَّ الأهوالُ والأضـغـانُ
وتضـيـعُ الآمـالُ والمُثُلُ العُلْـ   ـيـا وتبـقى الآهاتُ والأحـزانُ

امـرحـوا الآنَ فى ظـلال أب يَشـ   ـقَى وأُمٍّ جَنَتْ عليـهـا الحـيـاةُ
فـغـداً تحـملـون أنتم همـومَ الـ   ـعـيشِ إذ ذاكَ تُسْـفـرُ المأسـاةُ

شـيّدوا فى الـرمـال أبراجَ أحـلا   مكمُ وابسـمـوا للهـو الطفـوله
كلُّ طفلٍ غـداً فـتىً ضـائعُ الأحـ   ـلامِ تحتَ المقـادرِ المجـهـوله

وغـداً تدركـونَ مـاذا أضـعـتم   من صـفـاء ومُـتْـعـةٍ ونقـاءِ
وترونَ الحـيـاةَ منبعَ شـرٍّ   ليـس منه منجىً وليـلُ شـقـاءِ

وإذا مــــا بـنيــــتمُ أمس زَهْـرٌ ذابلٌ تحت رحــمــة الإعــصــار
وإذا كلُّ رغــبــةٍ كـوكـبٌ خـا بٍ وأنتـم على شـــفـــاهِ الـنار

تتــشــفَّى بكـم يدُ القَــدَر الـقــا سى وتُـلقَى عليكمـــو بالـرزايا
وتبــيع الـشــبــابَ بالأدمُعِ الحــرَّ ى وتَلْهــو على رُفَاتِ الضــحـايا

فــإذا كلُّ ضُــحكةٍ من صــبــاكم بعـدها فـى شـبـابكم ألفُ عَــبره
وإذا عُــمْـرُكم مـَـســاءً حــزينٌ ليس تجـلو ســوى المنِّيـةِ سِــرَّه

أحزان الشباب *

يا همـوم الشـبـابِ فـيمَ تكـونيـ ـنَ أحـرَّ الهـمـوم والأحـزانِ؟
أنتِ يا مَـنْ يصـوغُـك القَـدَرُ الظا لمُ ليـلاً على الوجـودِ الفـانى

فـيمَ كـان الشبـابُ مـرماكِ يا أحـ ـزانُ مـاذا ترى الشـبـابُ جنَاهُ؟
فـيمَ لاتعـصـرينَ إلا صِـبَـانا حَـسْـبُنا يا أحـزانُ مـا ذقـناهُ

سـوف يطوى شبـابَنـا الزمنُ المُسْـ ـرِعُ والحـلمُ يـنطـفى ويـضـيـعُ
وتُميتُ الشيـخوخـةُ المرّةُ السَوْ داء أحـلامنـا ويمـضى الربـيعُ

فـاتركـينا رحـمـاكِ نَنْـعَمْ به الآ نَ لننسَى مـا فى غـد سـيكونُ
قـبلَ أن تخـمـد الأمـانى ويَفْنَى فى الديـاجى شـبـابُنَاً المغـبـونُ

ها أنا فى الشـبـاب تقـتلـنى الوحـ ـدةُ والصـمـتُ والأسَى يا همـومُ
أينمـا أتجـهْ فـثـمّـةَ أحـزا نٌ أراها ووحـشـةُ ووجـوم

كـلُّ شيءٍ أراه يـملؤنـى حُـزْ ناً ويأسـاً من مُـبْـهـجـاتِ الحـياة
يا لعُـمْـرٍ يمـرُّ جَـهْـمـاً مـخـيـفـاً تحت عـبءِ الأحـلامِ والآهاتِ

ومعانى الفناء ألمحُها حَوْ لىَ فى كلِّ ما تراهُ عُيونى
فى دوىِّ الرياح فى نَغَم الطيـ ـرِ وفى ظُلْمة المساءِ الحزينِ

فإذا أنّت الرياحُ الحزينا تُ تذكّرتُ خُلْدَها وفنائى
ورأيتُ القبورَ تحت يدِ الريـ ـحِ وصوتِ الأمطارِ والأنواءِ

واذا غنّت الحمامةُ فى الوكـ ـرِ تبرّمْتُ بالنشيد المثيرِ
وتذكرتُ أنّها سوف تثْوى فى غدٍ تحتَ عشِّها المهجورِ

وإذا أقبلَ المساءُ ولفَّ الـ ـكونَ بالصمتِ والدُّجَى والهمومِ
وحملتُ العودَ الكئيبَ الى الوا دى أُغنّى شعرى لضوءِ النجومِ

صرخَتْ نفسىَ الكئيبةُ لا يخـ ـدعْك هذا الظلامُ يا أختاهُ
كم شعوبٍ غنّتْ له فمحاها وهو ما زالَ فى ربيعِ صباهُ

نحن تحت الليلِ العميقِ ضيوفٌ وقريباً تدوسُنا قَدَماهُ
فاحفظى يا أختاهُ ألحانك الظَمْـ ـأى فما ترحمُ الشَجَا أُذُناهُ

أينَ أمضى يا ربِّ أم كيف أنجو من قيود الفَنَاء والأيَّامِ؟
ضاقَ بى العالم الفسيحُ فيا لَلْـ ـهولِ أينَ المفرُّ من آلامى؟

كلَّ يومٍ أرى شَـبـابَ حيـاتى في حـمى الوَحْـدَةَ المريرة يَذْوى
وأرانى أسـيـرُ مـرغَـمـةَ الأقـ ـدامِ في عـاصفِ الزمـانِ المُدَوِّى

لستُ ألقى حولى سوى عالمٍ يَشْـ ـقَى ويَلْقَى عـزاءَهُ فى الشُـرُورِ
ويبـيع الحـيـاةَ بالمُتَعِ الحـمـ ـقـاءِ والإثـمِ والأذَى والغـرورِ

ويرَى اللهـو فى الحـيـاة أمـانيـ ـه ويدعـو الخيـالَ والشعْرَ حُمْقـا
يا لَجهـلِ الإنسـانِ فليبـقَ حيـرا نَ إذن وليَظَلَّ يـأسى ويَشْـقَى

ولأعشْ فى ظلال وَحـدتى الخـر سـاء أبكى ولا مُـصيخَ إليّـا
لا فـؤادٌ أبثُّـهُ ألمى المرَّ ولا خـافقٌ يحنّ عليّـا

وليقـولوا إنّى فتـاةٌ جِنى الشعـ ـرُ عليـهـا فـعشتُ للأحـزانِ
وعـبرتُ الحـيـاةَ كالشَبَحِ الضلّـ ـيلِ فى غَيْـهب الوجـودِ الفـانى

يا ظلالَ الشبـاب فـابقَىْ إذا شئـ ـت معى أو فأسرعى بالرحيلِ
لستُ أُعْنَى بظلّك الشـاحب المُقْـ ـلِق مـا دمتُ فى خـيالى الجميل

سـوف أبنى اذا رحلتِ شبـاباً لفـؤادى أعـيشُ تحت سمـائهْ
من رحيق الخيالِ والشعـرِ والأنـ ـغـامِ أسْقى الزهورَ فى أرجـائهْ

وجـمــالُ الحــيــاة يَذْوى ويُفْنيـ ـه الأسَى والدمـــوعُ والآهـاتُ
فليـضعْ عُـمْرى الحزيـنُ كمـا شـا ءَ فـعندى من الشـعـورِ حيـاةُ

فـــاذا أدبر الـشـــبـــابُ وآويـ ـتُ لظلٍّ المشـيبِ والأسـقـامِ
ظلَّ قلبى الحسَّاسُ ذاك الـفتَى الفيـ ـنانَ بين الخـيـالِ والأحـلامِ

ثم مــاذا؟ من قـالَ إنّى سـأبقى فى الوجـودِ الحـزين يا آمـالى
كـيف أدرى أنّى سـألبث فـيـه ربّمـا متُّ فـى صـبـايَ الحـالى

ربما تنـقـضى حـيـاتى قـريبـاً وتموتُ الألحـانُ فـى شَـفَـتَـيـا
قـبلَ أن أسـمـعَ الحـيـاةَ أناشـيـ ـدى ويُصْغى سمعُ الوجـود إليَّـا

ربّمـا... لستُ أعلمُ الآنَ شيـئاً فـلأعشْ فى انتظارِ مـا سـيكونُ
ولأحبَّ الحيـاةَ مـا شئتُ من أجـ ـلِ نشـيـدى وان رَمَـتْنـى المَنونُ

ولتـجئْ بعـدها المنايا كـمـا تر جـو فـمـا فى الوجـودِ مـا يُغْـرينى
لستُ ألـقَى فـيـه حـيـاةً أغنّيـ ـهـا فـيـا بؤسَ عُـمْرىَ المغبـونِ

أو لم أتـرك الحـيـاةَ ومـا فـيـ ـهـا إلى مـعبـدِ الأسَى والشـعـورِ
أولَم أرْضَ عُـزْلتـى فى ظلال الشـ ـعـرِ والعـودِ والخـيـالِ الطَـهُـورِ

فـاذا مـا أتمتُ لحنى كـمـا أهـ ـوَى فـمـاذا أريدُه مـن حيـاتى؟
ليس فى الكونِ بعـد شعرى مـا يغـ ـرى فـؤادى فـمـرحـبـاً بالممـاتِ

سـوف ألقى الموتَ المحَّبب روحـاً شـاعـرّياً يُحبُّ صَمْتَ التـرابِ
وفـــؤاداً يرى الممـــاتَ شـبـــاباً للمُنَى والشـعــورِ أىَّ شـبـــابَ

سـوف ألقـاكَ غـيـرَ مـحـزونة يا مـوتُ فى مـيـعة الشبـاب الغَريِد
وعــــــزائى أنّـى تـركتُ ورائـى لحَنِى الـســرمــدىَّ ملء الوجــود

لستُ وحــدى التى تموتُ ومـا زا لتْ شـبــاباً لم تَسْـقـه الأنداءُ
تَعِـسَتْ هذه الحـيــاةُ فـكم قـد مـاتَ فى مـيـعـة الصبَّا شـعـراءُ

أذبلتْ عُـمْـرَهـم يدُ القَـدَر الجـا نى وكـانوا نشيـدَ هذى الحـيـاةِ
يسكبـونَ الشـبـابَ والحبَّ والأحـ ـلامَ لحنـاً مــرقـرقَ النـغــمــاتِ

ويُضـيـعـون عُـمْـرَهم وصبـاهم ليـصــوغـوا الحـيـاةَ لحنَ صــفـاءِ
وإذا عــــــاصفُ المنـايا المُدَوِّى يَتَـــعَـــالَى على لحــونِ الغـناءِ

يا يدَ الموت فـيمَ كـان نصـيبُ الشـ ـاعــر الفــذِّ منك هـذا التـجنّى؟
فـــيـم لا تُطفـــئــين إلاّ مـناهُ؟ وهو فى مـيـعــةِ الشـبـابِ الأغنِّ؟

ألكي تكتسبي الخلودَ لذكرا ... هُ على الأرض وهو غضٌّ يافعْ؟
أم لكي تُنقذيه من شَجَن العُزْ ... لةِ والفكرِ والأسَى والمدامعْ؟

أم تُرى تبخَلين بالنَغَمِ العَذْ ... بِ على العالمِ الأثيمِ الشقيِّ
فتضمّين للدُجَى والمنايا ... كلَّ شادٍ في الأرض أو عبقريٍّ

أم ترى سنّة الوجود تَرَى ما ... ليس يَدْرِي الأحياءُ أو يُدْرِكونا
فهي تَسْرى كما تشاءُ المقادي ... رُ وتُضْمي شبابنا المطعونا

وسواء على المقادير موتُ الشّـ ... ـاعرِ الفذِّ في الصبَا أو حياتُهْ
فهو جسمٌ على الثَرَى بشريٌّ ... ضيّعتْهُ أحلامُهُ وشكاتُهْ

فاذا ماتَ في صِبَاهُ فما اختا ... رتْهُ كفُّ المنون للأكفانِ
واذا عاشَ ما يشاءُ فما للـ ... ـموتِ في عُمْرِهِ الطويلِ يدانِ

نبئيني أهكذا الأمر يا أقـ ... ـدارُ أم قد ضللتُ في أفكاري؟
أترانا كالزهْرِ يقطفُهُ الفلاّ ... حُ في الفجرِ شارداً غيرَ دارِ؟

ليس تعنيه هذه الزهرةُ الحُلـ ... ـوةُ ما دام في يَدَيْه سواها
وهو يَجْني منهنَّ ما هو دانٍ ... منهُ ما دمنَ في الشَّذَى أشباها

أكـذا يا أقــدارُ؟ مـا أخــيب المَسْـ ـعَى إذن فى ظلامِ هـذا الوجــودِ
أكــذا تتــركـينَ حـكمَكِ للصُــدْ فـــةِ؟ يا للـشــقــاءِ والتـنكيـــد

كـل حَيٍ منــا إذن لـيـس يـدرى مـا سيـلقى فى يومـه من شــقـاءِ
ربمـا كـــانـت المنّيــــةُ فـى أوّ لِ ســاعِ النهــارِ أو فى المســاءِ

فـهـو يحـيـا عـلى شـفـا الألم الرا ئعِ منـذ الشــروق حــتى المغــيبِ
كلَّ يوم يـقــول: حــان رحــيلى يا لَهـذا الـعُـمْـرِ الشـقيِّ الـكئـيبِ

أفليس المـمــاتُ فى مـيـعـة العُمْـ ـرِ إذنْ نعـــمـةً على الأحــيــاءِ
حـين ينجو الحـيُّ الشقيُّ من الخـو ف ويَفْـنَى فى داجــيــاتِ الفـناءِ

تاركــاً هـذه الحــيــاةَ ومــا فــيـ ـهــا من الزيفِ والأسى والظلامِ
بيـن كفِّ الرياح والـقَــدَر العـــا تى ونَـوْحِ الشــيـــوخِ والأيتـــامِ

آلام الشيخوخة

يا دموعَ الشيوخِ فى الأرض هيها   تَ تجفّين فى العيونِ الشقيّه
أيُّ شيخٍ لا يَذْرف الأدمُعَ الحرَّ   ى على ما مضَى ويشكو البليّه

فهو ذاكَ المحزونُ قَضّى صِبَاهُ   فى لهيبِ الهمومِ والأحزانِ
ثم ذاق الشبابَ كأسةَ دمعٍ   ما لحىٍّ على قَذَاها يدانِ

ثم غاب الشبابُ فى ظلمة العُمْـ   ـرِ ومات الأحبابُ والأنصارُ
كلَّ عامٍ يرَى الأحبّاء يَفْنَوْ   نَ وتمحو ذكراهمُ الاقدارُ

يا لركبٍ مشى به القَدَرُ الخا   دعُ تحتَ الرياحِ والظَلْماءِ
رامياً فى فم المنيّةِ فرداً   منه فى كلّ بُكْرةٍ ومَسَاءِ

يا شتاءَ الحياة لم يبق فى الظُلْـ   ـمة إلا هذا الشقىُّ الغبينُ
ذهبوا كلُّهم إلى الموتِ إلاّ   هُ فدوّى نحيبُهُ المحزونُ

وهو ذاكَ المسكينُ أضعَفَهُ العُمْـ   ـرُ وحلّتْ بجسمِهِ الأدواءُ
ومضتْ ظُلمةُ الحياة بعينيـ   ـهِ وغابتْ عن وعيه الأشياءُ

وهو يـدرى أنَّ الممــاتَ قــريبٌ منهُ قُــرْبَ الأحــزانِ والأوجــاعِ
كلّ يـومٍ يكـادُ يُلقـى علـى العـــا لَمِ والـعُــمْــرِ أغـنيــاتِ الوداعِ

يا غـمـوضَ الحـيـاةِ من أسلمَ الإنـ ــسـانَ لـلحــادثات والأقــدارِ
ذلك البــائسُ الضـعـيفُ الذى يأ تى ويمــضـى ولـم يَزَلْ غــيــرَ دارِ

فـهـو مـا زالَ هائمـاً بهَــوى العـا لَمِ والـعــيشِ فـى ظلال الـزهورِ
يتــغنّى بحــبِّــهِ رغـم مـا يَلْـ ـقى من الحُـزْنِ واحـتدامِ الـشعـورِ

فـــاذا مـا بَدَتْ لـه ســاعــةُ المو تِ ولـم يبـقَ فى الحــيــاةِ رَجــاءُ
رسمَ الحــزنُ فى مـحــيَّـاهُ رعــبـاً مـا رأى مــثلَ هَولِه الأحــيــاءُ

وأطَلّتْ عــيـناهُ تُلـقى على الـكو نِ تحــايا الوَدَاع والحـــرمــانِ
فى ذهـولٍ وروعـــةٍ يمـــلآنِ الـ ـقلبَ حـقداً علـى الوجود الفـانى

يا مـعـانى الذهولِ فى جـبـهـة الميْـ ـتِ، لا لن أخــافَ هذى المعــانى
سـأرَى فـيك بَلْســمـاً يُنقِـذ الأحـ ـيــاءَ مما يَلْقَــوْنَ من أحـــزانِ

سـأرَى فى المـمـات خُلْدَ حـيـاتى حين تـعـفـو عنّى المُنى والجروحُ
وينامُ الجــسمُ الـوضـيـعُ على الأرْ ضِ وتختــالُ فى الـسـمـاءِ الروحُ

عندما تخفتُ الأعاصيرُ فى سَمْـ ـعى وأنسى الأصواتَ والأشياءَ
كلُّ شىء فى العالمِ الأحمقِ الجا هلِ يخبو ويستحيلُ هباءَ

فإذا أمعنَ النشاوَى بكأس الـ إثم فى اللهو والصُرَاخِ الأثيمِ
لم يجئنى من صوتهم أىُّ همسٍ وتفرّدْتُ بالسكونِ المُقيمِ

وتمرُّ السنينُ لا ألمٌ فيـ ـها ولا إثمَ فى ظلال الخلودِ
عالمٌ ليس لى التغلغلُ فيه الـ آنَ فلأمضِ فى غناء نشيدى

ولأعشْ فى هذى الحياة مع الأحـ ـلامِ تحت النهار والظلماتِ
أعشقُ الفتنةَ النبيلةَ فى الور دِ وفى ضجّةِ الرياحِ العواتى

وأسلّى نفسى وقلبى بمرأى الـ ـعابثينَ الأشرارِ والواهمينا
هؤلاء الذينَ يقضون أيّا مَ صباهُمْ فى هَذْرهم سادرينا

ليس تَعنيهمو الفضيلةُ والنبـ ـلُ وما يحزنون للأشقياءِ
فإذا ما رأوا حزيناً معنّىً رجموهُ بالشوك والأقذاءِ

وضعافُ الطيور فى ظُلَلِ الأغـ ـصانِ تَلْقى منهمُ صنوفَ النَكالِ
وزهورُ الخبّازِ فى رحبةِ الحقـ ـلِ يدوسونها فيا لَلضَّلالِ

وحـيــاةُ الفنّانِ فـى عـالـم الوَحْـ ـدة والـفكـرِ عنـدهم كـــالجـنونِ
يا لـهــذى المأســاةِ يا ربٍّ مـــاذا كـتــبتْ للأحـيــاء كفُّ الـسنينِ؟

ولتــســرْ هذه الحــيـاةُ كــمــا تر جـــو المقـــاديرُ والأسى والـظّلامُ
وليَظَلّ الأحـيـاءُ فى التـيـهِ يشـقـو نَ وتقـســـو عليــهـــمـــو الأيّامُ

ولأعشْ مــا يشــاؤه الـقَــدَرُ الظا لمُ أَبـكى علـى أسَى الأحـــيـــاءِ
هؤلاء الصَـرْعَى الظمـاءُ الحَيَـارَى بـــيـــن فـــكّ الآثـــامِ والأدواءِ

بين يدى الله

المساكينُ يا سماءُ فمُدِّى لأساهم كَفَّيك يَفْنَ الشقاءُ
إن يكونوا جنَوْا فقلبُكِ أسْمَى أو يكونوا ضَلُّوا فأنتِ السماءُ

ليس يُغْنِى كفَّ الألوهة أن تمـ ـحوَ حُزْنَ المعذَّبين الجياعِ
فهى نبعُ الحياةِ والخيرِ والفنِّ وبُرْءُ الأحزانِ والأوجاعِ

جئتُ يا ربِّ تحتَ ليلى الطويلِ الـ ـمرِّ أبكى حزنى وحزنَ الوجودِ
حينَ ضاقتْ بى الحياةُ وأسلمـ ـتُ قيادى لليأسِ والتنكيدِ

جئتُك الآنَ يا إلهى ومالى غير قلبى ونغمتى من شفيعِ
أنا من قد رسمتُ مأساة هذا الـ كون شعراً روّيتُهُ بدموعى

ها أنا قد مددتُ كفَّىَّ يا ربِّ وعودى مُلْقىً على قدَميّا
وهو لحنى الأخيرُ يا ربِّ ذوبْـ ـتُ حياتى فيه وحُلْمى النقيّا

فإذا لم تصلْ سماءَكَ ألحا نى فعُذْرى كيانىَ البَشَرىُّ
وإذا ما تركتَنى لشقاء الـ ـعيشِ يَلْهو بىَ الدُجَى الأبدىُّ

فـهـو حـظّي من الحـيـاة قـضـتـهُ ... شـرعـةُ الدهرِ والـوجـودِ الأبـيـدِ
كلّ حـيٍّ لابدَّ أن يـقـطعَ الـعُـمْـ ... ـرَ صـريعـاً على ترابِ الوجـودِ

بـين فـكِّ الـرَحَى يـغنّـى ويـبـكـى ... ويذوقُ الحـيـاةَ بِشْـراً وحُـزْنا
آهِ لابدَّ مـن أسـانـا فـمـاذا ... نفعُ هـذى الشكوى الحـزينة منّا

فلنلـذْ بالإيمـانِ فـهـو خـتـامُ الـ ... ـيـأسِ والـدمعِ والشـقـاءِ الـعـاتى
يمـسـَحُ الأعـينَ الحـزيـنةَ من أد ... مـعـهـا الهـامـراتِ فـى الظلمـات

فـاصرخى يا رياحُ فـى شُعَبِ العـا ... لم وامـضى تفـجُّـعـاً وعـويلا
واصخبى يا بحارُ ما شئت فى سمـ ... ـعىَ واستصرخى الضُحَى والأصيلا

واطغَ يا ليـلُ بالأسَى ومـعـانى الـ ... ـيـأسِ فى قـلبىَ الرقـيقِ الكـئـيبِ
لن تـنالَ الآهـاتُ منّـىَ بعـد الـ ... آنَ حـتى إن عـشتُ فـوقَ اللهـيبِ

فـوراء الحـيـاة مـعنىً عـمـيقٌ ... ليـس تفنيـه سـورة الأحـزانِ
هو مـعـنى الألوهةِ الخـالـدُ المر ... جـوُّ خـلفَ الوجـود والأزمـانِ

الرحيل

فـوداعـاً يا كلّ مـا فى الوجـود الـ   ـعـبـقـرىِّ العـمـيـق من آهاتِ
كنتِ فـى قلبىَ الخـيـالـىِّ مـأسـا   ةً وأنت الـغَـدَاةَ سـرُّ حـيـاتى

سـوف أهواكِ يا دموعى وأحـزا   نى مـا عشتُ فى الوجـودِ الجميلِ
فاصْحَبينى إذا أنا عشتُ فى الـعا   لم أو حـانَ عن ثَـرَاهُ رحـيـلى

يا حـيـاتـى فى هذه الأرضِ أمّـا   أنت فـامضىْ كـمـا يشاءُ الزمـانُ
انشـرى ذلك الشـراعَ وسِـيـرى   وتَغَنَّىْ مـا شـاءتِ الألحـانُ

وإذا مـا هبّت ريـاحُ الرَدَى يَـو   مـاً وهزَّت كفُّ القـضـاء الـشراعـا
فـابسمى للأمـواج مـغـمَـضَـةَ العـيـ   ـنِ وقـولى يا أُغنيـاتُ وَدَاعـا

هكـذا تبلـغ السـفـينـةُ يا شـا   عـرةَ الحـزن شطَّهـا الأبـديّا
شاطئَ الموتِ شاطئ الوحى والأسـ   ـرارِ ذاك المحـجَّب المخـفـيَّا

أغنية للإنسان

- ١ -

"نظمت هذه القصيدة عام ١٩٥٠"



في عـمـيق الظلام زمـجـرتِ الأمـ ـطـارُ في ثـورة وجُنَّ الـوجـــودُ
طاش عَـصْفُ الرياح والتهب البـر قُ وثارت علـى السكون الـرعــودُ

ثــورةٌ ثــورة تمــزّق قــلــب الـــ ـليل والصمت بـالصـدى بالبـريق
ثورةٌ تحت عــصــفــهـا رقــد الكو نُ عـمـيقَ الأسى كـجـرْحٍ عـمـيقِ

صرخـاتُ الإعصـار أيقظتِ الرعـ ـبَ بـقلب الطبـيــعــة المذلـهمِّ
تتلوَّى الأشــجــار ضـارعــة والـ ـمطـر البــارد الشــتــائيّ يهـمـى

تتـلوّى فى رعــشـــة، فى جـنون وفـؤادُ الإعـــصـــار فى غَلَيــانهْ
تتـلوّى كــــأنهـــا روح إنســـا نٍ يريـد الخـــلاصَ من أحـــزانهْ

كل شـىء فى ثورة وانـفــعـــال كلُّ شـىء فى لـيلـىَ المحــــزونِ
وأنا مـــثـلُهـــا تمـزقنى الثـــو رة والحــزنُ، مـــثلُهـا فـى جنونِ

أنا حـــيثُ الآلامُ تُطبـق جنْحـــيـ ـها المخـيفـين فى الدياجيـر حولى
أدمع فى مــحـــاجــرى، ولهـــيبٌ فى دمى واكــتــئــابةٌ فـوق ظلّى

لم أزل في كـآبتي وشـرودي أرقبُ الليلَ والأعاصيرَ حَيْرى
في عيوني آثارُ حُلْمٍ جميلٍ كان يوماً وأصبح الآن ذكرى

في جمود وقفتُ أرقب من نا فذتي ثورةَ الدُجَى وجنونَهْ
ورشاش الأمطار يلطم وجهي وأنا في خواطري المحزونهْ

يا أعاصيرُ من دمائي خذي النا رَ ومن حزني العميق الشديدِ
يا دياجيرُ من فؤادي خذي الظلـ ـمةَ إني في غيهبٍ ممدودِ

عصرتني الحياةُ لم يبقَ معنىً لوجودي لأدمعي لحياتي
كل شيء يلوحُ لي عَدَماً مـرّاً ولغزاً مكفّناً بالشكاةِ

كلُّ شيء تلفّه ظلمة أعـ ـمقُ من أن يُنيرها قطُّ ضوءُ
ظلمة كالممات تخنقني خنـ ـقاً هي اللاانتهاءُ واللاشيءُ

ظلمة في امتدادها يخبط الأحـ ـياءُ في غفلة عن الأقدارِ
أين نمشي ما عدتُ أحتمل الجهـ ـل متى الفجرُ؟ طال بي انتظاري

في ضباب الأحلام والشعر مرّغـ ـتُ غرامي ونشوتي وصِبايا
في بحار الخيال تاه شراعي فيمَ؟ ماذا جنيتُ غيرَ أسايا؟

ودفنتُ الشـبـابَ والحبّ من أجـ ـلِ طموحى ولـم أزل فى هيـامى
حـرقـة الاطّـلاعِ تصـهـر أحـلا مى وإحـسـاس فكرى المتـرامى

وشـعـورى الرقـيقُ؟ أوّاه من عـمـ ـق شـعـورى وحسّى المشبـوبِ
كيف أنجـو من الأحاسـيس من حـ ـبّى وكرهى؟ من هدأتى ولهـيبى؟

كـيف أنجو من الأسى إن يكن حـو لى وجـود مـقـيّـدٌ مـوبوءُ
ألفُ جُـرْح فى صدره ثار فى عـمـ ـق هـدوئى فلـم يعـد لـى هدوءُ

وأكفّ الحـيـاة تجـرحنى والـ لغـزُ يبـقى لُغْزاً عـميـقاً خـفيّـا
تتـحدّى الأحـيـاءَ قـهـقـهـةُ المو تِ وتبـقى الحـيـاةُ ليـلاً دجيّـا

أيـن أيـن الـذين غـنّـوا عـلـى الأر ض طويلاً واستبشـروا وأحبّـوا؟
لا صـدىً من غـنائهم لا لـهـيبٌ من أحـاسـيسـهـم يثورُ ويخـبـو

ليس منهم إلا قـبـور حـزيـنا تٌ تبـقّت على ضـفـاف الحـيـاة
جفّ نبع الحـيـاة فـيـهـم فـلاذوا فى سـكون بـعـالـم الأمـواتِ

المسـاء الجـمـيل حـدّثنى عنـ ـهم أقـاصـيـص كلُّهـا أحـزانُ
شـهـد الليل أنّـه مـثلمـا كـا ن فـأيـن الذين بالأمس كـانوا؟

كـيف يا دهر تنطفى بين كـفّـيـ ـك الأمـانى وتخمـدُ الأحـلامُ؟
كـيف تذوى القلوبُ وهى ضـيـاءٌ ويعـــيش الظـلامُ وهو ظـلامُ؟

كـيف تحـيا الأشـواكُ، والزَهَرُ الفا تنُ يَذْوى فى قـبـضـة الإعـصـار؟
كــيف تمضى إلى الـفناء الأناشـيـ ـدُ وتـبــقى مــرارةُ الأقــدار؟

وأكفّ الحـيــاة تجــرحنى فـيـ ـمَ بقـائى؟ حـسـبى أسىً وعـذابا
فى ربيع الشـبـاب مـا أعـمق الجـر حَ إذا كـانـت الحـيــاةُ شـبــابا

الشـبـــابُ الذى يسـمّـونـه نُعْـ ـمى شـبـاب الشـعورِ والرَغَـبـات
والشـبـابُ الذى أسـمّـيـه إحـسـا سـاً عـمـيـقـاً بـكلّ مـا فى الحـيـاةِ

الشـبـاب الكئـيـب حـين يفـيق الـ ـحـالـمُ القلب شـارداً مـســتطارا
ويرى فـى تفــجّـعِ جــثّـــة المـا ضى الغريقِ الشاوى وكيف تُوارى

ذكـريـاتُ الطفـولة الـعـذبةُ البـيـ ـضـاءُ راحت تنهـار فى استسـلامِ
وظلال البـســاطة الفـجّـةُ الحُلْـ ـوةُ ذابـت فـى مُـنـحَـنـى الأيّـامِ

والفـؤاد الرقـيـق يصـدمـه الإحـ ـسـاس بـالواقع الغـريـب الجـديد
واقع لـم يحـسّـهُ قـط من قـبـ ـل وأفقٌ مـن عـالـمٍ مــفــقــودِ

ليس يدرى مـــاذا يُحسُّ لماذا تتبـقّى أعـمـاقُـهُ فى انتـفـاض
مُـــــثُل فى تمزّق واصطراعٍ وأحـاسيسُ مـا وعـاها مـاضى

رَغَبـاتٌ كـالليل غـامضـةُ الأصـ ـداء تُرْغى فيـمـا وراء الشـعـورِ
وشـعـورٌ بفـورةٍ فى الدم الجـا رفِ تبـــقى كنـاقمٍ مـــوتـورِ

وانبــشـاقٌ يريـد أن يملكَ الـنجـ ـمَ ويسطـو على ذرى الآفــاقِ
واندفـاع إلى مـــعــانٍ وراء الـ ـحسّ فى المستحيل فى الأعمـاقِ

كل هـذا يُحــسّـــه قـلبى الدا مى بجُـرْح الشباب والإحـسـاسِ
ليـتنى لم أشبَّ بعـدُ عن العـشـ ـر ولم يَستـفـقْ شـعـورى النـاسى

ليـتنى لم أزل كـمـا كنتُ قلبـاً ليس فـيـــه إلا السَّنا والـنقــاءُ
كلَّ يـوم أبنى حــيـاتىَ أحـــلا مـــاً وأنسـى إذا أتانى المســاءُ

فـــوق تلّ الرمـــال أصـــرف أيّا مى وأبنى مـسـتـقبـلاً من رمـالِ
لا أحسّ المأسـاة حـولى ولا أسـ ـمعُ فى الرمل ألفَ ألـفِ سـؤالِ

كـالعـصـافير لم أحيّـر أحاسيـ ـسى يومـــاً بما تـقـــول الرياحُ
فـوق تلّ الـرمـال أرسم أشـبـا هَ قـصـــورٍ سكّانُهـا أشـبـــاحُ

وتمرّ الســـاعـــاتُ بى وأنا أبـ ـنى خــفـايا مـدينـة الأحــلامِ
أىّ يوتوبيـا فـقـدتُ وعـزّ الآ نَ إدراكُــــهـــا علـى أيّامى

تلك يوتوبيـا الطفــولة لـو تر جع لـو لم تكـن خــيـــالَ مَنامِ
إيه تـلّ الرمـــال مـــاذا تُـرى أبـ ـقَـيْتَ لى من مـدينة الأحــلام؟

هو ذا أنـت، مـــثـلمـــا كنـتَ تَلاً شــاعـــرياً مكـللاً بالجـمـــال
وأنـا لم أزل أمـــرّغ أحـــلا مى وأبنى... لـكن قـصـورَ رمـالِ

كنتْ عرشى بالأمس كنت لىَ الأو لىبَ والآن لـم تعــد غـيـــر تلٍّ
كـــان فى هذه الـرمـال وجـــودٌ شـــاعـــرىٌّ يـلفُّـــهُ ألـفُ ظلٍّ

ذهب الأمـسُ لم أعـــد طفلـة تر قبُ عشّ العـصـفـور كل صـبـاح
لم أعـد أبصـر الحـيـاة كـمـا كـا نتْ رحـيـقـاً يذوب فى أقـداحى

لم أعــد فى الشتــاء أرتقب الأمـ ـطار من مـهدىَ الجـميلِ الصـغيـرِ
لم أعـد أتبعُ الحـمــامــة إن غنّـ ـتْ وألهـو على ضـفـاف الغـدير

لم أعـد أستطيعُ أن أحكم الزهـ ـر وأرعـى النجـــومَ فى كلِّ لـيلِ
لم أعـد أمـــزج الوجـــود بقـلبى وأعــدُّ الحــيـــاةَ قــصّـــةَ طفلِ

ذَهبَ الحُلم والطفولة واعتضـ ـتُ بحسّى الرهيف عن لهو أمسِ
كل ما فى الوجود يجرحنى الآ نَ ولون الحياة يطعن نفسى

أين شعر الوجود؟ أسفر عن شىءٍ طَوَى سرَّهُ ذبولُ الرماد
كل شىء قد عاد أشبه بالقبـ ـر رهيباً ملّفعاً بالسواد

النشيد القديمُ ضاع صداه حين مرّت به يد الأعوام
كلّ شىء ينهارُ إلا عنادى وحنين الجمال فى أحلامى

وحوالىَّ تُطبق الخيبةُ المرّ ةُ جُنْحَى نِسْرٍ مخيف السكون
أيها الواقعُ الثقيلُ حنانَيْـ ـكْ أهذى عقبى المنى والحنين؟

رعشات الأزهار لم تعد الآ نَ نشيداً وضحكة استبشار
بعضُ شىءٍ فيها يمرّ على سَمْـ ـعى بأقدام قاطفِ الأزهار

وغناء الطيور لم يعد الآ نَ شفاءً لأدمعى وخلاصا
بعضُ شىءٍ فيه يذكّرنى الأقـ ـيادَ والصائدين والأقفاصا

وعبور النسيم لم يعد الآ نَ كما كانَ فرحةً فى كيانى
بعضُ شىءٍ فيه يُذكّرنى الأ موات تحت السكون والنسيان

واختلاجُ الأمواجِ فى النهر ما عُدْ ت أراه إلا دُجَى مدلهِمّا
بعض شىء فيه يذكّرنى جسـ ـم غريقٍ رأيتُهُ فيه يوما

ومرور الأيّام ما عاد يبدو لى ربيعاً ملوّناً سحريّا
بعض شىء فيه يذكرنى الأقـ ـدار والموت والأسى الآدميا

وجمال الوجود ما عاد يبدو لى مثيراً لنشوة لا تُحَدُّ
بعض شىء فيه يلخّص لى القصـّ ـة فى لفظتين: مهد ولحدُ

عُدْتُ أخشى الحياةَ، أفرق منها وأراها دعابةً لاتطاقُ
إنها الآن قصّةُ حاكها بالدّ مع والنار ماردٌ عملاقُ

حسبُها أنّنا دفعنا إليها ثمنَ العيش حُرْقةً ودموعا
أى ذنب جناه آدم حتى نتلقّى العقاب نحن جميعا؟

أىُّ ذنب جنتْه حوّاءُ؟ ماذا عرفتْ من ثعبانها المشؤومِ
ليتها لم تمسَّ دوحتها قطُّ ولم تصبُ للجَنَى المسموم

ليتها لم تحسّ بالشرّ والخيـ ـر ولم تَدْرِ للتمرّد طعما
ليتها حافظت على جهلها المطـ ـبق ما دامت الغباوةُ نُعْمى

وليكن آدمٌ وحــــواءُ قـــــد ثارا وداســـا الســمـــاءَ فى إصــرارِ
أو لم يكـفِ أن أضـاعـــا جـنانَ الـ ـخُلْد؟ لـم تكف سورة الاحـتقار؟

وسـدىً يبـحـثـان فى عـالم يَسْـ ـكنُ فـيـه الغمـوض والأسـرارُ
السـمـاء الـتى أضـاعـهـا خلودٌ وهنـا يحـكم الـرّدَى الجـبّـــار

هبـطا فى تـعـــثــرٍ صـــامت الآ هاتِ غـرقـانَ فى جـمـود الذهولِ
يسحبـان الذكرى الكئيبـة فى صمـ ـتٍ ويستحـيـيان جَـذْب الحقـولِ

إيه حـوّاءُ! كـيف عـوقـبتِ بالنفـ ـيِ ولـولاكِ مـــا عَـــرَفنا الـنورا
أنتِ يـا من بعـتِ الخلودَ بـأحـــزا نِ ليـالـيكِ واشـتـريتِ الشـعـورا

الخطايا الـتى اقـتـرفتِ ستـبـقى شُـعَـلاً فى وجـــودنا وضـيـــاءَ
كـــــخطـايا الربّ ســـرق الـنا رَ لعــــبّــاده ونـال الشـــقـــاءَ

آهةٌ فى الـوجـود تُسْـمع يا حــوّ اءُ روحى حـــديثـك المجـهـــولا
كـيـف ألقـيتِ رأسك الحـلو فى يأ سٍ على صــخـرةٍ ونُحـتِ طويلا

وعـلى بـعـــد خطـوتيـن حنـا آ دم فى صــمـتــه الرهيبِ الحــزينِ
شعـرُهُ الأشـقـرُ الجـميلُ تهـاوى خُـصُـلاتٍ على شـحوب الجبـينِ

إهدآ أيّهــا الكئــيـبــان مــا زا ل لقـلــيكـمــا بقــايا هـناءِ
بعضُ ذكـرىً من السـماء غـداً تُمـ ـحَى بذُرِّية مـن الأشــقـيــاءِ

فى الجبـال التى تموتُ بهـا الأصـ ـداءُ رجعٌ من مـاضيـات القـرونِ
وكــأنى هـناك أســمع أصــدا ء خطىً تسـتـثيـرُ قلـبَ السكونِ

شبـهُ أقـصوصـة يُـرَجِّـعـهـا الوا دى حــديثـاً عـن سيـرة بَشَـريّه
مـســحـتـهــا الأيامُ لم تُبْقِ منـهـا غـيرَ همس فى الأنـفس الشاعـريّه

حــدّثتنى الـوديانُ عن زمنٍ مــرّ ولفــتْــه بالضــبــاب الليــالى
عندمــا كـان فى الوجـودِ فتىً رَا عٍ يُغنّى الرياحَ فــوقَ الجـبــالِ

كـان يُدْعى هابيل كـان يسوق الـ ـغَنَم الظامـئـاتِ كـلَّ صـبــاحِ
كــان فى روحــه بقــيــةُ ذكــرىً من حــيــاة الـســمــاء والأرواحِ

مـقلتـاهُ حُلْمـان بالشـعـر والحب يذوبـان فى صـــفـــاء المراعى
شــفـتـاه ارتعــاشــتـان لمـا يُبْـ ـصِـــرُ من فــتـنةٍ ومـن إبداعِ

يسـقط الليل بـالنَدَى فـوق جَـفْنَيـ ـه ويغــفـو على ظفـائر شــعـره
ذلـك الحُــلْـمُ، ذلـك الأبَـدُ الـنـا ئمُ هابيلُ فى صــفــاهُ وطُهْــرِهْ

كـان يـومـاً ينـام فى ظُلَّة الجــو ز علـى شطّ جــدول نعـــســانِ
حـالمـاً بالآفـاق كـفـاه فـى المـا ء العـبـيـرىِّ فى سكـون المكان

نشـوةٌ ملءَ روحـه، روحـه الظمـ ـأى إلى كـل فـاتن مـسـحـورِ
ليس يصـغى إلا إلى هـمـسـة المـا ء وخطو القطيع قـوى الصخورِ

لم يشـاهد قـابيلَ تـقـتـلُهُ الغَيـْ ـرةُ يمشى فى نقمـة محمـومـه
فى يـديه سكّينُهُ الحـاقـدُ المسـْ ـمومُ فى مـقلتَيْـهِ طيفُ جريمـه

لم تكن غيرُ صرخة، غيـر تأويـ ـهة حزن غيـر اضطرابٍ قـصيرِ
هدأ الجـسم بعـدها وثـوى الرا عى النبـيلُ المقـتـول عند الغـدير

وأتت ظلمـةُ المسـاء على الحـقـ ـل وعـاد القطيعُ من دون راعى
ليس إلا قـابيل يمـشـى رهيبَ الـ ـخطوِ نهبَ الأفـكارِ والأوجـاع

عَـبَـثـاً يطرد الجـريمـةَ والمقـ ـتـولَ عـن ذهنه الأثـيم المسىءِ
كلمـا قـاتل الأسـى عـاودَتْهُ فى الدُجَى صرخةُ القـتيل البـرىءِ

أولم تسـمع الحـقـولُ صـدى أنـ ـة هابـيل حـين خـرّ قـتـيـلا
أولم يشـهـدِ القطيعُ عـلى الجـا نى ألـم يبـصـرِ الدمَ المطـلولا

.   .

أين هابيلُ؟ أين وقع خطى أغـ   ـنامه فى الجبال والوديان؟
ليس منه إلا ضريح كئيب   شادَهُ فى العراء أولُ جان

يا لأحزان آدم عندما أبـ   ـصرَ بابنيه قاتلاً وقتيلا
أيها المستطارُ لن تردَعَ الأقـ   ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلا

استرحْ أنت، نم دع القاتل الآ   ثم يسكر على نشيش الدماء
لَعَناتُ القتيل لن تعرفَ الصمـ   ـت غداً تستبدّ بالأحياء

لعنات تظل تصرخ بالثأ   ر وتبقى تحزُّ فى الأعصابِ
وتحيل الأيدى مخالبَ والأر   ضَ قبوراً والناسَ محض ذئابِ

سوف يأتى جيل من الناس محمو   مٌ يصيحُ الجنونُ فى رغباته
يتمنى لو كانت الأرض لحماً   ليصبَّ المزيدَ من طَعَناته

وانبثاقُ الدماء يُغريه ما لذ   ةُ هذى الثمالة المسمومهْ؟
إنها اللعنة القديمة أبقت   فى عروقِ الأبناء نبض الجريمهْ

ذلك النبض لن ينام إلى أن   يترك الكون فى الفضاء شظايا
ذلك النبض لو يحدّثُ عما   سال فى الأرض من دماء الضحايا

حـدثينا يا فـورة الشـرّ فى أعـ ـمـاق هذى السلالة الـعـمـياءِ
عن جنون الطموح يقتات من ضوء المـآقى ويـرتوى بـالـدمـاءِ

عن جمود الرجاء فى أعين القَتْـ ـلى ولـون الشـرود والنسـيـانِ
العـيـونُ التى تحـدّق فـى اللا شىءِ فـى غـفـلة من الأزمـانِ

عن عـيـون كـأنّ فـيـها فُـتـوراً سـاخـراً مـن وجـودنا المجنونِ
وعـيونٍ كـأنهـا تقـذف الـلعنة والمـوت فـى لظـى وجـنـونِ

وعـيـون تـرسّب الصمتُ فـيـها وانطوى خـلف لونهـا ألف سـرٍّ
وعـيـون أخـرى يضـجُّ أسـاها ترمق المـوت فى ابتـهـال وذُعْـرِ

والعـيـون التى تحـدّق لا قـعـ ـر لهـا لا بداية لا نهـايه
والعـيون التى اسـتحالتْ رمـاداً مطفـأ ليس فى تلاشـيـه غـايه

والعـيـون التى تحـقّـرُ فى صـمـ ـت وتـلـك الـتى تـلـوح ذهـولا
والعـيـون الـتى يغلفـهـا الحـز نُ وتبكى شـبـابهـا المقـتـولا

والعـيـون التى يـعـفّرها الرمـ ـلُ وتمحـو ضـيـاءَها الظلمـاتُ
والعـيـون التى تحـدّق فى الأر ضِ كـأن ليس فى الـوجـود حـياةُ

وعيون العدل الصريع مع الأمـ ... ـوات بين الدمـاء والأشـلاءِ
من رآها استحال صخراً أصمّاً ... مّيت الحسّ خادر الأعضاءِ

أين أين المفـرُّ من هاته الأعـ ... ـين من لونها العميق الرهيبِ
إنهـا لا تنام لا تعـرف المو ... تَ وتبقى فى حقدها المشبوبِ

إنهـا لا تغضُّ أحداقها السو ... د وتبقى غضبى تفيض جنونا
إنها فى السماءِ فى الأرض فى كل ... مكانٍ يحسّ بالميـتينا

فى هدوء العروق تصرخ فى الليـ ... ـل وتعوى فى كلّ قلب أصمٍّ
فى جمود الضمائر الميتة الشلاَّءِ ... فى كل قـادم مـدلهمٍّ

ليس يقوى على فظاعتها النسْـ ... ـيانُ فهى ارتجافة فى الشعورِ
وانعصار فى الروح يغلى جنونا ... وسياط تنصبُّ فوق الضميرِ

وكوابيسُ كالسَعَالى تجوسُ اللـ ... ـيلَ خلف استنامة اللاشعورِ
كلما أخلد الضميرُ إلى النو ... م أفاقت من كهفها المسحورِ

ودعت موكبَ الخطايا فخفّتْ ... من أقاصى الدُجَى المخيف الجديبِ
موكب قاد خطوهُ الندم القا ... تل غرقانَ فى جمود رهيبِ

أين أين المنجى؟ وكيف تنامُ الر وحُ فى ضجّةِ الضمير المُهانِ؟
أىّ نوم يذوق راحته الجلاّ دُ؟ هل للذنوبِ من نسيانِ؟

يا حبال الجلاّد لفّى على الأعـ ـناق أفعى الذنوب والآثامِ
انسجيها من رجع أغنية الأمـ ـواتِ من لعنة الجراحِ الدوامى

اجمعيها من كل عمر طوتْهُ كفٌّ (آريس) وهو ما زال غضّا
القطى لحنها من الموكب الأخـ ـرسِ ما بين ثاكلين ومَرضَى

من شفاه الأطفال تحلم بالمأ ـوَى وبالدفء فى رياح الشتاءِ
من عيون الصبيان ترسم فى الظلـ ـماءِ أحلامَ عودة الآباءِ

من جنون الرياح تعصف كالأقـ ـدار فوق الخرائب المنثوره
حيث كانت تقوم أبراج تلك الـ ـمدن العبقريّة المسحوره

حيث أمست تمتدّ مملكة الغر بان والليل والمنايا السودِ
عالم يحكى التأكّل فيه ليس فيه غير الصدى من جديدِ

وأماسيه لا تمرّ كما كا نت عليها الأوتار والأقداحُ
إنها الآن مسكنُ الرُعْب تأوى لذراها الرياح والأشباحُ

القصور البيضاء هبّت من الحُلْـ ـم على منجل الردى القتّالِ
تتهاوى أحجارها السود فى صمـ ـتٍ وتنهار فى سكون الليالى

ذلك الحلم فى عيون الصبايا الـ ـناعسات الأجفانِ والأعمارِ
حَصَدَتْهُ فى الفجر قهقهةُ المد فعِ فانهار خامدَ الأوتارِ

والشفاه العذراء أطبقها المو تُ على لحن حبِّها المبتورِ
والجباه التى ذوت قبل أن يلـ ـمَسَها إصبعُ الهوى المسحورِ

والخدود التى تعير مغيب الشمـ ـسِ ألوانها وتسقى الشروقا
غارَ فيها جُرْحُ التراب عميقاً وذوت قبل أن تذوق الرحيقا

والعيون الظمأى التى تشرب الأنـ ـجم منها وتستعير سناها
دفن الموت خلف أهدابها أغـ ـنيةَ اللون وانطوت ذكراها

والأكف التى انطوت وهى ما زا لت تحوك الطموح والأهواء
لم تزل غضّة أصابعها اللد نة تستعصر الحصى والهواءَ

والقلوب التى بنت من صباها معبدا للجمال والألحانِ
من ضباب الأحلام من ملمس الور د ومن روعةِ الدجى الوسنان

فى جنون ظلت تصفّق شوقاً لرحيق المستقبل المجهولِ
فأفاقت على مطاردة المنـ ـجل فى ميعة الصِبا المعسول

وأطلّت إلهةُ الفجر أورو را على المشهد المثير الرهيب
لحظة ثم أطبق الأمس جفنيـ ـه على الحاضر المقيت الجديبِ

لحظة ثم نامت الأعينُ الشهلا ءُ واستسلمت إلى النسيانِ
وحَشَاها التراب صمتا وبردا بعد دفء الشعور والألوان

لحظةً ثم مَرَّغَت مُدنُ الأحـ ـلام أبراجها الضخام القباب
فى تراب الفوضى وعادت خيالاً مَسَحَتْ رسمَهُ يدُ الأحقاب

حيث كان الجمال يفرش ضوء الشـ ـمس روحاً وفتنة وطيوفا
أصبحت ترسل الخرائب صوت الصـ ـمتِ والموت غيهبيّا مخيفا

حيث تمتدّ وحشةُ المُدُن الميـ ـتة صَماءَ فى جُمُودِ الصخورِ
كل شىء فيها تحوّل صمتا ليس فيه من خلجةٍ أو شعورِ

غير معنىً مكبّل ربما استيـ ـقظَ فى رقدة الرخام الحزين
لا تعيه إلا النفوسُ التى تَسْـ ـمعُ همس الدجى وصوت السكونِ

لا تعـيــه إلا القـلوبُ التى تـقـ	ـرأ ســرّاً الذهـول فى عــينـينِ
وتُحسّ البـغـضـاء ترجف كـأسـا	وتحسُّ الجنونَ فى شــفـتــين

هذه الأنفـس العـمـيـقـة تدرى	أنّ سـراً يشـيـع فى الأحـجـار
وتواريـخَ كــامـــلاتٍ يغـنيـ	ـهـا العـمود الكابـى لحزن الجـدارِ

وتلال الأنقـاض تـروى الأقـاصيـ	ـصَ لسـمـع الظلام والأشـبـاح
عن مـئـات الخطى التى عـبـرت يو	مـاً ومـاتت مع الدجـى والرياح

عن أغـانٍ مـرّتْ بـأعـمـدة الأبـ	ـهـاء غَـرْقَى بالـدفء والأحـلامِ
ناعـمـاتٍ تغـوص فى رجعـهـا الآ	هاتُ سكرى الخطـوط والأنغـام

الأغــانى الـتى تلامـس خــد الـ	ـليل ملـسـاءَ صـافـيـات الشـفـاه
نام فـيـهـا لُـغْـزُ الجـمـال وأغـفت	فـتـنـة الحبّ والشـبـاب اللاهى

جفّ عـرق الحـيـاة فيـهـا وعـادت	ذكـريات مـطمـوسـةَ الألحـانِ
فى زوايا الأنقـاضِ تـسـردها الأعـ	ـمـدةُ البَـاليـاتُ للجُـدْرانِ

وتلولُ الأنقـاض تروى الأقـاصيـ	ـصَ لسـمـع الظلام والأشـبـاح
عن فلـول الذين عـادوا من الحـر	بِ حطامـاً وحـفنةً مـن جـراحِ

كيف مرّتْ على وجوههمُ الربـ ـداء كفّ الردَى فلم تُبْقِ لونا
كيف عادوا يرتلون نشيدَ الـ ـموتِ ملء الفضاء لحناً فلحنا

كيف ألقى الحرمان ظلَّ السنين الصـ ـفرِ فوق العيون فوق الشفاه؟
ويدُ الموتِ كيف أبقتْ أساها وتراث الذهولِ فوق الجباهِ؟

وخطاهم كأن وقعَ صَدَاها جرسُ الموت رنّ ملء الفضاء
منشداً للحياة أغنيةَ الفَوْ ضىَ ولحن الجنائز السوداءِ

رَجَعوا فى جباههم صُفْرةُ الأشـ ـباح يمشون فى جمودٍ عميقِ
هذه الأعينُ الرماديةُ الأسْـ ـرار هل خلف صمتها من بريقِ؟

هل حديث عن الليالى البطيئا ت وعن ثلجها الكثيف الثقيل
عن جليد الضباب ينهش جسمَ الـ ـصمت فى ظلمة المساء الطويلِ

عن سهاد الأحزان فى أعين الحرّ اسِ فى الخندق الرهيب الدامى
رَسَبَ الليلُ فوق أهدابهم ثلـ ـجا ومات الإحساسُ فى الأقدام

سهروا يرصدون أقبية الليـ ـلَ سكارى بالسهد والانتصار
مات فى ذكرياتهم وتر الإحـ ـساس بالبرد والسكون العارى

يرصـدون الحـيـاة فى ملل مـرَّ — التـلوى مـسنن الأصـفـاد
كل عـينين فـيـهـما قـصـة تُتْـ — ـلى وتَروى لـلّيل سـهـد الرمـاد

والجنـود الذين أغـفـوا مع المو — تى ونامـوا عـلى الثـرى الثـلجى
كل أحـلامـهم كـوابيـس من نا — رِ وقـتـلى ووحـشـةِ ودوىّ

ثم يـأتى الصـبـاحُ ثـانيـةً يـصـ — ـحَـبُـهُ الموتُ أسـودَ الأنيـابِ
من جـديد يمـرُّ يحـصُـدُ لا يُبْـ — ـقى على الأرض غير صمتِ الخرابِ

ويضـيعُ المسـاءُ فى ألف فـجـر — ويضـيع الصـبـاح فى ألـف ليلٍ
كلُّ شـىء يذوى وينـهـار لا يُبْـ — ـقى على الأرض غيـرَ ذِكرىً وظلٍّ

ويطلُّ الســلام ذاتَ ضـحىً حطّ — ـمـه الليل والمدى المسـتـحـيل
ملء عـينـيـه نعـسـة الحـلم الخـجـ — ـلان والصـمت والـرجـاءُ الهـزيلُ

السـلام الحـزين هذا الطـريد الـ — ـتـائه الخطو مـا له من مَـقَـرّ
ذو العـيون الزرقـاء ينبع منهـا الشـ — ـعـرُ والحبُّ فى صـفـاءِ وطهـر

ها هو الآن يـسـتـقـر على الأر — ض غـريـبـا ممـزغ الجنحـين
فى دمـاء الـسنيـن تتكئ الخـيـ — ـبة فى مـقلتـيـه فى الشـفـتينِ

يعبر الميتين والمُدن الصمّـ ـاءَ والجدب والأسى والذهولا
باسما فى مرارة ليس يدرى كيف عاد الأمس القديم ذبولا؟

اتركوه يهيم فى الجدب والفو ضى ويحصى الجراح والآهاتِ
اتركوه مضيعاً دونَ مأوى تائهاً فى مجاهل الظُلُماتِ

يتغذى بالذكريات ويأوى لتلال الأنقاض والأشلاء
ويغنى له الغراب نشيد الشـ ـرّ والموتِ فى اربداد المساءِ

أىُّ قلبٍ يؤويه؟ كيفَ يعيش الضـ ـوءُ فى رفقه الدُجَى والشرورِ؟
كيفَ يحيا البياض فى هذه الأو عية السود فى خمودِ الصدورِ؟

أىُّ عينينِ تُدركانِ صَفَاهُ وتُحسّان سره المكنونا؟
هل تبقت إلا كهوف شقيّا تِ تسمى مآقياً وعيونا

ملؤها اليأس والمرارة حيناً ملؤها الشرُّ والأذى أحيانا
أين يأوى السلام والحب؟ يا للـ ـحربِ لم تبق فى الثرى إنسانا

ليس إلا قوافل من حَيارَى نام فى ذكرياتهم كلُّ صوتِ
يذرعون الحياة فى حيرة الأشـ ـباح يمشون ميتا إثر ميتِ

بردت فى عـيـونهم قـصـة الحب وأبقت صـمـتـا عـمـيـقـاً طويلا
وخـبتْ فى جـفونهم ومَـضـة المعـ ـنى وأبقت غـشـاوة وذهولا

الحـيـارى لا يـدركـون لماذا يمـلأون الوجـودَ ضـحكا وحـزنا
وجنونُ الحـيـاة من أجلِ مـاذا؟ أى مـغـزى وراءها؟ أى مـعنى؟

الحـيـارى أبقت لهم قـصـة الحـر ب اضطـرابا ممـزقـا لا يقـر
وجـحـوداً يكادُ يـكفُـرُ بـالرّو حِ وشكـا فى كـل شىء يـمـر

يعـبـرون الأيام أجنحـة شـلاء قـصـت زوابـعُ الأيـام
ريشهـا فهى فى الثرى تبصـر التحـ ـليـق فى غـطّة من الأحـلامِ

وانطوت فى عـيـونـهم قـدرةُ التلـ ـوين والخـلْق واصطيـاد المعـانى
فـهم لا يرون مـا يخـتـفـى خَلْـ ـفَ جـمـودِ الأشـيـاء من ألوانِ

ربما أبـصـروا على الأفـق النعـ ـسان قـوسَ الأمطار يقطر شـعـرا
كل لونٍ يـذيع فى خـاطر الغـيـ ـم نشـيـداً يذوب شـهـداً وعطراً

وهم يسـحـبـون أقـدامـهـم فـو قَ تراب الملال والبـغـضـاء
ومـآقـيـهم الرمـادية الجـد باء قـبـر الجـمـال والإيـحـاءِ

اشــحبى يـا غـيــوم وانطفـئى يا مـقلة الشمس فى الفـضاء البـعيـد
ولمن يشـــرق الجــمــال؟ أللنســ ـيــان؟ للاحـتــراق؟ للتبـــديدِ؟

ولمن تضـــحك النـجـومُ؟ لمـن تَســ ـكبُ أهدابـهـا كـؤوس الضــيــاء
ولمن ترقـص الفــراشـــات سكرى بعـــيــون البنـفــسج الـزرقـــاء؟

ولمــن هذه الـعـــــــذوبة فـى الأز هار؟ فى نَعـسةَ الـشذى النشـوانِ؟
فى غنـاء الجـداول الـعـذبـة الوَسْـ ـنَى لأرض عـشـبـيـة الأحـضـانِ

فى ابتـــسام المروج بـعـد مـســاء ممطـر الصـــمـت دافئ الديجـــورِ
فى دمــــوع النَدىَ عـلى زهرة بيـ ـضـاءَ نامتْ على حـفاف الغـديرِ

ولمن تُرسلُ الـعـصــافـيــرُ لحن الـ ـحبٍّ والضوء والشَذىَ كل فجر؟
والخـفـيف المفــتـون إن لم توسـد ه رؤانـا لمن يـذوبُ ويَسْـــــرى؟

أغنـاءُ ولا مـــــســـامعَ تـؤوى الـ لحن والحب فى كـؤوس الشعـور؟
وجــمـــال ولا عـــيــون تحـوك الـ ـحبَّ منه لحُلمــهـا المســحـورِ؟

ويـنـابيـعُ تـسـكـب السكّـر الـذا ئبَ مـــاءَ وليس مـن عطـشـــان
وورودُ حـــمــراء يحـتــرق العط ـرُ عليـهـا فـى الجـدب والنسـيـان

ومهادُ من الشذى رخصة العشـ ـب تذيع اخضرارها فى الفراغ
وعطور تظل تجرفها الأمـ ـطارُ فى عاصفِ الرياح الطاغى

كلُّ هذا العطر المبعثر ملء الأ رضِ ملء الحياة والآفاق
لم يعد يوقظ العروق التىْ أغـ ـفت عن اللونِ والسنا البراق

وانطوت فوق ذاتها ترقب الأيـ ـامَ مملوءةً أسى وملالا
الشعورُ العميق تدعوه وهماً وتسمى حب الجمال خيالا

هذه الأنفسُ الممزّقةُ العمـ ـياء، هذى المدافن الجوفاءُ
هدّمتْها مخالبُ الحربِ وامتصّـ ـت شذاها الدماءُ والأشلاءُ

وتبقت فيها مقابرُ للشر وللبأس جهمة الآفاق
عكست بعض جدبها وأساها صرخات الفراغ ملء المآقى

أين تمضى هذى الملايين فى العتـ ـمةِ؟ ماذا يجرّها للمسير؟
ما معانى الألفاظ فى صمتها الـ ـمسكون بالحزن والرجاء الكسير؟

إنهم يقطعونَ أرض الأسى والـ ـجَدْبِ حيث الجمالُ لا يستقرُّ
حيث فكُّ الملال يبتلعُ الألـ ـوانَ حيث الذكرى ظلام وشرُّ

حيثُ يبنى الفـراغُ عشّـا رَمَـاد　　يأ وينمى فيـه الأذى والشـقـاء
وطيـورا شـوهاء حـاقـدة الأنـ　　ـغـامِ مملوءةَ الصَـدَى بغـضـاء

اشْـحبى يـا غيـومُ وانطفـئى يا　　مقلة الشـمس فى الفضاء الفسيح
ودعـــينا هنـا مع الـنقم الـســو　　داء نهب الـســهـاد والتـــبـريح

فى دوى الـرياح مـــوكـــبنـا يز　　حفُ نحـو الضـيـاء تحت الظلامِ
عـاثراً بالأشـلاء أشـلاء من مـا　　توا وأبقـوا هيـاكـلا مـن عظامِ

من بعيـد خلف الـغيـوم التى تفـ　　ـغـر فـاها فـى دربنا المجـهـولِ
ربّمـا لاح بارق كـــــشــــراعٍ　　أبيضِ الوعـد فى الظلام الثـقـيل

بعض دفء نـاد يسـيلُ عـلى الأفـ　　ـق وراءَ الـوهـاد والآكـــامِ
بعضُ كـأسٍ تنال حـافَـتـهـا البيـ　　ضـاءَ إغـمـاءةُ الشـفـاهِ الظوامى

ذلك النبعُ بعـد هـذا السُّرَى العطـ　　ـشـانِ بعـد الـصـراع بعـد الجراحِ
لـو لمسناهُ لـو غـــسلنـا به كـلّ　　أســـانـا ويأسـنـا الملتـــاحِ

ذلك النـبعُ حـيـث نغـمـس شكوا　　نا ونَسْـــقى تعـطُّشَ الأحـــلامِ
من جـديدٍ نعـيشُ تَعْـرِفُـنـا الريـ　　ـحُ وتتـلو نشـيـدَنا لـلغـمــامِ

من جـــديد يعــودُ يَبْنى لنا التــا ريخ فـى ظلّه الـفـــسيحِ مكـانا
وتقـــول الحـــيـــاةُ إن لنـا ظلاً لنـا بعضَ قـــصّـــةٍ وكـــيـــانا

إننا لـم نمرّ بـالعـــــالـم الميّـ ـت صَـرْعَى ولم نـعش أمـــواتا
إنّ فـى ذكـــــرياتنـا وتـراً يخـ ـفقُ بالـضـوءِ إنّ فـيـهـا حـيـاةَ

سـتـقــولُ الحـيــاةُ إنّـا مــررنا ومــلأنـا الحـيــاة شـعـــراً وفنّاً
إن شـيـئـاً منّا عـمـيـقـاً سـيـبـقى فى سكونِ الوجـــودِ لحـناً يُغَـنَّى

فى حفيف الأوراق تسحبها الريـ ـحُ على الأرض فى وجوم الخريف
فى بروق الشــتــاء تقـتحم الـليـ ـلَ وفى عـاصف الرياحِ المخيـفِ

فى ارتشــاف الظلام للقــمــر الأبـ ـيض فى الصيفِ فى سكون المساءِ
فى أغــانى فــلاّحـــتــين تجـويا نِ مع الـفـــجـــر دولـة الأنداءِ

سـتـقـــول الحـيــاة إنّا بحـــثنا فى الدياجـيـرِ أشـهـراً وسنينا
عن رحـيـقٍ مـغلّفٍ بالأســاطيـ ـرِ جَـــهِلْنا وعـــاءَهُ المكنـونا

نحن نـدعــوه بالـســعــادة لكن لـيس منّا مـن ذاقَـــــهُ أو رآهُ
ذلك الـلُغْـــزُ، ذلـك الحُلُـمُ المحـ ـجوبُ خلفَ الضبابِ أين تراهُ؟

فى أناشـيـدنـا يعـيش ضـبـاباً تائهـاً فى مـدىً فسيـحٍ عـريضِ
فى حـكايـاتنـا يَظَـلُّ أسـاطيـ ـرَ ولُغْـزاً مـحـجّبـاً بالغـموضِ

نتـغنّى به ونجـهـل مـا كُنْـ ـهُ شـذاهُ وأين يحـيـا ضـيـاهُ؟
أهو جنيّـةٌ مـجنَّحَـةُ الأقـ ـدامِ تحـيـا فى عـالـم لا نراه؟

من حـريـر السـحـاب أثوابُهـا النا عـمـةُ النَسْج من خـدودِ الزهور
من جَنَاح الـفـراش ملمسُ خـدّيـ ـهـا ومن رقّـة الـشَّـذى المسـحورِ

مـقلـتـاها العـمـيـقـتـان وجـودٌ أزرقُ الـلـون نـاعمٌ وُضّـاءُ
منهـمـا تنبُعُ السـمـاءُ ولون الـ ـبـحـر من نَعْسَـتـيـهمـا الأضـواءُ

من غـبـار النجـوم جـدْرانُ مـأوا ها الغـريبِ المَـشـيـد فـوق الزمـانِ
فى مَكانٍ مـن الوجـود على بـا بِ رؤاهُ يضـيـعُ حـدُّ المكانِ

وعلى رأسـهـا جـدائلُ بـيض الـ ـعـطر مـن زنبق غـريـبِ الرُواء
أنبـتـتـه حـدائقُ الـقـمـر النا ئى لـتلك الجنّيـة البـيـضـاءِ

ويداهـا المسـحـورتان تقـودا نِ النجـومَ الشـقراء عـبـر الفضـاءِ
وتسـوقـان ركب أحـلامنا الحـو راءِ نحـو الضـيـاع والانطفـاءِ

تلكَ جنيّة السعادة فى قصـ ـر بعيد يقومُ خلف الغيومِ
عنده تنتهى رغائبُنا الولـ ـهى وأشتاتُ حُلْمنا المحطوم

وعلى سوره تصبُّ أمانيـ ـنا وأشواقُنَا ونارُ صبانا
فى انفعالٍ نَدُقُّ أبوابَهُ الصمّـ ـاء والصمتُ ساخرٌ من أسانا

وهى تلك الجنّيةُ الفَظّةُ الوحـ ـشيةُ القلب من بنات السَعَالى
ربّما اقتاتَ روحُها بصدى آ هاتنا فى الفراغ ملءِ الليالى

ربّما شَيدتْ أريكتَها الفضّـ ـيةَ النَسْج من حُطَام مُنَانا
ربّما لونّت ملابسها الفجـ ـريّة اللونِ من لهيب دمانا

وصداها ترويه من عَطَش السا رينَ فى كل قفرة ربداء
وتغذّى نيرانَ موقدها من كل حُلْمٍ نصوغُهُ ورجاءِ

هذه الربةُ النحاسيّةُ الإحـ ـساسِ لو لانَ قلبُها الصخرىُّ
لو أراقَتْ ضياءَها فوقَ هذى الأ رض وافترَّ وجهُها الزنبقىُّ

لو حنَا سمعُها وأصغى إلى رَجْـ ـع الأغانى المُسَوَّدات الرنينِ
يتلوّى الحنينُ فيها وينسا بُ كأمواج جدولٍ مفتونِ

أرسلتــهــا حناجــرٌ نســيت أنّ   الأغـــانى قـــد لاتـكون بـكاء
لم تعــد تعــرف العـذوبـة فـاليـأ   سُ حَـشَـاها خـشـونة وازدراءَ

آه اصــــغى يا ربّـةَ الافُـق المفـ   ـقـود من ســتـرك الذى لا يُزاحُ
ربّمـــا لـم تزل حـناجـــرنـا تمـ   ـلكُ لحناً لم تبـــتلعْــهُ الجـراحُ

وانظرى من ضباب قـصرك من لُغْـ   ـزكِ من صـمـت جوِّك المجـهولِ
أرسلى نظـرةً كـمـا يعـبـرُ البـر   قُ إلينـا من جَـفْـنك المعـسـولِ

نحـن جـئنـا بيــأسنـا بأمـــانيـ   ـنا بـأشــلاء أمـــسنا المدفـــونِ
الملاييـنُ مُــــرْسِلين مع الأحـ   ـزانِ حُلْـمَ المسـتـقـبل الموهونِ

نداء إلى السعادة

يا ضباباً من الشذى الشفّافِ
يا جمالاً بلا حدودْ
يا رفيفاً معطّراً فى ضفافِ
ليس يدرى بها الوجودْ

أين تحيينَ فى شغافِ الغيومِ
حيثُ لايبلغُ الخيالْ؟
أم تجوبينَ فى بحار النجومِ
زورقاً يعبُدُ الجمال؟

أسدلى شَعْرَكِ الطويل الطرّيا
خُصُلاتٍ من الحريرْ
وأريقى اشقرارَها الغيميّا
يفرش الكونَ بالعبير

وأزيحى أهدابَك العَبقاتِ
عن أساطيرِ مقلتينْ
ملء لونيهما اندفاعُ حياةِ
وائتلاقاتُ كوكبينْ

يا جبيناً ملوّناً بالمعانى
حجبتْ سحرَهُ الغيومْ
يا عبيراً نشوانَ بالألحانِ
يا خدوداً من النجومْ

من ضبابِ الرؤى إلينا إلينا
قبل أن نُزْمِعَ الرحيلْ
وابسطى ظلَّك الحنونَ علينا
ظلَّك الدافئَ الجميلْ

نحن فى ميْعة الصباحِ سنمضى
قبل أن تفرَغَ الكؤوسْ
وركابُ الديدان فى كلّ أرضٍ
لم تزل تحفِرُ الرمُوسْ

ووراء السياج ينعَقُ بومُ
ملء عينيه أحجياتْ
رنَّ فى صوته الصَدَى المشؤومُ
دون أن تعلمَ الحياةْ

والسكونُ العميقُ ملءالوجودِ
جامدٌ يرصُدُ الحياه
يتغذى بكل لحنٍ سعيدِ
لَمَسَتْ عطرَهُ الشفاهْ

وزهور الحقول تحمل سرّاً
بذرةَ الموتِ والذبولْ
لحظةً فى الصباح تقطُرُ عِطرا
ثم يمضى بها الأفول

وكؤوسُ الهوى المعطرِ تَسْقى
عسلَ الحبّ لحظتينْ
يختفى بعدها الرحيقُ ويُبقى
فى فمِ الكأسِ غُصَّتَيْنْ

وارتعاشُ الظلالِ فوق السواقى
سوف يمضى به الشَفَقْ
والجمْالُ الذى يُظِلُّ المآقى
ربّما غاله الأرق

والأغاريدُ قد يرنُّ صداها
لحظات مع الصَبَاحْ
وزهورُ المروجِ عُمْرُ شذاها
ليس أبقى من الرياحْ

نحن نحيا فى عالمٍ من ظلالِ
عابرٍ نَسْجِ عنكبوتْ
كالعصافيرِ فى ربيعِ الدوالى
نتغنّى لكى نموتْ

فامنحينا رؤياكِ قبلِ الرحيلِ
يا ابنة الحبّ والخيالْ
لحظة عند نبعك المعسولِ
نغسلُ اليأسَ بالجمالْ

علّنا من رحيق عينيك نَسْقى
عَطَشَ الروحِ والشفاهْ
وعلى مُلْتَقَى سواقيك نُلْقى
عبءِ ما شَجَّت الحياهْ

علَّنا بازْرقاقِ عينيك نبنى
من جديد لنا سماءْ
علَّنا باشقِّرار شَعْرِك نُفْنى
سطوةَ الليلِ والفَنَاءْ

آه مُدِّى يديك مدِّى يديك
كلُّ شىء هنا يضيعْ
وانبجاسُ النعيم من شفتيك
كيف نُبْقيه للربيعْ؟

وهنا تغربُ النجومُ وتَذْوى
فى الدُجَى رقصةُ القمَرْ
وكؤوس الأزهار فى الحق تَهْوى
هكذا يحكمُ القَدَرْ

فى شعابِ الظلام نبقَى نسيرُ
أين أوّاهُ تهرُبينْ؟
قصرُكِ الزئبقىُّ أينَ يغورُ؟
كلَّما كاد أن يَبينْ

فيمَ، كالماء فى رمال الصحارى،
لَحَظات وتَنْضَبينْ؟
كشُرُوقِ الهلال، كالأزهارِ
كخيالاتِ حالمينْ؟

ولماذا، إن جئتِ بعد العذابِ،
يقتفى خطوَكِ القلقْ؟
فيحسّ الفؤادُ ظلَّ اكتئاب
كغيوم على الأُفُقْ؟

وذراعاكِ فيم بالسُمّ تَهْمى
حينما تملأُ الكؤوسْ؟
كلُّ كأس وفيه قطرةُ همٍّ
ما زجتْ نشوةَ النفوسْ

كلُّ لون تعيش خلفَ صفائه
ظلمةٌ تأكلُ الجمالْ
كلُّ حبٍّ يضمُّ خلف انتشائه
بذرةَ الموتِ والزوالْ

اهبطى يا أنشودةَ الحالمينا
من فَضَاك المورَّد
وامسحى مرةً صدَى الظامئينا
فى دُجَى ضائعِ الغدِ

وسنبنى هنا معابدَ بيضا
فوق أرضٍ من الرجاءْ
غسلتْ صَدْرَها الفسيحَ العريضا
أدمعُ اليأسِ والشقاءْ

علَّنا مرةً نذوقُ شذاكَ
بعد هذا الصدَى الطويلْ
والشفاهُ الظمأى لشَهْد نداكَ
تلمسُ الكوثَر الجميلْ

●●●

فى غـبـار الحـيــاة، فى مَـزْلق الأيّـ ـام فى كـل مــعـــبـــرٍ مـــسكونِ
رنَّ هذا النشــيــدُ مُـخْــتلج التـــر ديد نــشــــوانَ بالأسـى والحنـينِ

وشَـدَتـهُ القـرونُ منذ رأى الفـــجـ ـرُ بـعـــينـىْ حــواءَ أولَ حُـــزْنِ
منذُ رنَّتْ فـــؤوسُ آدم فى الصــخـ ـر ولـم تَـبقَ فــســحــةٌ للتـــمنى

منذُ مـــرّت قـــوافلُ البـــشـــر الأو لى وعـــمـــرُ الـوجـود بضـعُ سنينِ
عـبـروا يـحـثـون عـنهـا عن الجنّـ ـيّـــةِ الزئبـــقـــيـــة التكـوين

باسـمـهـا يحـرثون من أجل عـينيـ ـهـا أحبّوا حتّى أكتئابَ الرحـيل
ثـم مـــــــاتوا وأورثـونـا هَواهـا وخـفــايا كـيــانِهـا المسـتـحـيلِ

حـــدّثونا عنـهـا فــقــالوا فــتــاةٌ غَـمَسَتْ فى الحـرير شـوق صبـاهـا
ليس تَقــوى على الحــيـاة إذا جــا عتْ إلى رقّـــةِ القـــصـــور رؤاهـا

فـــهى لـلأغنيــاء تبــسـط من أهـ ـدابهـا الـنـاعـمـات ألفَ خـــمـيلِ
وعلى شـعـرهـا العـبـيـرى يقـضـو ن ليـاليـهـمـو كــحلم جـمـيلِ

ثم قـالوا جنيـة تتـبع الرهـ ـبان والزاهدين حيث أفاءوا
مثلَهم تعشقُ السكونَ ويرضيـ ـها مكانَ النعيم خبزٌ وماءُ

من تراتيلهم تشيّد مأوىً ظللتـهُ سكينةٌ ديريه
من بَخور الكُهَّانِ جدرانه البيـ ـضُ ومن خشعة الشموع النقيّه

وسواهم يظنّها ربّةَ الريـ ـف وبنت الذرى وأخت الوهادِ
ليس يروى إحساسَها غيرُ جوٍّ أثقلتْ عطرَهُ أغانى الحصادِ

من كؤوسِ الأزهار حمرةُ خديّـ ـها وتأوى إلى بيوتِ الفراشِ
وتغنى لها النواعيرُ والشمـ ـسُ إذا قبّلَتْ ذُرى الأحراشِ

وسواهم يروى الحكايات عنها كيف تحيا فى عالم النغماتِ
من بكاء الأوتار تنسجُ أُرْجو حَتَها الكوكبيّة الرَعَشاتِ

ويقولون إنَّ مسكنها الأعـ ـلى خيالاتُ شاعر مسحورِ
ظَلَّلتْ روحَهُ جدائلُها الشُقْـ ـرُ وأسرارُ طرفها البَلُّورى

وقلوب تَظنُّها ربَّة الحبّ تصبُّ الرحيقَ للعشاقِ
ويقولون إنَّهم شهدوها تسكبُ الظلَّ فى هَجير الفراقِ

ورأوها تهشُّ في مقلتي (قيـ ـس) مع الدمع والضباب الثقيل
وأحسّوا كيانها المَرِحَ الرا قِصَ في حزن (توبة) و(جميل)

ومئاتٌ تُحسُّها في شفاه الـ ـكأسِ في غمرةٍ من الهَذَيانِ
في ضَبابِ الجنونِ، في دولة الأجـ ـسادِ في عالمٍ من الأدرانِ

ومئات ترجو العثور عليها في زوايا النفوس خلف دجاها
في دروبٍ دكناءَ يَجْهَدُ ضوءُ الـ ـقمرِ الطفلِ أن يَمسَّ ثراها

في خفايا مغمورةٍ عنكبوت الـ ـشر ألفَى فيها سريراً مريحا
وركاب (السيرين) آوت إليها والثعابين أثقلتْها فحيحا

صلاة إلى بلاوتس
(إله الذهب)

من ضفاف الدُجَى الأُخَرْ — نحن جئناكَ لاهينْ
واقتفينا خُطَى القَمَرْ — فوق أرضٍ من الإبرْ
في دياجيرَ من أنين

الصحارى رمتْ بنا — في متاهاتها الغلاظْ
رملُها في جلودِنا — في حنايا جفوننا
لم يزل يسكبُ الشواظ

والأعاصيرُ والرياح — تركتْ في جباهنا
من سكاكينها جراحْ — وأراقت مع النواحْ
مِلحَها في شفاهنا

كلّما رقرقَ الكلالْ — بحّةَ الموتِ في نشيد
وحَنَتْ أذرعُ الرمال — فوقَ أجسامنا الثقالْ
عبثَها الساحقَ المبيدْ

رنَّ فى أفْــــقنـــا صَـــدَى من رنينِ اســـمك الأحبْ
فـــمـــضـــينا إلى المَـــدَى فـى صراعٍ مع الـــرَدَى
باسم مـــعـــبـــودنا الذهب

هكذا يـمّـموا إلى الشـرق آلا فـا جـيـاعـاً للمنبع المزعـومِ
يقطعـون الآكـامَ ترسيـهمُ الصحـ ـراءُ من حـيـرةٍ ليـأسٍ أليـم

ضَلَلتـــهـم أسطورةٌ عن مكانٍ خلفَ بعضِ الجبالِ فى حضن وادِ
حيث يجرى نهرٌ من التبر مسحو رٌ طوتْ سرَّهُ صخورُ الوهادِ

قطرةٌ منه تمنحُ الكفَّ لمسـاً ذهبيَّ التـأثير فى الأشيـاءِ .
والزهور التى تحفّ بشطّيـه شظايا كـواكبٍ بيـضـاءِ

أين هذا الوادى؟ وضجَّ فضاءُ الصـ ـمتِ والليل والمدى بالسـؤالِ
أين هذا الوادى؟ وساروا يجرّو ن قيوداً من الرِّغابِ الثقالِ

فى سكون يلوذ كلٌّ بسـرٍّ ذهبيِّ الوشـاحِ والتلوين
حـالماً فى الظلام بالجدول المو عودِ فى عاصفٍ عميق الحنين

من خـيـالاتـه يصـوغ عـلى الأفـْـ ـق قـلاعـاً فـضـّيـة الأبوابِ
وبلادا وديـانُهـــا تُنبتُ الـتـبـ ـرَ مكانَ الأشـجـار والأعـشـاب

ومكـان الفـراش تـسـرحُ أطيـا رُ رقـــاق تبــريةّ الأبـدان
ومكـان القطيـع تحـيـا وعــول متـرفـات فـضـيـة السـيـقـان

فى خـفـايا هذا المكان الخـرافى أسـاطيـرُ قـلعـة مـسـحـوره
من تراث الإغـريق شيـدها (فلـ ـكـان) سـرا فى أعـصـر مطمـوره

وبنـاهـا عـلـى رَوَابٍ مـن المعـ ـدن منحـوتة الذُرَى سـوداءَ
ناعـمـات عـلى مـزالقـهـا تصـ ـقلُ (فـيكا) خـدودها الملسـاءَ

هى برجٌ عَـلَتْ حـواليـه أشـجـا رٌ ضـخـامٌ تَمَسٌّ أفقَ النجـومِ
وَنَمَتْ فـى أنحـائه الكوكـبـيّـا تِ أسـاطيـرُ عـن زمـانٍ قـديمِ

ويقـولـون إن جـدرانهـا الـغـا مـضـة اللون من لآلى البـحـارِ
جـمـعـتـهـا عـرائسُ الماءِ من أعـ ـمـاقِ بـحـرٍ مُطَلْسم الأسـرارِ

ويقـولـون إنّ أبوابَهـا المُقْـ ـفلةَ الصـمتِ فـوق أروعِ سـرٍّ
نُزِعتْ من جُـدْرانِ قـصـرِ سميـرا ميسَ فى ليلِ بابـلٍ ذاتَ عـصـرِ

والقبابُ الضخامُ من خَشَبِ الجو ز الشـــذيِّ المعطّرِ الألواحِ
من شِـعَابِ الهندِ الملفّعةِ الغا باتِ بالذكرياتِ والأشباحِ

هذه القلعةُ الضبابيةُ الشكـ لِ إليها يضيعُ خطوُ السارى
ليس يدرى مكان سلّمها العا لى رواةُ الألغازِ والأخبار

ليس يدرونَ كيف يبلغُها سا كنُها الصامتُ الغريبُ الطباعِ
ذلك الأعرجُ البطىء الخطى يَسْـ بقُهُ النملُ - إن مَشَى - والأفاعى

٥

ذلكَ العاجزُ الكفيفُ الذى يَمْـ نحُ من لا يَرَى كنوزاً ضخَاما
ليس يَعْنيه أن يُسَلّمها شيـ خاً بخيلاً أو قاتلاً أو غلاما

ذلك الشيخ، كيف يصعَدُ أين الـ ضبابُ؟ أينَ السلالمُ السحريّه؟
أتراهُ - كما يقولونَ - يؤوى بين جُدْرانِ قصرِهِ جنّيه؟

شعرُها - هكذا رَوَوْا - باركتْهُ من قنانِ (الأولمب) أيدٍ خفيّه
فنما كالحياةِ ثرّاً غزيراً أبديَّ المسيلِ كالأبديّه

ونما كالضياء كالبحر يمتدّ سحيق السواد دون انتهاءِ
إن أرادتْ شدَّتْ به القمَرَ النا ئى إلى الأرضِ أو إلى الجوزاءِ

ذلك الشَعْرُ ربّما أرسلتْهُ   سلّماً للضرير كلّ مساءٍ
يتخطّى عليه مرتعشَ الخَطْـ   ـوِ مراقى تلك الرُبّى الملساءِ

أرسلى يا طويلةَ الشعر يا سمـ   ـراءُ إحدى الجدائلِ المسحوره
وارفعى الهائمين بالذَهَب البرّ   اقِ من هذه الوهادِ الكسيره

أو أطلى يوماً بوجهك، بالفتـ   ـنة والصمت فى مَدَى أحداقكْ
وأعيدى على الجموعِ أقاصيـ   ـصَ عن الهالكينَ من عُشّاقك

حدّثيهم عن ذلك الملكِ الغا   بر (ميداس) كيفَ كان مصيرُهْ؟
أين ساقَتهُ شهوةُ الذهبِ العمـ   ـياءُ ماذا جَنَى عليه غرورُهْ

جُنّ بالتبر لم يعُدْ يعشق الأنـ   ـجمَ إلاّ إن أذكرتهُ سَنَاهُ
وازرقاق الغيومِ والبحرِ ما عا   د مثيراً لحبِّه ورؤاهُ

واخضرارُ الجبال أصبحَ يؤذى   روحَهُ، والزهورُ لا تَرْويهِ
فهو عطشانُ يدفعُ الذهبُ الوهّـ   ـاجُ أحلامَهُ إلى ألف تيهِ

ودَّ لو حوّلَ الخدودَ وأهدا   بَ العيون الكحلاء تبراً نقيّا
واشقرارَ الآفاقِ، والشَفَقَ الخجـ   ـلانَ والشوقَ نائماً فى مُحيّا

والشفاهُ الحوّاءُ ينضَحُ منها الد ... فءُ كم ودَّ لو تحوّلن سرّاً
ذهباً تجمدُ الشفاهُ عليه ... قُبَلاً كالرخامِ يقطرن تبرا

حدّثيهم وكيفَ ذاتَ مساء ... كان (مَيْداسُ) لاهثَ المقلتينِ
يلمسُ الكنزَ في انفعالٍ جنونيٍّ ... وفي كفِّه لَظَى شفتَيْنِ

وأزاح المساءُ سِتْرَ دجاهُ ... عن صبيٍّ من عالَمِ الأَطيافَ
في استداراتِ وجهِهِ المخمليِّ الـ ... لونِ إبراقُ مَنْبَعٍ شَفَّافِ

وعلى رأسه جدائلُ شعر ... ذهبيٌّ يغار منه الفتونُ
وسماء في مقلتَيْه من الزُرْ ... قةِ والعُمْقِ لم تنَلْها عيونُ

«عِمْ مساءً» وأجفل الملكُ الشيـ ... ـخُ وماتَ البريقُ في عينيه
غير أصداءِ بحّةٍ حشرجتْ وانـ ... ـطلَقَتْ صرخةٌ على شفتَيْه

أيُّ باب قادتْ خُطى الوافد المجـ ... ـهول؟ هل جاءَ من شُقوق الجدارِ؟
أم تَرَاهُ خيالةٌ جسّدتها ... فتنةُ الكنزِ وائتلاقُ النُضَارِ؟

«عِمْ مساءً ميداسُ» مَنْ أنت ماذا ... تبتغيه في قبويَ المجهول؟»
وأجاب الطيفُ الكريمُ: «أنا أمـ ... ـلك تحقيقَ كلِّ حلمٍ جميلِ

أنا ربّ التمنّيات شفاهي — تملكُ المستحيلَ والأبعادا
في ذراعيَّ قدرةُ الخَلْقِ لو شئتُ لحوّلتُ كلَّ حيٍّ جَمَادا

ملء كفّي الورودُ والذهبُ الوهّاجُ واللونُ والشبابُ الطريُّ
كلَّ ما شئتَ فاقترحْ تهبط الأفلاكُ والأفْقُ والسَّنا الكوكبيُّ»

أرأيتَ الأغصانَ في قَبْضة الإعصارِ تهتزُّ وردةً بعد ورده؟
أرأيتَ النعيم في قلب رحّال سنينٍ واتاهُ حُلْم العوده؟

هكذا لوّن الحماسُ خدود الملك الغرِّ وهو يسمعُ هذا
وجثا ضارعاً وصاحَ: «حنانَيْك مَلاكي ماذا سؤالُكَ ماذا

أعط هذي اليدَ المشوقةَ لمساً ذهبيّاً وقوةً من سحرِ
دع ذراعيَّ لا تَمَسَّان إلاّ لتُعيدا الأشياءَ عالَم تبرِ

إيه ميداسُ، أيّها الملكُ الأحمقُ ماذا جنيتَ؟ أيُّ غرورِ؟
ارقبِ الآنَ مطلعَ الفجرِ وانظر كيف عُقْبَى خيالك المغرورِ

في غد تستحيلُ أشجارُكَ الحيّةُ تبراً تعافُه الأنداءُ
وسواقي المياهِ تجمدُ صَفْرا ءَ كصحراءَ جفَّ فيها الماءُ

ودموع النّدَى تعـود حَـصَىً صُلْـ ـبـاً ولـينُ الورود يُصْـبـحُ صلدا
ورحـيقُ الكرومِ يجـمدُ كـالصَخْـ ـر ودفـءُ الأعـشـاشِ يُصْبح بَرداْ

وحـريرُ السـتـائرِ الـلُّدْن يغـدو جـامـداً لا ليـونةٌ لا انثـيـالا
و(نهـاونـدُ) بنتُك العـذبَةُ الجـذ لى سـتـغـدو فى لحظـةٍ تمثـالا

هكذا تـنتـهى خـيـالاتُكَ التـبـ ـرِّيـةُ الصُـفْـر للأسـى الأبدىِّ
فـاشـربِ الآن خـمـرةَ النـدمِ البـا ردِ واسـكَـرْ بـحُـلْمك الـذهبىِّ

أنشودة الرهبان

نحنُ بالأمسِ تركنا صِبَانا — ووهبنا للسماءِ هوانا
ودفناً كلّ حبٍّ عميقٍ — في مكان لا تعيه رؤانا
ولفَفْنا في ذهول أبيدٍ — كلّ درب قطعتْهُ خطانا
وأصرنا للسكونِ نشيداً — بشريّاً كان ملءَ منانا

لا تَسَلْنا عن طَرَاوة أمسِ — عن معاني ألف كأسٍ وكأسِ
عن عيونٍ مرحات الأماني — نثرت في عمرنا دفءَ شمسِ
عن شفاهٍ في برودة فجرٍ — مَطَرِيٍّ الصمت لمياءَ لُعْسِ
عن خدودٍ دافئاتٍ عذابٍ — كخدودِ الوَرْدِ رقّةَ لمسِ

نحن ضيّعنا روابيَ حُلْوه — ودفَنّا الحبَّ في كلٍّ ربوه
ثم تهنا في مسالكِ حُلْمٍ — وأفقنا عند حافةِ هوّه
وشربنا اللونَ والعطرَ حتى — عادت الكاساتُ تَنْضَحُ شقوه
فأتينا الدير صَرْعَى حَيَارَى — علَّ في ديجورِهِ بعضَ سلوه

هذه يا حياةُ مملكةُ الرهـ — ـبانِ في عزلة وفي اكفهرارِ
دفنوها وكاد ينسَى رعايا — ها الحَيَارَى حتى ضياءُ النهارِ

شـيّـدوها مـن كلّ لفـتـةِ شـوقٍ　　في العـيـون الحـبـيـسـة المحـرومـه
وسـقـوا أرضـهـا الجـديـبـة من بر　　كـانِ تلكَ العـواطفِ المكـتـومـه

وحَـمَـوْها من أن تغـازَلَهـا الشمـ　　ـسُ بـألوانـهـا ولـيـنِ شـذاها
وأبوا أن يـلامسَ القـمـرُ المُنْـ　　ـفـعـلُ الضـوءِ في المسـاءِ دجـاها

وتمـنّـوا ألاّ تمـرَّ بـهـا ريـ　　ـحٌ عـبـيـريّةُ الصَدَى والنـشـيـدَ
فـشـفـاهُ الرياحِ تـكمن فـيـهـا　　قُـبَلٌ عـذْبـةٌ وذكـرى خـدودِ

وتمنّوا أن يُقْـفلَ الليلُ عـينيـه　　وتخـبـو نجـومُـهُ الـسـحـريّه
فـعـيـونُ النجـوم تُغْـوى بأهدا　　بِ حـريـريّةِ الرؤى قَـمَـريّة

وهم يمـقـتـون أن تشـرب النحـ　　ـلةُ شـهـدَ الأزهار كلَّ صـبـاح
فـرحيـق الورود في شرعـهم خـمـ　　ـرٌ تُـريقُ السُـمـومَ في الأرواحِ

والعطـورُ السكرى ألم تنبعِ الأحـ　　ـزانُ بعـد ارتشـافـهـا والجـراحُ
إنّهـا كـالنبـيـذ تُسْكِـرُ تُذْكى　　من حنين الجـمـالِ مـا لا يُبَـاحُ

وغـنـاءُ الـقـنـابـرِ الـذاهـلَ المبـ　　ـهـورُ -في عـرفـهـم- نداءُ خطايا
في ثـنايـاه آهةٌ كـسّـرَ الحبُّ　　صـداها وفـيـه نجـوى صَـبَـايا

وخـدودُ الفـجـر الموردَّةُ النا — عـمـةُ الدفء والشَـذَى والرحيقِ
حـرّموها فقـد تمرُّ على الزهـ — ـدِ فتُصْحيـه من سُبَاتٍ عميقِ

وأقـامـوا سـوراً ليمنعَ عنهم — كلَّ ذكـرىً من كلِّ أمسٍ بعيـدِ
وأرادوه حـارسـاً يطرُدُ العطْـ — ـرَ ويَحْمى من النسيمِ البَرُودِ

وأباحـوا أيّامـهم لـيـد الصـمـ — ـت الرصاصيةِ العروق الثقيله
وأقـامـوهُ حـاكمـاً مخلبيَّ الـ — ـحكمِ لاذت به المُنَى المقتوله

إنه الـديرُ فـيـه يـنتصـرُ المو — تُ وفى قـبـوه يعيش الآهُ
فى خـفـاياه، فى ممرّاتهِ السـو — د الحـزينات لا يعيش اللهُ

مسكنُ الصمتِ والكآبة والجَدْ — ب ومـأوَى الرغـائب المدفـونه
وصـراعٌ مع العواصفِ تُصْحى — نارَهُ أذرع الليالى اللعينه

ذلك العنكبوتُ ذو الأرجُلِ الفظّ — ـةِ هل منه مـهـربٌ أو مـلاذُ
إنه من دمـائهم يتـغـذّى — وهو من قلب أمْسِهم أفـلاذُ

إنه حـبُّـهم يعـود إليـهمْ — ينسِجُ الذكـرياتِ والأهواءَ
لا تطيق الأسـوارُ رَدَّ خُطاهُ — فهـو قد خالطَ الرؤى والدماءَ

وهو حيناً عينانِ صافيتا اللو ن كأعماقِ بركةٍ صيفيّه
أو شفاهٍ من قعرِ حُلمٍ بعيدٍ أو يدٍ لدنةِ البياضِ شهيه

ذلك العنكبوتُ كم عادَ وجهاً عكستْهُ للراهبينَ الكؤوسُ
إنَّه وجهُها، أينسَوْنَ؟ هذي ربّة الدير، هذه تاييسُ

أغنية تاييس

من خـيـوطِ الضـوءِ أرديتى ومـن الأزهـارِ ألـوانـى

الهـوى المبـهـورُ فى شَـفَـتى عـصـرتْـهُ كفٌّ شـيـطانِ

ولـهـاثُ الورد أغنيـتـى وخـفـايا عـالم ثـانِ

وخـدودى مُـخـملٌ لَدْنُ بقْـعـتُـهُ حـمـرةٌ خـجلى

مـن شـذاهـا ينبُعُ اللـونُ ويـرُشُّ الـوردةَ الجَـذْلَى

وأنـا الـلـذَّةُ والأمـنُ لـلريـاح الـعَـذْبَةِ الكَسْلَى

وشـفـاهى ها هـنا الليـنُ ورؤىً صـيـفـيـةٌ لَـدْنَه

إنـهـا إن شـئـت سكِّين وإذا شـئتَ رُقَى فـتنه

وذراعـاىَ أفـانـين فـيـهـمـا النشـوةُ واللعنه

مـن قـديمِ عَـشِـقَ الديـرُ ضَـحكاتى واسـتطاب اسـمى

ذكـرياتٌ مـا لهـا غَـوْرُ رَسَـخَـت فى الـدمِ والـعَظْمِ

أأنـا النـقـمـة والشـرُّ لـم يُضـنيكـم إذنْ رسـمى؟

راهبُ الأمس أننساه؟   كيف أشعلتُ أحاسيسَهْ؟
ما حياةُ الدير؟ ما اللهُ؟   إن أنا أصبحتُ تاييسهْ
وهَوَى فى ركبِ من تاهوا   وهبطتُ الخُلْدَ قِدّيسهْ



أغنية للإنسان

- ٢ -

"نظمت هذه القصيدة عام ١٩٦٥ عدا الأبيات المنسوخة

من مأساة الحياة فى القسم الأول من القصيدة"

عَبـثـا تَـحْلُمـين شـاعـرتـى مـا   من صـبـاحٍ لليلِ هـذا الوجـودِ

عبـثـاً تسـألينَ لن يُكْشَفَ السـرُّ   ولن تـنعـمـى بفكِّ القُـيـودِ

فى ظلال الصَفْصاف قَضيْت ساعا   تك حَـيْـرى تُمـضُّك الأسـرارُ

تسـألينَ الظـلالَ والظلُّ لا يعـ   ـلمُ شيـئـاً وتعلمُ الأقـدارُ

أبـداً تـنظـريـنَ لـلأُفُـقِ المجـ   ـهولِ حَيْرَى فهل تَجَلَّى الخفىُّ؟

أبَداً تسـألينَ والقَـدَرُ السـا   خرُ صمتٌ مسـتغلق أبدىٌّ

فيمَ لا تيأسينَ؟ ما أدرك الأسـ   ـرارَ قلبٌ من قبلُ كى تُدْركيها

أسفاً يا فتاةُ! لن تفهمى الأيـ   ـامَ فلتقنعى بأن تجهليها

اتركى الزورقَ الكليل تُسـيِّرْ   هُ أكُفُّ الأقدار كيف تشاءُ

ما الذى نلتِ من مصارعَةِ المو   ج؟ وهل نامَ عن مناكِ الشقاءُ؟

آه يا من ضاعتْ حياتُك فى الأحـ   ـلامِ ماذا جنيت غير الملال؟

لم يزَلْ سرُّها دفيناً فيا ضَيـ   ـعةَ عُمْرٍ بدّدته فى السؤالِ

هو سـرُّ الحيـاة دقَّ علـى الأفـ ـهام حـتى ضاقتْ به الحُكَماءُ
فـا يأسى يا فتـاةُ، ما فُـهِمَتْ من قـبلُ أسـرارُها فـفـيمَ الرجَـاءُ؟

جاء من قـبلِ أن تجيئى إلى الدُّنـ ـيـا مـلايـينُ ثم زالـوا وبادوا
ليتَ شِـعـرى مـاذا جَنَوْا من ليـاليـ ـهِمْ؟ وأيـن الأفـراحُ والأعـيـادُ؟

ليس منهم إلا قـبـورٌ حـزينا تٌ أُقيمت على ضفـاف الحيـاةَ
رَحَلوا عن حِمى الوجـود ولاذوا فى سكونٍ بعـالَمِ الأمـواتِ

كم أطافَ الليلُ الكئيبُ على الجوِّ وكـم أذعـنـتْ له الأكـوانُ
شَـهِـدَ الليلُ أنّـه مـثلمـا كـا نَ فـأيـنَ الذين بالأمسِ كـانوا؟

كـيف يا دهرُ تنطفى بين كـفَّـيْـ ـكَ الأمـانى وتخـمـدُ الأحـلامُ
كـيفَ تذوى القلوبُ وهى ضيـاءٌ ويعـيـشُ الظـلامُ وهو ظـلامُ؟

كـيف تحـيـا الأشـواكُ والزَهَرُ الفا تنُ يَذْوى فى قـبـضـة الإعـصـارِ
كـيف تمضى إلى الـفَناءِ الأناشيـ ـدُ وتَبْـقَى سُـخْـرِيَّـةُ الأقـدارِ

حـدّثـى القلبَ أنـت أيتـهـا المأ سـاةُ يا من قـد سُـمِّيَتْ بالحـيـاةَ
ما الذى تصنعين بى فى الغدِ المجـ ـهـولِ؟ ماذا ترى مصيرُ رفُـاتى؟

أيّ قبرٍ أعددت لي؟ أهو كَهفٌ ملءُ أنحائه الظلامُ الداجي؟
أم ترى زورقي سيغرَقُ بي يو ماً فأثوي في ظلمة الأثباجِ

وغرامي بالسرِّ يصرُخُ من أيـ ـنَ؟ إلى أين؟ ما مصيرُ حياتي؟
وأمامي أفقٌ من الصمتِ والألـ ـغازِ ضلّتْ في تيْهه خُطُراتي

لهفتي يا حياةُ كم تلعبُ الأو هامُ بي كم يؤودُني التفكيرُ
أبداً أسألُ الليالي عن المو تِ وماذا ترى يكونُ المصيرُ

طالما قد سألتُ ليلى لكن عزَّ في هذه الحياة الجوابُ
ليس غير الأوهام تسخر مني ليس إلا تخبُّطٌ واضطرابُ

هل فهمتُ الحياةَ كي أفهمَ المو تَ وللموتِ صمتُ قلبٍ ضنينِ
لم يَزَلْ عالَمُ المنيّةِ لُغْزا عزّ حَلاً على فؤادي الحزينِ

فليكن يا أيّامُ لن أسألَ الليـ ـلَ عن السر فاحكُمي كيف شئتِ
امنحيني عُمْرَ الزهور فلن أبـ ـكي ومُدّي الحياةَ لي إن رَغِبْتِ

ولماذا أبكي؟ وهل يردع الدَّمْـ ـعُ المنايا؟ وهل يُحسُّ القضاءُ؟
لن تزيدَ الدموعُ يوماً على عُمْـ ـري غداً رقْدةٌ غداً انطفاءُ

ولو أنّى أحـببتُ مـوتـى ونـاديـ ـتُ دُجـاهُ بـأجـملِ الأسـمـاء
هل يُجيبُ الممـاتُ رغـبـتىَ الحرَّ ى ويأتـى ملبّـيـا لنـدائى؟

هكذا جـئتُ للحـيـاة ومـا أد رى إلى أينَ سوف تمضى الحياةُ
وسأحـيـا كـمـا يشـاءُ لىَ المجـ ـهـولُ قلباً حـفّتْ به الظُلُـمـاتُ

هكـذا، مـا يُريـدُهُ القَـدَرُ المَحْـ ـتـومُ لا مـا تُريدهُ آمـالى
سَيَّرتنى الحـيـاةُ أين ترى مَـرْ سَى سـفـينـى وعند أىِّ رمـالِ؟

لم أزَلْ ملْكَ حَـيْـرتـى وذهولى بينَ مـاضٍ ذَوَى وعُـمْـرٍ يَمُـرُّ
لستُ أدرى مـا غايتى فى مسيرى آه لو ينجلى لعـينىَّ سِـرُّ

لم أزَلْ اقـتُلُ الليـالىَ بحـثـاً عن ديار السَـعَـادة البَـشَـريّه
دون يأسٍ بـحـثـتُ دون كـلالٍ فى قِـفـارٍ ممتـدّة أبَدِيّه

يا ديارَ الأحـلام يا شـاطئَ الغـبـ ـطة يـا من يضُـمُّك المجـهـولُ؟
لمَ أعُـدْ أسـتطيعُ أن أُسكتَ الشَـوْ قَ فكيف الوصولُ؟ كيف الوصولُ؟

كل شىء حـولى يحـدّثُنى عَـنْـ ـك ولكن مـتى يَحِـينُ اللقـاءُ؟
فـاحـملينى إليكِ من قـبلِ أن يَهْـ ـوِى شِـراَعى وتـصـخَبَ الأنواءُ

ودعـينى أعـرفكِ مـا أنت؟ حقٌّ وعـيـانٌ وواقعٌ مـشـهـودُ؟
أم ترى أنـتِ مـحضُ وهـمٍ ورؤيا وضـبـابٌ مُطَلْسَمٌ ممدودُ؟

طالما حـدّثوا فـؤادىَ عن لُقْـ ـيـاكِ لكنْ مـا زلتِ حُلْمَ صـبىٍّ
لم أزلْ أمـلأُ الـليـالى حنيناً وأغنّيكِ لـلوجـودِ الشـقىِّ

ذكريات الطفولة

لم يَزَلْ مـجلسى على تلِّـىَ الرمْـ ـلىِّ يُصْـغى إلى أناشيـد أمسى
لم أزلْ طـفلةً سـوى أننى قـد زدْتُ جـهلاً بـكُنْهِ عُمْرى ونفسى

ليـتنى لم أزلْ كـمـا كنتُ قلبـاً ليس فـيـه إلا السَّنا والـنقـاءُ
كلّ يـومٍ أبنى حـيـاتى أحـلا مـاً وأنسى إذا أتانى المَسَـاءُ

فى ظلال النخـيلِ أبنى قـلاعـاً وقـصـوراً مَشـيـدةً فى الرِّمالِ
أسـفـاً يا حـيـاةُ أيـن رمـالى وقُصورى؟ وكيف ضاعتْ ظلالى؟

إيه تـلَّ الرمـال مـاذا تـرى أبـ ـقَـيْتَ لى من مـدينة الأحـلام؟
أينَ أبراجُـهـا العَلِيَّـات هل تا هتْ وراء الـزمـان فى أوهـامى؟

ذَهَبَ الأمـسُ لم أعُـدْ طفلةً ترْ قُبُ عشَّ العـصـفـور كلَّ صبـاحِ
لم أعُـدْ أُبْصـرُ الحـيـاة كـمـا كـا نتْ رحيـقـاً يذوبُ فى أقـداحى

لم أعُـدْ فى الشتـاء أرنو إلى الأمـ ـطارِ من مَـهْدى الجميلِ الصـغيرِ
لم أعُـدْ أعـشَقُ الحـمـامـةَ ان غنَّـ ـتْ وألهـو علـى ضِفَـافِ الغـديرِ

كم زهورٍ جَـمَّـعتُـهـا وعطورٍ سرقَـتْـهـا الحـيـاةُ لم تُبْق شـيّـا
كم تعـاليلَ صُـغـتُـهـا بدَّنْهـا وتبــقَّى تَـذْكـارُهَـا فى يَـدِيّا

كنتَ عَـرْشى بالأمسِ ياتـلِّىَ الرَّمْـ ـلىَّ والآنَ لم تَعُـدْ غـيـر تَلٍّ
كـان شـدوُ الطيـور رجْعَ أنـاشيـ ـدى وكـان الـنعـيمُ يتـبعُ ظِلّى

كـانَ هذا الوجـودُ مملكتى الكُبْـ ـرَى فـيـا ليـتـهـا تعـودُ إليّـا
ليت تلَّ الـرمـالِ يسـتـرجع الأسـ ـرارَ والشِـعْـرَ والجـمـالَ الطَرِيّا

لم أَعُـدْ أستطيعُ أن أحكُمَ الزَهْـ ـرَ وأرْعَى النجـومَ فى كلِّ ليلِ
هل أنا الآن غـيـر شـاعـرةٍ تُدْ ـركُ سـرَّ الكون الجـديبِ المُملِّ؟

ذهبَ الأمسُ والطُفـولةُ واعْـتَـضْـ ـتُ بحسِّى الرهيفِ عن لهو أمْسى
كل مـا فـى الوجـود يؤلمنى الآ نَ وهذى الحـيـاةُ تجـرحُ نفـسى

قـد تجلّـتْ لى الحـقـيـقـةُ طيـفـاً غـيـهـبـيّـاً فى مُـقْلَـتَـيْـه جنونُ
وتلاشـى حُلْمُ الـطفـولة فـى المـا ضـى ولـم يَـبـقَ منه إلا الحـنـينُ

أينَ لـونُ الأزهارِ؟ لـم أعُـــــد الآ ... نَ أرَى فى الأزهار غـيــر البَــوَارِ
كلّمــا أبـصــرتْ عـيــونىَ أزهـا ... راً تذكّـــــرتُ قـــاطـفَ الأزهارِ

أين لحـنُ الطيـــور؟ لم يعُـــد الآ ... نَ اشتــيــاقـاً وفـرْقــةً فى فـؤادى
فـــالغنــاءُ اللذيذُ ضـــاعَ صَـــدَاهُ ... وانطـوى فى تذكــرٍ الصَــيّـــادِ

أينَ همْسُ النسيمِ؟ أشواقُـهُ السكْـ ... ـرَى انطفَتْ لم تَعُـدْ تُثيـرُ خيـالى
فــغــداً يهـــمسُ النســيـمُ بمَوْتى ... فى عـمـيقِ الـهُـوَى وفـوق التـلالِ

أينَ منـى مـفـــاتـنُ الليلِ، شـعْــرٌ ... وغـمـوضٌ فى غـيهبٍ مَـسْـحـور
لم أعُــدْ أعــشَقُ الظلامَ غــداً أهْـ ... ـوى عظامــاً تحت الظلام الكبـيـرِ

ها أنـا الآنَ تحت ظلٍّ من الـصَــفْـ ... ـصاف والتينِ مُـسْـتَـطاب ظليلِ
أقطُفُ الزَهْر إن رَغِــبتُ وأجنى الـ ... ـثَمَرَ الحُلْوَ فى صباحى الجـمـيلِ

وغــــداً ترسـمُ الظلالُ علـى قَـــبْـ ... ـرى خطوطاً من الجـمـال الكئيبِ
وغـــداً من دمى غـــذاؤك يا صَـــفْـ ... ـصـــــافُ يـا تيـنُ أىُّ ثأرٍ رهـيب

ذاكَ دأبُ الحـيـاة تسلبُ مـا تُعْـ   ـطيـه بُخْـلاً لا كـان مـا تُعْطيـه
تتـقـاضى الإحـيـاءَ قـيـمةَ عيشٍ   ضـمَّـهمْ مـن شـقـائه ألفُ تيـهِ

هى هذى الحـيـاةُ سـاقـيـةُ السُمِّ   كـؤوسـاً يـطفـو عليـهـا الرحيقُ
أومـأتْ للعِطَاشِ فـاغـتـرفـوا منـ   ـهـا ومـن ذاقَـهـا فليسَ يُفـيقُ

هى هذى الحـيـاةُ زارعـة الأشـ   ـواكِ لا الزهرِ والدُجَى لا الضياءَ
هى نـبْعُ الآثام تسـتلـهمُ الشـرَّ   وتحـيـا فى الأرضِ لا فى السَّمـاءِ

آدم وفردوسه

حسبُها أنّنا دفَعنا إليها ثمنَ العيشِ حَيْرةً ودموعا
أيّ ذنبٍ جَناهُ آدمُ حتى نتلقّى العقابَ نحنُ جميعا؟

وليكن آدمٌ جَنَى حسبُهُ فُقْـ ـدانُ فردوسه الجميل عقابا
أوَ لم يَكْفِ أنّهُ هبط الأر ضَ ليُسْقَى آلامَهَا أكوابا؟

أو لم يكف أنهُ هبط الدُنْـ ـيا طريداً من خُلْده الفَيْنَانِ
أو لم يكفِ أنّهُ عرَفَ الشرَّ وقد كانَ طاهراً فى الجِنَانِ؟

ليت شعرى ماذا يَرُوقُ لعَيْنَيْـ ـه هُنا فى انغلاقِ هذا الوجودِ؟
كيف ينسَى آفاقَ جنّتِه ما ذا يغذّى حنينَهُ للخلودِ؟

كيف ينسَى الأمسَ الطليق ليَهْنا بحياة القيود والأرسْانِ؟
أين ذاكَ الحسُّ الرهيفُ؟ هنا سجـ ـنٌ بليدٌ مغَلّفُ الجُدْرانِ

ولماذا يَنْسَى وهل فى الثرَى شيءٌ يعزِّى عن حُلْمه المَغْسُولِ؟
كلما لاذَ بالخيالِ تجلّى لأساهُ ما كان من قابيلِ

أوَ لَمْ تسمَعِ الحقولُ صَدَى صر خةِ هابيلَ حين خرَّ قتيلا؟
أوَ لَمْ يشهَدِ القطيعُ على الجا نى ألم يُبصرِ الدَمَ المطلولا؟

أينَ هابيلُ؟ أين وقْعُ خُطَى أغـ ـنامه فى الحقول والوديان؟
ليسَ منه إلا ضريحٌ كئيبٌ شادَهُ فى العَرَاءِ أوّلُ حانِ

وأتت ظلمةُ المساء على الحَقْـ ـلِ وعاد القطيعُ من دون راعِ
ليسَ إلا قابيلُ يمشى رهيبَ الـ ـخطوِ نهبَ الأفكارِ والأوجاعِ

يا لأحزان آدمٍ عندما أبـ ـصَرَ بابنَيْه قاتلاً وقتيلا
أيّها المُسْتطار لَن تردَعَ الأقـ ـدارَ حتى إذا بكيتَ طويلا

ما الذى تنفَعُ المدامعُ يا آ دمُ؟ هل تدفعُ القضاءَ المريرا؟
إن يكنْ من فقدْتَ أولَ مقتو لٍ على الأرضِ فهو ليس الأخيرا

إنّها لعنةٌ تَظَلُّ على العا لَمِ مَسْدولةَ الدُجى مُكْفَهِرّه
كلّما ذاقَ قَطرةً من نعيمٍ أعقبتْها من الأسى ألفُ قَطره

كلّما أسدَلَ الستارَ على حَرْ بٍ أطلّتْ حربٌ وجاءت رزَايا
رحمةً يا حياةُ حسبُكِ ما سا لَ على الأرضِ من دماء الضحايا

الحرب العالمية الثانية

انظرى، هل تَرَيْنَ غير بقايا ... ذلكَ العالَمِ الجميلِ الخصيبِ
هل تبقّى منهُ سوى دِمَنٍ جَدْ ... باءَ فى قَبْضةِ الدمّارِ الرّهيبِ

يا قصوراً بالأمسِ كانت هنا يضـ ... ـحَكُ من حولها نَدَىً واخضرارُ
أصبحَتْ مسكنَ الخرابِ وجفّتْ ... فى حماها العطورُ والأزهارُ

أينَ أهلوكِ يا قصورُ؟ وفى أيِّ ... قبورٍ ثوَوْا أتحتَ الثُلوجِ؟
أم ترى مزّقتْهمو قاذفاتُ الـ ... ـنارِ فى عاصفٍ رهيبِ الأجيجِ؟

أسَفاً يا قصورُ أهلُكِ ناموا ... فوقَ صدْرِ الثرَى عُراةَ الصُدورِ
رقدوا حاسرى العظامِ فلا قَبْـ ... ـرَ لهُمْ فى التُرابِ أو فى الشُعورِ

فى سفوحِ الجبالِ، تحت ذرى الأشـ ... ـجارِ خلفَ الضياءِ والظلماءِ
ليس غيرُ الموتى عظاماً وأشلاءً ... وغيرُ اكتئابةٍ وبكاءِ

يـ نشيدَ السّلامِ يا ساكناً فى ... قَعرِ أحلامنا وراءَ مُنَانا
رفَّ فوقَ الدُنْيا الحزينةِ وابعثْ ... لحنَ حُبٍّ فى تيهنا ودُجَانا

طُفْ بأنغامكَ النَشَاوَى على هَـ ـذى القُرَى المُسْتباحة المهدومه
بنداكَ الرحيمِ رطِّبْ شِفاهاً ظامئاتٍ أو جبهةً محمومه

طُفْ بأنقاضِ عالمٍ ليس يَدْرى أترى للدِّماء بَعْدُ بقيّه؟
راسفٌ فى الدُجى، ويَسمعُ بالفجـ ـرِ حديثاً وقِصَّةً مرويَّهْ

كانتِ الحَرْبُ يوم أشعلَها صو رةَ حُلْمٍ مُضَوَّأَ الأستارِ
غلّفوها له بومضٍ بريقٍ من سَنَا المَجْدِ والرؤى والفَخَارِ

فإذا نبعُها دمٌ وشَذَاها لَهَبٌ آكلُ اللَظَى وهَجيرُ
وإذا مجدُها شَقاءٌ طويلٌ ليس ينجابُ ليلُهُ المحرورُ

جفَّ زهرُ التلال والوَرَقُ النَضْـ ـرُ وآوَتْ إلى الجَفاف الحقولُ
أسفاً لم تَدَعْ لنا الحربُ شيئاً وتلاشى الحُلْمُ الطَروبُ الجميلُ

من ترى يحرُثُ الحقولَ الجديبا تِ؟ وأين اختفتْ أغانى الحَصَادِ
أين لَهوُ الأطفالِ عند البحيرا تِ النَشَاوَى فى بهجةِ الأعيادِ؟

يا قلوب أطفالٍ لا تخفقى الآ نَ حنيناً لن يَرْجِعَ الآباءُ
ذلك الحُلمُ فى مآقيكمُ الولـ ـهى طوتْهُ المنيَّةُ السوداءُ

وبقـــايا الآبـاء نهبَ غُـبــــار الـ أرضِ صمّاءُ شـاخصـاتُ العيـونِ
أيُّ مـعنىً فى هذه الأعْــيُنِ الغَــرْ قَى، من الصمتِ والذُهولِ الحزينِ؟

كلُّ عـينينِ فـيـهـمـا صـورةٌ تبـ ـكى وترثى لـلعـــالَم المغــرورِ
كل عـــينينِ تسـخــرانِ من العَـيْـ ـشِ وتـســتــهـــزآنِ بالمقـــدورِ

كلُّ عـــينيـنِ تنظرانِ إلـى الأفْـ ـقِ بعـيـداً عـن كلِّ مـا فى الحـيـاةِ
آهِ يـا ربِّ، آهِ لو فَــــــهِمَ الأحـ ـيــاءُ مــاذا فى أعـيُنِ الأمــواتِ

يا فـتـاةَ الأحـلامِ حــسبُكِ شـدواً برثاء الـقَـتْلَى وحـســبُكِ حُـزْنا
سوف يَفْنَـى هذا النشيدُ ويَـبْقَى الـ شـرُّ فى الأرض خـالداً لـيس يَفْنَى

هكـذا شــاءت المقــاديـرُ للعـــا لَم إثـمٌ ونقـــمـــة وحـــروبُ
وهى النفسُ تحملُ الشرَّ والبـغضاءَ مـــاذا يُفـيـــدُها التـهـــذيبُ؟

وأغــانى الســـلام كم قــد وهـبنا ها قـلوبـاً وألسُناً وشـــفَـــاها
فطَـوَاها الفــضــاءُ وابـتلعَ النِسْـ ـيــانُ ألحـــانَهـا وضـــاعَ صـــداها

كيف ينجو الوجودُ إن كان فى الإنـ ـسـان عـــرقٌ من الشـرور عـــريقُ
كـيف يَشْفى مـن الأسَى يا مقـاديـ ـرُ؟ مـتـى فـجـرُهُ السـنىُّ الوريقُ؟

مـا الذى رامَهُ المسيحُ لكى يُجْـ ـزَى بما كـانَ؟ مـا الذى كـانَ منه؟
أيّهـا العـالمُ الـذى اقتـرفَ الذنْـ ـبَ أمـا آنَ ان تُكَفِّـر عَنهُ؟

أو لم يَشْبعِ الوجـودُ من الحُـزْ نِ أمـا زال ظامـئـاً للدِّمـاء؟
أومـا فـى كـاسـاتِهِ غيـر ملحِ الـ ـدمعِ للجائعـينَ والأشـقـيـاء؟

أيهـا الكونُ يا جَنَاحـاً مُـدَمَّىً حطَّمتْـهُ مقـادرٌ ومَنَايا
ليكن من فـقـدتَ فى هذه الحَـرْ بِ ختـامَ الذينَ مـاتوا ضحـايا

نَهَمُ الـقـتلِ فـى عُـروقك قـد آ نَ لـه أن ينـامَ أن تَنْسَـاهُ
فـالتجىءْ للسمـاءِ حيثُ المُنَى والـ ـرىُّ حيثُ الضيـاءُ حيثُ اللهُ

ذلكَ المنبعُ الأثيـرىُّ مـا أعـ ـذبَ كـاسـاته لمن يُسْقَـاها
لم يـزل فى انتظارِ دنيـاً تـرامتْ فى دروبِ الدُجَى فـضـلّتْ خُطَاها

أيُّهـا التـائهـونَ تحـجبُ أبصـا رَهُمُ ظُلْمةٌ وألفُ سـتـارِ
احـملوا نادمـينَ أشـلاءَ قَـتْـلا كُمْ وغنُّوا لـهـا نشـيـدَ اعتـذارِ

ضمّخوها بالـعِطْر لقّوا بقـايا ها بزَهْر الـليـمـونِ واليـاسمـينِ
احـملوا الميّـتينَ فى نعشِ موسيـ ـقىً وحبٍّ وعِطر دمعٍ سخـينِ

واجمعوا الصبية الصغار ليُلقوا   أغنيات فجرية الأنغامِ
وليكن آخرُ اللحون التى تُلـ   ـقَى على سمعهم نشيدُ السَّلامِ

فيم هذا الصراعُ؟ فيم الدماءُ الـ   ـحُمْرُ تجرى على الثرَى العطشانِ
والشبابُ البرىءُ فى زهرة العُمـ   ـرِ لماذا يُلقَى إلى النيرانِ

فى سبيل الثرَاء هذا؟ أليس الضـ   ـوءُ والحبُّ والورودُ ثَراءَ
وليالى السلامِ والأمْنِ هل فى الـ   ـعُمْرِ أغلى منها وأحلى ضياءَ؟

وغداً رحلةٌ إلى الأُفُق المجـ   ـهول، نحو السكون والنسيانِ
وغداً رحلةٌ فهل يدفع الأمـ   ـواتُ بالمالِ وحْشةَ الأكفانِ؟

إنّه الموتُ ذلك الواهبُ العا   دلُ مُلقى الهمود فى كل قبرِ
ومُريقُ الفناء فى كلِّ خدٍّ   وذراعٍ وكلِّ نحرٍ وصدْرِ

فلماذا إذن مَشى العالَمُ المجـ   ـنونُ للموت والأذَى والدمَّارِ
فيم تحدو الشعوبَ أطماعُ غرٍّ   يتصبَّى عينَيْه وهْجُ النّارِ

أعن النصر يبحثونَ؟ وهل نصـ   ـرٌ لمن تستذلُّهُ الأهواءُ
هل فَخارٌ وحولنا عالَمٌ يمـ   ـلؤهُ الجائعونَ والأشقياءُ؟

نحنُ أســرى يقـودُنا القَــدَرُ الأعـ ـمى إلـى ليلِ عــالمٍ مــجـهــولِ
وسنيـنُ الحـيــاةِ نومٌ ونصـحـو ذاتَ يومٍ عـلـى نـداءِ الرَّحـــيـلِ

وطبـولُ النَصْـر العظيم غــداً تَفْـ ـنَى وتغـفـو فى قبـرهـا المقـدورِ
وتُضَـــيعُ الرِّيـاحُ فى أُفُقِ الـعـــا لَمِ ذكـــرى المنصـور والمـدحـورِ

وصحـا العالَمُ العـميقُ الأسى وانـ ـتـهت الحـربُ بانتــصـار المنايا
شَـهِـدت هذه الـقـبــورُ لهــا بالـ ـنصـرِ يا رحـمتـا لتلكَ الضـحـايا

ثم مــاذا يـا ســاكنى العـــالم المو جـوعِ مـأذا مـن القـتـالِ جنينا؟
هل وصلنـا إلى النجـوم الحـوالى ولَمَــسْنا أســرارَها بيَــديْنا؟

هل غلبنـا الشـقـاءَ والفـقْـرَ فى أر جـاء هذا الكون الطـعـين الذليلِ؟
والصِـغـارُ العُـراةُ هل وجـدوا مـأ وىً ودفـئـاً عبـر الشـتـاءِ الطويلِ؟

والأذى والشـرورُ هل دَحَـرَتْهـا الـ ـحَرْبُ يا من حـمَّلتـمـونا لظاها؟
أسَـفاً لـم يَزَلْ على الأرض من يَتّـ ـخـــذُ الـكأسَ والمجـــونَ إلهـــا

لم تَـزَل فى الوجـــود أغنيــةٌ تَـقْـ ـطُرُ حـزناً على شـفــاهِ جيــاعِ
فى هُتَــافـاتِ لاجـئـين رمـتْـهم محـنةُ الحَرْب للضَنَى والضِـيـاعِ

كل شيء باق كما كان قبل الـ ـحرب غير الأيتام والأموات
غير ظلٍّ من الكآبة والحَيْـ ـرة يمشي على ضفافِ الحياةِ

هؤلاء الأيتام بالأمس كانوا صورةَ البِشْر والمراحِ الجميلِ
تحت ظلِّ الآباءِ يقضُون عَيْشاً ما درَوْا غير صفوِهِ المَغْسولِ

وأفاقوا من حُلمهم فإذا الآ مالُ حربٌ والذكريات دُخانُ
يا عيونَ الأطفالِ لا تسألي الدنـ ـيا فقد مات في القلوبِ الحَنانُ

في سبيل المجدِ المزيَّف هذا الـ ـهولُ لا كان مجدُهمْ لا كانا
في سبيل النصرِ المموَّه عاد الـ ـعالَمُ الحُلْوُ في اللهيبِ دخانا

هؤلاء الصرْعَى على الشوك والصخـ ـرِ شباباً وصِبيةً وكهولا
كيف كانوا بالأمس؟ أيّةُ رؤيا رسموها فلم تعشْ طويلا؟

أيها الأشقياءُ في الأرضِ يا من لم تُمِتْهم قذائفُ النيرانِ
عَبَثاً تأملونَ أن يرجعَ الآ نَ أعزّاؤكم إلى الأوطانِ

انظروا ها هم الجنود يعودو نَ فرادَى مُهشّمي الأعضاءِ
آهِ لولا بقيّةٌ من حياةٍ لم يُعَدُّوا في جملةِ الأحياءِ

عــبـثــاً يبـحــثــون في هذه الأنــ ـقــاضِ عن أهلهم وعن مــأواهُمْ
عــبـثــاً يســألون مــا يعلم العــا بر شــيــئــاً فــيــا لنار أســاهُمْ

كـيـف ذاقـوا مـرارةَ الخـيـبـةِ المُرَّ ةِ بعــد العــذابِ والأوصــابِ؟
أتراهـم نجــوا من الموتِ كي يحـ ـيــوا بلا رفــقــةٍ ولا أحبــابِ؟

أينَ تلكَ البـيوتُ يلمعُ فـيهـا الضـ ـوءُ والحبُّ أيـن مـن سـكنـوهـا؟
أين أطـفــالُـهم ورجْـعُ أغـــانـيـ ـهِمْ وتلـكَ المُنى التى صَــوَّروها؟

أيهــا الأشــقـيــاءُ يا زُمَــر الأحـ ـيــاء في كـل قـرية وصـعـيــد
آن أن نســتــعــيــدَ مــاضيَ حبٍّ هو مــفــتـــاحُ حُلْمِنا المفــقــودِ

مـا الذى بيـننا من الحـقْـد والبـغـ ـضـاء؟ مـا كان سـر هذا الدَمَـارِ؟
أيهـا الأشــقـيـاءُ نحن جـمــيـعـاً لعــبـــةٌ في مــخـــالبِ الأقــدارِ

نحنُ نحـيـا في عـالـمٍ ليس يُدْرَى سـرهُ فــهـو غـيـهـبٌ مـجـهـولُ
تطلَعُ الـشـمسُ كل يومٍ فـمــا كُنـ ـهُ سنـاهـا؟ وفـيـمَ كـان الأفــولُ؟

مـا الذى يُطْلع النـجـومَ على الكو ن مــســاءً مــا كُنْهُ هذا الوجــود؟
أيُّ شيءٍ هذا الفـضــاءُ؟ ومـا سرُّ دجــاهُ؟ هل خلـقَــهُ من حُــدودِ؟

يا ضـبـابًا من الجَـهَـالة والحَـيْـ   ـرة قـد لـقّـبـوهُ بالإنسـان
كل مـا فى الوجـود يـحكمُـهُ مـا   ذا إذنْ سـرٌّ ذلكَ الطُغْـيانِ؟

فيمَ نَطْغَى وكـيف ننسَى قوى الكَوْ   نِ ومـا فى الوجـود أضـعـفُ منّا
ينخـرُ الدودُ مـا نَشـيـدُ ولا تُبـ   ـقى البـراكـينُ والرياحُ علينا

فـيم نقـضى حـياتنا فى العـداوا   ت ونُمضى السنينَ يأسـاً وحُزْنا
كـيف ننسَى أنّا نعيشُ حـياةَ الـ   ـوَرْدِ سُرْعـانَ مـا يمـوتُ ونَفْنَى

لن تـدومَ الأيامُ لن تَحْـفط الـدنـ   ـيـا كـيـاناً لكائنٍ بشـريٍّ
فلـنَدَعْ هذه الضـغـائـنَ والأحـ   ـقـادَ ولنَحْـيَـا للوداد النقيّ

البحث عن السعادة

كم بَحثْنا عن السعادة لكن ... ما عَثَرْنا بكوخها المَسْحورِ
أبداً نسألُ الليالىَ عنها ... وهى سرُّ الدُنْيا ولُغزُ الدُهورِ

طالما حدّثوا فؤادىَ عَنْها ... فى ليالى طفولتى وصبَايا
طالما صوّروا لعينىَّ لُقْيا ... ها وألقَوْا أنباءَها فى رؤايا

فهى آنا ربيبةُ اليُسْر والثرْ ... وة بنتُ الألوان والأضواءِ
ليس تحيا إلا على باب قَصْر ... شَيّدتْهُ أيدى الغِنَى والرَّخاءِ

وهى آناً فى الزُهْد عن مُتَعِ الدنـ ... ـيا وعنْد النُسَّاكِ والرُّهبانِ
ليس تحيا إلاّ على صَخَرِ المَعْـ ... ـبدِ بين الدُعَاءِ والإيمانِ

وهى فى شَرْع بعضِهم مِلْكُ من يُطْـ ... ـلِقُ أهواءَ قلبه دون قيدِ
ليس تصفو إلا لمن عاشَ للكأ ... سِ وللّهو بين ثَغْرِ وخَدٍّ

وهى فى شرع آخرينَ لراعٍ ... يصرفُ العُمْر فى سُفُوح الجبالِ
يتغنّى مع القطيعِ إذا شاء ... ويغفو تحت الشَذَى والظِلالِ

وهى فى شَرْعِ غيرهم فى حِمَى العُزْ لة والفنِّ والجمالِ الرفيعِ
ليس تحيا إلا على فم غِرِّيـ ـدٍ يُغنّى أو شاعرٍ مَطْبوعِ

وسواهم يَرَى السعادةَ فى الحبِّ وفى أغنياتِ كلِّ مُحِبّ
ليس تحيا إلاَّ على شَفَةِ العا شقِ لحناً من الوداد العذْبِ

حدثونى عنها كثيراً ولكن لم أجدْها وقد بحثتُ طويلا
لم أزل أصرفُ الليالى بَحثاً وأغنّى بها الوجودَ الجميلا

مرَّ عمرى سدًى وما زلتُ أمشى فوق هذى الشواطئ المحزونه
لم أجدْ فى الرمالِ إلا بقايا الشـ ـشوكِ يا للأُمنيّةِ المغبونَهْ

أينَ أصدافُكَ اللوامعُ يا شطُّ إذنْ؟ أين كنزُكَ الموعودُ؟
هاتِهِ رحمةً بنا هاتِ كنزاً هو ما يرتجيه هذا الوجودُ

هاته حسبُ رملكَ البارد القا سى خداعاً لنا وحسبُكَ هُزْءا
يا لَحُلْمٍ نزيدُ منه اقتراباً وهو مازال أيها الشطُّ يَنْأَى

طال بـحـــثـى يا ربّ أيـنَ ترى ذا　　　كَ السـعـيـدُ الجـذلانُ أين تراهُ؟

ليسَ حــولى إلا ديـاجـيـرُ كــونٍ　　　مـــغـــرقٍ فى نُـواحِـــهِ وأسَــــاهُ

لم أجــدْ فى الرمــالِ إلا بقــايا الـ　　　ـموت مـن أعصُـرٍ طوال دفـيـنه

كلُّ جـيـلٍ يعـيشُ يحلـمُ حـتّى　　　يُطْفئَ الموتُ قلبَـــهُ وعُــيُـــونَهْ

عـــالم يَـنْشُـدُ السَـعَــادةَ والأيّـ　　　ـامُ تَسْـقـيـه غُـصَّة بعـد غُـصَّه

كلَّمـــا ضجَّ شــاكـيــاً أمّلـتْـهُ　　　مُـــقَلٌ عـــذبةٌ وأيدٍ رخْـــصــه

إيه أسـطورة الـســعـــادة غنّيـ　　　ـنى نشـيـداً عن أفْـقك المفــقـودِ

أين ألقـــاكِ؟ أين مــسكنُـكِ المَسْـ　　　ـحُورُ؟ فى المستحيلِ أم فى الوجود؟

سرتُ وحدى تحتَ النجوم عصوراً　　　أســألُ الليلَ والدياجـيــرَ عنك

أسَفاً لم أجـدْكِ فى الشاطئِ الصَخْـ　　　ـرىِّ حـيـثُ المـيــاهْ تَفْـتــأُ تـبكى

حيثُ تبْـقَى الأشواكُ والوردُ يَذْوى　　　تحت عـــينِ الأيّـامِ والأقـــدارِ

حـيثُ يَفْـنَى الضـيـاءُ والليلُ يأتى　　　بـوعـــيـــدِ الريـاحِ والأمطـارِ

حـيثُ تحيـا الأغنامُ جـائعـةً لا عُـشْبَ لا ريَّ في المراعى البـخيله
وغــداً في الصـبــاح تنتظـرُ السكِّـ ـينُ أعناقَــهـا العِـجَـافَ النـحيله

حـيثُ يحـيـا الغُـرابُ والـبلبلُ المو هوبُ يَهْـوى من عُـشِّـه المضـفـورِ
ويغنّـى البــومُ البـليــدُ عـلى الدَّوْ ح ويَشْـوى القُـمْرىُّ بين الـصُخـور

حـيثُ تبـقى الغيـومُ مُـمْطرةَ الأهـ ـداب رمــــزاً لدمــــعنا وبُكَـانا
وتَظَلُّ الـريِّاحُ تصــفـرُ سُــخْــريَـ ـتَـــــهَــــا مـن أهوائـنا ومُـنَـانـا

أنشودة الرياح

-١-

أيها السادرونْ ... ما الذى تَنْشُدونْ؟
ملءَ هذا المَدَى ... فى الدُجَى حالمونْ
كم رَسَمْتم منّى ... أطفأتْها القرونْ
وأغانيكمو ... كم طواها السكونْ

تذرعون الذُرى ... تقطعونَ القفارْ
تحت سمع الدُجَى ... وعيونِ النَهارْ
تُطعمونَ الرؤى ... بالدموع الغزارْ
إنّ دونَ المُنَى ... ألفَ ألف ستارْ

وأمانيكمو ... طيفُ حبٍّ نَفُورْ
أتظنّونها ... فى زوايا القصورْ؟
دونَكمْ فابحثوا ... فى حرير السُّتورْ
وأنا للمَدَى ... كلُّ عُمْرى مرورْ

بين القصور

سرتُ وحدى بين القصور طويلاً　　أسألُ العابرينَ أين السعيدُ؟
فإذا بهجةُ القُصور ستارٌ　　يختفى خلفَهُ الظلامُ المديدُ

إنّ فيها أغانياً ذابلات　　وصلاةً حزينة النَبَرات
وعُيوناً مملوءةً حَيْرَةً تَسْـ　　ـتفهمُ اللُغْزَ فى ضباب الحياةِ

شبعوا وارتووا وما شَبِعت أر　　واحُهم وارتوتْ وباتوا حَيارَى
إن جوع النفس المُنَعّمةِ النَشْـ　　ـوى إلى حُلمها أشدُّ استعارا

ليس يُنْجيهمو الغِنى من يد الحُزْ　　ن وإن طاولوا الذُرَى بالغرورِ
ولهم موتُهُم ومأساتُهُ المُغْـ　　لَقَةُ السرِّ مثلَ ما للفقيرِ

كم وراءَ القصور من أغنيات　　أخرستْها عواصفُ المقدورِ
كم قلوبٍ تَوَدُّ أن تُبْدلَ القصـ　　ـرَ بكوخٍ على ضفافِ الغديرِ

ليس يُنْجى الحريرُ من عُمْقِ هذا الـ　　ـلغْزِ لغزِ المصيرِ لُغْزِ البدايه
هل يبيعُ الفضاءُ أسرارَهُ بالـ　　ـمالِ هل تُشْتَرَى به اللانهاية؟

وعــبـرنا الـقُـصــورَ لم نجـد المنـ ـشـودَ فى ضـوئهـا ولا فى دُجـاها
فــهى خلوٌ من المـعـانى ومـا فــيـ ـهـا سـوى المال والحـرير إلهـا

أقـفرتْ من سـعـادة الروح من مُنـ ـطَلَـقِ الفكْر فـى مَــدَى الأزمــانِ
وسَــرَى المَحْلُ فى أزهارها الـظَمْـ ـأى إلى اللون والـشـذَى والمَعـانى

غَـرقـوا فى الضـيـاء والـعطر لكنْ ليس فــيـهم قلبٌ يحس الضـوءا
وتمرُّ أنـهـــارُ فى أرضــــهم تـسـ ـقى شـفـاهاً وتتـركُ الروحَ ظمـأى

تلك إغـفـاءةُ القـصـور يمـوتُ الـ ـحسُّ والشـعْرُ فى حَمـاها الضَنينِ
آهِ فلـنمضِ بـاحـــثـيـنَ لعـلَّ الـ ـكـونَ يُفْـضى بسـرِّه المَكْنونِ

أنشودة الرياح

-٢-

كلُّ عُمْرِى سُرَى ... فى الوجودِ الجميلْ
فى الصباحِ النَدى ... والظلامِ الثقيلْ
فوق سَرْوِ الذُرَى ... فوق حقلِ النخيلْ
أنا أمضى أنا ... كلُّ عمرى رحيلْ

وشهِدتُ هنا ... ألفَ جيلٍ وجيلْ
وُلِدوا وانطووا ... فى التُرابِ للَهيلْ
ضَحِكوا أو بكَواْ ... فى الضُحَى والأصيلْ
ما لهمْ مهربٌ ... من رُقَادٍ طويلْ

وسمعتُ هُنا ... كلَّ جيلٍ يقولْ:
«فى يدى منبعٌ ... خالدٌ لا يزولْ»
وأناشيدُهمْ ... قد طَوَاها الذبولْ
ومبانيهمو ... جَرَفَتْها السُّيولْ

أقـــبلى أقـــبلى فـــتـــاةَ النشـــيـــدْ
وابحـــثى بينهم عن فـــؤاد ســـعـــيـــدْ
كـــلَّ يـــومٍ لـــنـــا منـــكِ حُـلْـمٌ جـــديـــدْ
وأنـــا مـــا أنـــا غـــيـــر ســـيـــرِ أبيـــدْ

ومَـــضى بحـــثـــهـــا عن ديـارِ النـــعـــيـــمْ
لم يَـزَلْ قـلـبُـــهـــا فى المَـراقى يـهـــيـــمْ
الـقـــصـــورُ طوت حُـلـمَـــهـــا المســـتـــديمْ
فـــانتـــهى ســـيـــرُها عـــنـد ديـرٍ قـــديـــمْ

فى دنيا الرهبان

سِرْ بنا يا طريقُ نحو حِمَى الديـ ـرِ فقد نلتقى الرِّضَى والأمْنَا
فلعلَّ الرُّهبانَ قد أدركوا السرّ المعمّى الخافى الذى نتمنَّى

هؤلاءِ الزُّهّادُ فى القُنَّة الخضـ ـراء حيثُ الحياةُ صَمْتٌ مديدُ
ربما كاشَفَتْهمُ الأنجُمُ العُلْـ ـيا بأسرارها وباحَ الخلودُ

مرحباً يا رهبانُ هل فى حِماكم من حديثٍ عن كنزنا المفقودِ؟
هل لمستمْ بريقَهُ وشذاهُ؟ هل نعمتم بظِلِّه الممدودِ؟

إنّ فى أفْقكمْ جلالاً وشِعْراً وسكوناً مُطَلْسَمَ الأستارِ
وصلاةً للّه تقطرُ حبّاً طهّرتها يدُ الدموعِ الغزارِ

فلمَ الحزْنُ والشحوبُ يُطلاّ نِ لديكمْ من أعينٍ وشفاهِ؟
يُلْقيانِ الظِلالَ فوقَ وجوهٍ صامتاتِ المَرْأى خَواءِ الجباهِ؟

ووراءَ الأهدابِ أستارُ حزنٍ وذهولٍ ووحشةٍ لا تنَامُ
إن يكنْ ديرُكُم عَذاباً وهمّاً أيُّها الراهبونَ فيمَ المُقَامُ؟

لم أجدْ في الصوامع الرّثة الحَيْـ ـرَى عُلواً ولم أجدْ آفاقا
إنّ هذا الجَنَاحَ يا ديرُ مقصو صٌ فلن يستطيعَ قطُّ انطلاقا

أثقلتْهُ رغائبٌ ثرّةٌ حَرّ ى تبقَّتْ من أمسه المدفونِ
واشتياقٌ إلى الطُّفولة والحبِّ إلى ضَمّةٍ وصَدْرٍ حنونِ

أيُّها الراهب الذى يقطَعُ العُمْـ ـر وحيداً فى غُرْفة منسيّه
ليس يدرى دفْءَ المودّة فى عيـ ـنينِ فى قَرٍّ لَيلةٍ شِتْويّه

حدّثونى عنكم فقالوا: قلوبٌ نُسِجتْ من وداعةٍ ونَقَاءِ
ونفوسٌ صيغت من الضوء والعِطْـ ـرِ وحامتْ على شِفَاهِ السَمَاءِ

وحَكَوْا لى عنكم فقالوا: ضياءٌ وكؤوسٌ من الشَذَى روحيّه
وسُمُوٌ إلى الذُرَى الطاهرات الـ ـبيضِ فوق الرغائبِ البَشَريّه

عَجباً أين ما سمعتُ؟ هنا شَوْ قٌ ونارٌ وأعينٌ مَفتونهْ
وهوىً قيّدوه عطشانَ محرو راً فأين السلامُ؟ أين السكينه؟

واسْمُ (تاييس) لم يَزَلْ فى شفاه الـ ـريحِ يُتْلى على الوجود اللاهى
رمزَ قلبٍ ممزَّقٍ بين صَوْتَيْـ ـنِ: نداءِ الهوى وصوتِ اللهِ

مـا نَسـينا غَـوَايةَ الراهـبِ المُفْـ ـتونِ فـى حبِّهـا وكـيفَ هَدَاها
يا لـه بائسـاً سـمـا بابنـةِ الإثـ ـمِ إلى قـمَّـةِ السـمـاءِ وتاها

أيّهـا الديرُ يـا جـديبـاً من الحبِّ خـواءً مـن النَدَى والـحنـانِ
يا غريقاً فى الصمتِ والوحشة الصَمَّـ ـاءِ يا مُـقْـفِـرَ الرؤى والأمـانى

حـانَ عن صمـتكَ الكئيبِ رحـيلى فـدروبُ الحـيـاةِ خـضـراءُ حيّـه
وذراعُ الوجـودِ يـفـرشُ لى درْ باً من الخِـصْبِ والظلالِ الـثـريّه

وسـألقـى ربّى هنـاكَ بعـيـداً عن ديـاجـيكَ إنَّ ربّـى ضـيـاءُ
وطريقـى يمـتـدُّ حـيثُ يـدُ اللـ ـهِ جـمـالٌ ورحـمـةٌ وارتواءُ

أنشودة الرياح

-٣-

طال تَجْوالُها — في الفجاحِ الفِساحْ
في مُرورِ الدُجَى — وانطواءِ الصَباح
في تَلاَشي النَدَى — وضياع الرياحْ
إن احلاَمها — ملّكتْها جَنَاحْ

كلّما ضيَّعتْ — في الدياجي رجاءْ
فتّحتْ قلبَهَا — للشَذَى والضياءْ
إنّ في روحها — ودماها نداءْ
لارتقاء الذُرَى — وبُلُوغِ السماءْ

يا فتاةَ الرؤى — ما أحبَّ الوصولْ
حيث يمضي الأسَى — والضَبابُ يزولْ
غير أنّ السُّرَى — في جديبِ طُلولْ
والمَدَى شاسعٌ — والديارُ مُحولْ

مــــــا وجـــــدتِ المُنَى فى حــــمى الرهْبـــــانْ
عـــــالمٌ مُــــغلَقٌ قـــــاتم الجُــــــدْرانْ
وأطـــــلٌ عـــــلـــى طرفك الحـــيـــــرانْ
شـــــاطئ أخـــــضـــرٌ مُــــبْــــرقُ الغُــــدْرانْ

إنّــه شــــــــــاطئٌ غـــــامضٌ لا يَبِـــيـــنْ
واعـــــــدٌ بـالسَّنـا كلّ قـلـبٍ حـــــــزيـنْ
وهـــبــطـــتِ إلـــى أرضـــه تَبـــحـــثـيـنْ
أســـــفــــاً إنّـه شـــاطئُ العــابثـيــنْ

فـى دنيـا الأشـرار

عند شطِّ الحيـاة ألـقيتُ مَـرْسَى ... زورقى فى الـضـبـاب والأوهامِ

أرقبُ السائرينَ فى الشاطئ الصَخْـ ... ـرىِّ بيـن الـوهـاد والآكـــامِ

أينَ ألقـاكِ يـا سـعـادةُ؟ هل من ... نبـأ عن حـمَـاكِ يَهْدى الحَيَـارَى؟

كلَّمـا قلتُ هـذه دارُهَا امـتـدّ ... تْ قـفـارٌ لاتنتـهى وصَحَـارَى

فـى ديار الأشـرارِ نـحنُ نـزلنـا ... بين أشـواكـهـا وحـزّ حَـصَـاهـا

ربَّمـا كـان فى جـداولهـا الفظّ ... ـةِ كـأسٌ يَرْوى المُنَى والشـفَـاهـا

ونزلنـا فى أرضـهـا ورَحَلْنا ... عن دُجَـاها وحرِّها مُسْـرِعـينا

لم يَزَلْ طـعْمُ مـائهـا المرِّ يـحيـا ... فى رؤانـا يَفـيضُ مِلْحـاً وطينا

الطُّغـاةُ الْمُلوِّثـو الروحِ فـيـهـا ... لم نَجِـدْ فى عـيـونهـم من نورِ

فَـقَـدوا الحبَّ والسَّـلامَ ونامـوا ... فـوقَ شـوكِ من الـعـذابِ المريرِ

فـإذا أسكتـوا تَـظلُّـمَ مظلو ... مٍ فهل يُسْكتون صوتَ الضميرِ؟

ذلكَ الـراقبُ الإلـهىُّ فـى النَفْـ ... ـسِ لسانُ الهُدَى وصوتُ الشعُورِ

لم يَزَلْ ســاهراً يُـراقبُ فى صَـمْـ ... ـت خُـطاهـم فلـيسَ مـنه هـروبُ
أبداً يـرقُبُ الحـيــاةَ وفى عــيــ ... ـنيـهِ ســر عـاتٍ ومـعنـىً رهيبُ

فــإذا حــادت القلـوبُ عن الخـيـ ... ـرِ عَــلاَ صـوتُ ذلكَ الجــبَّــارِ
إنّهُ الـناقمُ الـنبــيـلُ على الـشــرِّ ... وقــاضـى الطُغـــاةِ والأشـــرارِ

كيف ينجو الأشـرارُ من شقوة الرُّو ... حِ وسـوطُ الضـمـيـرِ بالمِرْصــادِ
لا مــلاذٌ مـن حــاكم يمـلكُ الرو ... حَ بما فى كـفَّــيْــهِ من أصــفــادِ

ولصـوصٌ فى هـذه الدار عـاشُـوا ... يسـرقـونَ الحـيـاةَ والأشـيــاءَ
يسـرقـون الجَـمـالَ والحبَّ والُخبْـ ... ـزَ جـمـيـعـاً ويسـرقـون الضـيـاءَ

وأكفٌ تمـتــدُّ تـســرِقُ قـــرطاً ... وســـــواراً وخــــاتماً لمّـاعـــا
وأكـفٌ لاتــرتـوى دون أن تَـسْـ ... ـرقَ خـداً ومـعــصـمــاً وذراعـا

ونفــوسٌ وضـيـعـةٌ تسلبُ الـعـا ... برَ حُـلْمـاً أو رغـبــةً أو قلبــا
ونفـــوسٌ أحطُّ تؤمـنُ بالعـــفّـ ... ـةِ والعـدْلِ ثم تـسـرِقُ شَـعْـبـا

هل يعيشُ الضياءُ فى هذه الجُدْ رانِ حيثُ الأقبِاءُ حيث الزَوَايا
فى عيونٍ مزيّفاتٍ تُغَذّيـ ـهـا رغابٌ دنيئةٌ ونوايا

عالمٌ مُقفر من الحُبِّ والدِّفْء تعيشُ النفوسُ فيه خواءَ
نُزِعَتْ من فضائه لمَسةُ اللـ ـهِ فأبقتْ أذلّةً أشقياءَ

يا نشيدَ الرياح خذنا مع اللَحْـ ـنِ إلى عالمٍ أرقَّ وأغلى
كلّما لامستْهُ أقدامُنا افترَّ وفاضتْ أنداؤه واخضلاّ

أنشودة الرياح

-٤-

انبسطْ يا مَدَى | واختفى يا حدودْ
إن أقدامها | شردت فى الوجود
كلَّما صعَّدَتْ | فى الذُرَى والنجودْ
قابلتها ذرى | ومَضَتْ فى صعود

إنها رحلةُ | فى طريق الحياة
بحثَتْ عن دُنَىً | تتحدّى المماتْ
كلَّما أبصرت | رَمّةً فى فلاة
جدّدتْ عزْمَها | بنَدَى الأغنياتْ

يا فتاةَ الرؤى | والفؤاد الرهيفْ
خاطبتْكِ الدُنَى | فى الظلامِ الكثيفْ:
«أنصتى تَسْمعى | فى السكونِ حفيفْ
وانظرى تُبصرى | أنَّ جدْبى وريفْ»

لكِ قلبٌ غفا عن معاني الذُرَى
لك روحٍ ثوى في ضَبَابِ الكرى
لا يُحسُّ النَدىَ في جَفَافِ الثَرَى
فاهبطي وابحثي عند أهلِ القُرَى

ربّما حرّروا مُقْلةً راسفه
أغمضتْ لا تَرىَ روعة العاصِفَه
ربّما خفّفوا حُرْقةً لاهفه
انّ دنياهمُ جنّةٌ وارفه

فى الريف

مـا تقـول الريـاحُ؟ هذى هى الجنـ ـةُ؟ هـذى ظلالُهـا الممـدودة؟
أترى حـانَ أن تـراكِ عـيـونى يا ضـفـافَ السـعـادةِ المفـقـودة؟

بعـد طول السُّرَى وتيـهىَ فى الآ فـاق، والـدربُ ظلـمـةٌ وزوالُ
بعـد بحـثى عن التى غَلَّفتْ أسـ رارَهـا لـم تَبُـحْ بـهـا الآزالُ

أنا من قـد حـملتُ قلبى على كـفـ ـى وسـرتُ الوجـودَ أبـحث عنهـا
أسـألُ العـابرينَ عـمّـن رآها وَرَوَى قلبَـهُ المُشـوَّقَ منْهـا

أتـراهـا هنـا؟ أتلـكَ إذن أسـ ـوارُهَا تملأُ المشـاعـر أمنًا؟
أترانا إذن وصلنا أخـيـرا ذلك الشـاطئَ الذى نتـمـنَّى؟

إنّهُ الـريفُ فـالحـيـاةُ ربيعُ خـضِـلُ العطر باردُ الأنـداءِ
والمراعى النشـوى تُرَاقـصُهـا الريـ ـحُ وتغـفـو عـلى خـدود الضيـاءِ

والصبـاحُ الوضـىءُ قـد ذوّب الألـ ـوانَ والعـطرَ فى كـؤوس الورودِ
والفـراشـات يرتشـفن ويَثْـمَلْـ ـنَ من الـوْهج والرحـيقِ البَـرُودِ

وفـروعُ النخـيل مـدّتْ على مـجـ ـرى السـواقى ظـلالهـا السَمْـراءَ
سكـبتْ عـطرها وخـــدّرتِ المرْ جَ وفـاضتْ خـصـوبـة ونَمَـاءَ

وذراعُ الضـيــاء تحـتـضنُ الأشـ ـجـارَ والوادىَ النضـيـرَ الثـريّا
وورودُ بـيـضٌ تـَنـامُ عـلـى يـنـ ـبوعِ مـاءِ يسـيلُ شـهـداً نقـيّـا

كلُّ شىء فى هـذه الجنّة الـعَـذْ بـة يوحـى بـأنّنـا قـد وصـلنـا
إنَّ مـا فـى قُلوبـنا من هـوىً عط شـانَ قـد نـال حُلْمَـهُ المُتَـمنَّىَ

أنَّ هـذى ديـارُهَـا، هـى جنّـتْـ ـةَ حُلْمـى الخـافى وسـرًّ رحـيلى
هى ذاكَ اللغـزُ المحيِّرُ شـوقُ الـ أمسِ واليـومِ والغـد المجـهـولِ

فلـنُقمْ هـا هنا عـريشَ أمـانيـ ـنـا من الورد والشَـذَى الـروحىّ
ولنَذُقْ حكـمـةَ النخـيلِ ونقـبسْ بعـضَ أسـرارِ صـبـرِهِ الأبدىّ

لـنعشْ هـا هـنا تـعـلّـمُنَـا الأشـ ـجـارُ سـرَّ الدنيـا ومـوسـيقـاها
والمـروجُ الـغـنّـاءُ تكـشـفُ لـلـرو حِ مـعـانى اخـضـرارِهـا وشـذاها

وغـناءُ الـرُعـاة تـنقـلُـهُ الرِّيـ ـحُ بعـيـداً إلى قنان الجـبـالِ
ونشـيـدُ تُديرُهُ شَـفَـتـا طفـ ـلِ يـغنّى على تلالِ الـرِّمـالِ

إنّ في هـذه المجـالـي كـؤوسـاً		هي ريُّ المُنى وريُّ الـشـفـاه
إنّ فـيـهـا نبـعـاً يفيء إليـه الـ		ـمُتْـعَبُونَ العطاشُ بعـد المَتَاه

وهنا تمنحُ الطبـيـعـةُ دفـئـاً		وسكوناً عـذباً وينبـوعَ ضَـوْءِ
ويداهـا تَمَسُّ في روحـنا جُـرْ		حَ الـرَّدَى والـذبـولِ والـلاشـيء

إنّ هذا الجـمـالَ أقـوى من المو		ت فـفيـه عُـمْقٌ وفـيـه خُلودُ
هل خَلَتْ هذه المجـالـي من الأغـ		ـنامِ يومـاً؟ وهل تلاشَى النشيـدُ؟

وزهـورُ تـذوي وتـولـدُ آلا		فُ سـواهـا سـحـريّةَ الألوانِ
تمنحُ العِطرِ والجـمـالَ غـذاءً		للـنسـيـمِ المعطّر النعـسـانِ

وطيـورُ تَسقـي الوجـودَ كؤوساً		من أناشيـدها العـذَاب النقـيّة
لا صـداها يمـوتُ، لا نـبْـعُـها ينْـ		ـضَبُ في مَسْمَعَ الرَّوابي الشـذيّه

ومـجيءُ المسـاء- عند نضـوبِ الـ		ـضوءِ في حافـةَ الفـضاء البـعيـدِ
أولا ينثُـرُ النجـومَ الكـحـيـلا		تِ على جـبـهـةَ المساءِ الـوليـدِ؟

ها هـنا يولَـدُ الخلودُ كـمـا يو		لَدُ قَطـرُ النَدى وعطرُ الرِّيـاحِ
مـثلمـا ينْبُتُ الضـيـاءُ أثيـريـّ		ـاً ظَهُـورَ الأهدابِ كلَّ صَبَـاحِ

ويموتُ الفناء، يضحكُ من فكـ ـرتـه الظـلُّ والنّـدَى والوَرْدُ
ونجومُ المساءِ تُبصـرُ فى الآ فاقِ ما لا يُرَى وما لا يُحَدُّ

إنّهُ الريّفُ من ثَرَاهُ العبيرىّ المنَدِّى تُسْتنبتُ الأشعارُ
موطنُ الحبِّ والأغانى وأرضٌ غلّفتْ رملَهـا الندِى أسرارُ

سرتُ فيه فجراً وسرتُ مساءً وعَرَفتُ الظهيرةَ العنبريّة
وارتوتْ من شَذَى النخيل وعطِر الـ ـقمحِ روحى الطليقةُ الفَجْريه

سرْتُ فيه وحدى، سعادةُ قلبى غمرتنى وحدى، وغنّيتُ وحدى
إن هذا الفردوسَ يَنْقُصُهُ الإنـ ـسانُ: يُصْحى ضياءهُ ويُندِّى

تلك أكواخهم حصيرُ وأحجا رُ وبؤسُ مخيم لا يزاحُ
تخجَلُ الشمسُ أن تمرّ عليها ويَحيدُ الضُحىَ ويكبو الصَبَاحُ

غُرَفٌ رثَّهُ المداخلِ والجـدْ رانِ سودُ تجولُ فيها الرِّياحُ
فى دجاها يعيشُ قومُ جياعُ نَضَبتْ فى أيديهمُ الأقداحُ

ويغنى القُمْرىُّ تجرى السواقى ويلاقى الضياءُ تلةَ زنبقْ
ويُراق الجمالُ فى الفجر أكوا باً ولا قلب فى القُرَى يتذوّقْ

شَغَلتهم أحزانُهم عن معانى الـ ـظلِّ والضوءِ والنّدَى الألآقِ
عن مذاق الجمالِ فى وردة خجـ ـلَى على شطِّ جدولٍ رَقْراقِ

كيف يَرْقى الجياعُ فى عالم الرّو حِ وهم فى حبالة الجسْم أسْرَى
يعصرون الصخورَ بحثاً ولا قطـ ـرةَ ماءٍ تَبلُّ والروح حَرَّى

يحرثون المياهَ، يستنبتون الـ ـنارَ والموتَ يعزلون الرِّياحا
يا ضياعَ الإنسانِ يخدعه التيـ ـهُ ويسرى ولا يُلاقى صباحا

هؤلاء الجياعُ فى عُزْلةِ الحِرْ مانِ تمتدُّ حولهم أسوارُ
لفَّ أرواَحهم حجاب كثيف وانطوت فى عيونهم أسرارُ

خلف باب الكوخ الكئيبة قمر ىٌّ يغنى ألحانَهُ ومُنَاهُ
لا هُم يسمعونَهُ لا ولا القُمْـ ـرىُّ يدرى ذهولَهُم عن غناهُ

ليس يدرى القمرىُّ ما يفعل الجو عُ بأهل الأكواخ كل شتاء
حينما تغمر الثلوجُ ثرى المر ج وتطويه عن عيونِ الضياء

حينما يجمدُ القطيعُ من البر د على المرج فى شتاء حزينِ
حينما تُذْبل العواصفُ زهر الـ ـلوز والبرتقال والياسمين

حينمـــا تدفنُ الثلوجُ حـقـولَ الـ ـقـمح والرزّ تحت سـوط الرياحِ
وجـيـاع فى ظـلمـة الـكوخ لم تَدْ رِ بأحـزانهم عـيـونُ الصـبـاحِ

ليس يدرى القـمرىُّ لا ليس يدرى مـا وراء الأكـواخ من حـرمـانِ
يا دياراً سكّـانُهـا الجـوع والحـمّـ ـى خـــواءً مـن النـدى والحنـانِ

أيّهـا الصـادحُ المغنِّى على قـمـ ـة هـذا الـدوح الـنـدىّ الـبـلـيـل
دعْ أسـاهُ يا طيـرُ لى، لمسـيـرى فى لـيـــالـيــهِ، إنّ قلبى دليـلى

ضـاع فى هذه القُـرَى حلمىَ المضـ ـفـور بالضـوء والندَى والـبـرودة
عطش اللحنُ فى شفاهى إلى الرىّ إلى جـنّة الـرؤى المفـــقـــوده

حـمـلتنى الأوهـامُ أوهامىَ العـطـ ـشى بعـيـداً ولم أجـد لى ارتواء
سـقط الريشُ عن جنـاح خـيـالى وفـقـدتُ الرؤى فـقـدتُ الضـيـاءَ

يا سفينى ارحلـى، دعى شاطئ القر يةِ إنّ المـرْسى ضـنين بـعـيـدُ
وغصـونُ الصفـصاف عاريـة السيـ ـقـانِ والليلُ فـى الحـقـول أبيـدُ

أقلعـى أقلعى بـنا قـد سـئـمنا َصـرَخـات الجـيـاع فى كلّ شـعْبِ
قـد رأينا الدمـوعَ فى كل َجـفنٍ ولمسـنا الـعـويلَ فـى كلٍّ قـلب

ووداعـــاً يـا زيفُ جــــئناك نمـلو ئـيـن رؤيـا فـلـم تَـطُـلْ رؤيـانـا
إنّ فـى الأُفق لمحـــــــةً من ديـارٍ هى أحـنى عـلى جــــراح مُـنانـا

أنشودة الرياح

-٥-

حُلُمٌ وانطوى — فى الفضاء المديدْ
كلَّما أخفقتْ — فى رجاء فريد
شيَّدت فى الذُرَى — حُلْمَها من جديدْ
لا تبالى اللظى — لا تبالى الجليدُ

خيّبتها القُرَى — ودجاها الحزينْ
إنّ فى أرضها — بشَراً جائعين
لم تجد عندهم — غير دمعٍ سخينْ
ومضَتْ فى السُّرى — لا تنى لا تلين

ثم أرستْ هنا — عند أهل اللحونْ
شعراءُ مَشَوْا — فى ظلال الغصون
علَّ فى نايهم — بعض لحنٍ حنونْ
ليس فيه أسىً — ليس فيه مَنُونْ

حـــــــــدّقـى هـا هـنـا　　يا فــتـــاة القـــصــيــدْ
إنّ فــى كـــــــــونـهـم　　رْجـعَ لحنٍ ســـعــيـــد
انـظـرى تـلـمـــــــسى　　فـــى الــظـلام المـــديـــد
نـشــــــــوةً غـلّـفـت　　قـلـبَ هـذا الـنـشــيـــدْ

فى عالم الشعراء

إنّه شـــاطئ القـــصـــائد والألـــ ـحـان يمتـدّ غـامضَ الكثـبـانِ
فـــى حـــنـــايـــاه كـــلُّ ذرّةِ رمـــلٍ رعـــشـــةٌ وانبـــشـــاقـــةٌ وأغـــانِ

علّنا واجـدون فيـه الرحـيقَ الـ ـمُـشْتَـهَى علّ فى ثناياهُ نجـمـا
نحن سـرنا مرنّـحـين من الجـهـ ـدِ وكـان المسِيـرُ صلْداً أصـمـا

فى ضبـاب الآفـاق نسأل مـاذا؟ أسَـرَابٌ مـا حـولنا أم تلالُ
عبـثاً نلمس المدى فـالمدى مُسـ ـتـغلقُ السـرِّ مـبـهـم لا يُنالُ

وتجلّى الدجى ولاح لنا فـجـ ـرٌ طرىٌّ لَـدْن النسـيـم بـليـلُ
مُرْهَفُ الضوء لامسَتْ شفتاه الـ ـمرجَ فاستيقظتْ قُرَىً وسهولُ

إنهـا رعـشـةُ الحـيـاة ومـيـلا دُ الأغـانى المُغَرورْقـات الشجيّه
إنهـا العـالـم الذى ظلّلَ الشـا عرَ حـتى الصـخـورُ فيـه نديّه

عـالـم كله انفـعـالٌ وحسٌّ شـاسع الغـور لا يُمَسُّ مـداهُ
واحتشـادُ الشعـورِ بحرٌ سـحيقٌ غـاصَ فى لا نـهـايةٍ شـاطئـاه

عـالم الشـاعر الثرىِّ الرؤى العَذْ ... بِ الأغــانى المرقــرَق الألوانِ
كل نـبضٍ فـى قلـبـــه لحـنُ حبٍ ... لـلـمــدى للوجــود لـلإنســانِ

عــالمُ صيغَ مـن شعـور رهيف ... وأحــاســيسَ طَـلْقــةِ لا تـنامُ
والأغـــاريدُ منـبعُ لأســـاهُ ... فـــهى فى صــمتِ روحِـــه آلامُ

تلك مـأســاته يبـيت اللـيـالى ... ســاهد اللحن راثيـاً للـحـيـارَى
كلّمــا أنَّ فى الدياجــيـرِ مـظلو ... مُ بكـى الشــاعــر الرهيـف وثارا

أبـداً يـرْقـب المَدَى ويُـنَـاجى الـ ... ليلَ روحــاً وجبــهــةً وشفــاها
فى حــيـاةٍ يَرى الخـلىُّ ضُـحَـاها ... ويعـــيشُ الفـنّان تحتَ دجـــاها

يرقـب الأشــقــيـــاء أنّاتُهـم تجـ ... ـرح إحــســاسَــهُ تـعـزُّ علـيــهِ
دمــعـــةُ فى جــفــونـهِ وصــلاةُ ... من حنـانٍ تذوبُ فى شــفـتـيــهِ

يَسـهـرُ الليلَ يـقـبعُ الحـارسَ المكـ ... ـدودَ فـى خطوه الـرتيـبِ الكلـيلِ
وَقْعُ أقـدامـهِ على شــاطئ الصمـ ... ـتِ أسى الشــاعـرِ الحنونِ النـبيلِ

أطفئ الضـــوء أيّهـا الشـاعــر المتـ ... ـعبُ وارحـم فـؤادك الموجـوعـا
كـاد يخـبـو ضـوءُ السـراج وتأتى ... ظُلُمـاتُ الـدُجَى عليـهِ جـمـيـعـا

أنا قد جئتُ كونَكَ العابق الضو ئيّ بحثاً عن حلميَ المفقودِ
علَّ فى كأسِكَ الرحيقيةِ الولـ ـهى شُعَاعاً من الضياءِ البرودِ

قلتُ، دنياهُ فرحهُ وضياءُ وعطاءُ خِصْبُ وروحُ ولونُ
وصلاةُ سحريّةُ الرجع ينثا لُ عليها عطرُ وضوءُ لَدْنُ

إنه الشاعر الطليقُ الذى يَغـ ـزلُ همسَ الرياحِ لحناً ثريّا
إنه دفقة القصائد والأنـ ـغامِ ما زال روحُهُ ضوئيا

فلماذا أراهُ كالطيف ذبلا نَ طوتهُ انطفاءةٌ وسكونُ
مقلتاهُ مَأوَى الكآبة فى أهـ ـدابها يكمنُ الضياءُ الحزينُ

إنّه كالضياء فى طهره يُطـ ـفئه الشرُّ والمعانى الدنيئه
أولا تذبل الورودُ إذا ما لامستْها يدُ الجفاف البطيئه

قلبُهُ للجمال كرَّس نجوا هُ وللّون والشذى والنقاءِ
لا يطيق الأذى ويحلم بالكو نِ طهوراً مضوّاً الأنداءِ

هو والخير يبقيان صديقيـ ـنِ محبّينِ ليسَ يفترقانِ
وهو الحبُّ لحنُهُ الأبديُّ الطـ ـلقُ يَنْدَى من رقّةٍ وحنانِ

فـإذا مــا رأى الشـرور وقــد كبـ ـلت الأرض ذاب روحــاً وقـلبــاً
وذوى حُلـمُـــهُ الإلهـيُّ وانثـــا لتْ على روحــه الكآبةُ سُـحبــا

ويَرَى الـزهرَ ذابلاً بـعـــد أن كـــا نَ يُـذيع الـشـــذى ظـلالاً نديّـه
فـــيـرى قــصّــةَ الـذبولِ وتذوى فــى مـنــاه أســطـورةُ الأبـديّــه

(١٩٦٥)

عاشقة الليل

الطبعة الأولى ١٩٤٧



"أعبِّر عمّا تحس حياتي
وأرسم إحساس روحي الغريب
فأبكي إذا صدمتني السنين
بخنجرها الأبدي الرهيب
وأضحك مما قضاه الزمان
على الهيكل الآدمي العجيب
وأغضب حين يداس الشعور
ويُسخر من فوران اللهيب

نازك

ذكريات ممحوّة

وجهُكَ أخفاهُ ضَبابُ السنينْ
وضمّهُ الماضى إلى صدرِهِ
ألقَى عليه من شبابى الحزينْ
أحزانَ قلبٍ تاه فى ذُعْرِهِ

وصوتُكَ الخافِىْ َخبَا لحنُهُ
وأوحشَتْ سَمْعىَ أصداؤه
فلستُ أدرى الآنَ ما لونُهُ،
ما رجعُهُ الصافى، وإيحاؤه

ولونُ عينيكَ، وأسرارُها،
وَشعْرُكَ الداجى، وأمواجُهُ
غابتْ جميعاً، أينَ تَذْكارُها
فى ليلِ قلبٍ طال إدلاجُهُ؟

كم، في سكونِ الليلِ، تحتَ الظلامْ
رَجَعتُ للماضي وأيَّامهِ
أبحثُ عن حبّيَ بين الرُّكامْ
فلم تَصِدْني غيرُ آلامِهِ

لم يَبْقَ شيءٌ غيرُ حزْني المريرْ
بقيَّةٌ من حبّيَ الذاهبِ
وذكرياتٍ من صِبايَ الغريرْ
ساخرةٍ من وجهيَ الشاحبِ

وأصبحتْ ذكراكَ وهْماً يلوح
يشتاقُهُ قلبي الكئيبُ الغريرْ
يا جسَداً، كالقبر، ما فيه روحْ
سمَّيتُهُ قلباً، فيا للغُرور!

٥

وأيُّ قلبٍ جامدٍ باردِ
أيُّ حياةٍ تحتَ ظلٍّ الخُمودْ
لولا صُراخُ الزَّمَن الحاقدِ
لضِقتُ بالعيش وعِفتُ الوجودْ

لم يَعُـد الحُبُّ أسىً مُـخـرقـا
يُشْـعلُ أيّامى بأحـزانه
ولم يَعُـدْ جَـفْنَى مُـغـرورقًـا
يـخـرِقُـه الدمْعُ بنيـرانه

لم يَبْقَ إلا ثورةُ واحتـقـارْ
ملء حـيـاتى المُرَّة الحـالمه
النارُ ذابتْ وتبـقّى الشّـرارْ
تشـربُهُ أحـلامىَ الواهمـه

وطيـفُكَ الخـابى هوَى نجـمُـهُ
وغـابَ فى الماضى الرّهيب الأبيـدْ
ووجـهُكَ القـاسى ذَوَى رسـمُـهُ
فى مُـقْلتى فهـو خيـالُ بعيـدْ

مَـضَى زمـانُ كنتُ فيـه الّتى
تفـتنُهـا أنغـامُكَ الصـافيـه
وروحُ أشـعـاركَ فى وحْـدتى
وحـيـى الإلهىُّ وأشـعـاريَه

مَضَى وأبقى لى فؤاداً يرَى
فيكَ جماداً من ترابٍ وطينْ
أسكنتُهُ يوماً أعالى الذُّرَى
وأرجعَتُهُ للحضيضِ السنينْ

لم يبْقَ منكَ الآنَ شىءٌ جميلْ
غير اسمِكَ العذْبِ وأصدائه
ذكرىً لقلبٍ كان يوماً نبيلْ
فباتَ فى حَمْأةِ أهوائه

ملامحُ الهيكلِ عندى امحتْ
الوجهُ، والبَسْمةُ، والمُقْلتانْ
لم يَبْقَ إلا اسمٌ، وروحٌ خَوَتْ
وذكرياتٌ قد مَحَاها الزمانْ

مَددْت كفًى إلى جوِّها
باحثة عن سحْرِها السابقِ
فلم أجدْ ثَمَّ سوى شلْوِها
يَسْخَرُ من مدمعىَ الدافقِ

وعـــــاد قلبي لـلأسـى والعـــــذابْ
مــسـتـوحـشـاً حـتّى مـن الذّكـريـاتْ
من يُـرْجِعُ الماضـى إذا مــا الضَــبــابْ
ألقـى دُجــاهُ فــوقَ لـيلِ الحــيــاةْ؟

ومـــا مَــــحَـــاهُ الـزَّمنُ الـقــادرُ
أيُّ يـد تكـتُــبـــهُ من جـــديـدْ؟
فـــيمَ إذنْ يـلتـــفـتُ الشـــاعـــرُ
إلـى دُجى المـاضى الـرهـيبِ الأبـيـــدْ؟

١٩٤٦-٨-٢٠

ذكرى مولدى

مهداة إلى «كاملة» صديقة طفولتى التى
لم أعد أعرف عنها إلا اسمها.

جئتِ يا ذكرياتُ شاحبةَ الوجـ ـهِ حَيارى فى موكب الأيّامِ
جئتنى والشبابُ باكٍ بعينىَّ وحولى جنازةُ الأحلامِ
رَغَباتى دفنتُها فى ثَرىَ الما ضى وقلبى ما عادَ غيرَ حُطَامِ
ودموعى رمزٌ لما لقيته الر وحُ فى غيهب الوجودِ الدامى

جئتِ يا ذكرياتُ ما أفظعَ الذكـ ـرى وما أروعَ الرجاءَ الفقيدا
ليتَ قلبى قد كان صخراً أصمّا كلَّ يوم يبنى رجاءً جديدا
ليتَهُ كان جامدَ الحسِّ كالطيـ ـنِ يعيشُ الحياةَ جذلاً سعيدا
ليتَهُ لم يكنْ ويا ليتنى أعـ ـتاضُ عنه حجارةً أو حديدا

والتقينا مع الصباحِ فيا خيْـ ـبةَ نفسى أىُّ التقاء مريرِ
وجهُكِ الشاحبُ المروّعُ يُبْكيـ ـنى ويُحْيى ذكرى صباىَ الغريرِ
وبعينيكِ قطرةٌ من دموعى وعلى فيكِ آهةٌ من زفيرى
أسفاً قد حفظتِ أحزان قلبى وتجاهلتِ نَشْوتى وحُبُورى

شَهِدَ الفجرُ كيف يا ذكرياتي — كان هذا اللقاءُ أشجَى لقاءِ
عانقتْني أشباحُك الباكياتُ الـ — ـخُرْسُ باليأسِ والشَّجا والبكاءِ
ووقفنا تحت الصباحِ تماثيـ — ـلَ حيَارَى كأنفسِ الشُّعَراءِ
وانحنتْ فوقنا الشُّجَيراتُ حزناً — تتباكى بأدمعٍ خَرْساءِ

أسفاً ضاعت الطفولةُ في الما — ضي وغابتْ أفراحُها عن جفوني
وهي لو تعلمينَ أجملُ ما يمـ — ـلكُ قلبي وما رأتْهُ عيوني
حينما كنتُ طفلةً أجهلُ السرَّ — وأحيا في غفلةٍ من شجوني
كالعصافيرِ أملأُ الدارَ لهواً — وغناءً وأستحبُّ جُنوني

ماتَ أمسي الضحوكُ واعتَضْتُ عنه — بشبابٍ مُرٍّ ودمعٍ ويأسِ
وَخَبَتْ ذكرياتُهُ البيضُ في بحـ — ـرِ شعوري وليل قلبي ونفسي
أين تلك الوجوهُ؟ كيف نَسيتُ الآ — نَ؟ من ذا يُعيدُ لي فجر أمسي؟
كلُّ وجهٍ عفّاهُ مَرُّ الليالي — فهو طيفٌ وراءَ وعيي وحسِّي

أعبُرُ العُمْرَ كلَّهُ نحو أمسي — ويعودُ الشعورُ بي للتلالِ
مجلسي فوق تلّيَ الحُلْوِ وحدي — أو شُرودي بين الشَّذَى والظلالِ
ومعي الطفلةُ الصديقةُ نبني — فوقَ وجه الرِّمال عرْشَ الخيالِ
عُمْرُنا قصّةٌ ولحنٌ نغنّيـ — ـه وقلبانِ في نَقَاءِ الرِّمالِ

أين أصبحتِ يا رفيقةَ أمسى؟ ... ما الذى قد شَهِدتِ فوقَ الوجودِ؟
أترى تذكرينَ مثلىَ أيّا ... مَ صِبانا وحُلْمَنا المفقودا؟
أم ترى قد نَسِيتنى ونَسِيتِ الأ ... مسَ فى فَرْحة الشَّباب الرَّغيدِ؟
أبداً لسْتُ لستُ أنسى وإن كنـ ... ـتِ تهاوَيت فى الزَّمانِ البعيدِ

أترى أبصرتْ عيونُكِ فى الأر ... ضِ كما أبصرتْ عُيونىَ شقاها؟
أرأيتِ الأحزان فى كلّ قلبٍ ... ورأيت النفوسَ فى بلواها؟
أسمعتِ الصُراخَ يُرْسلُهُ الأحـ ... ـياءُ والأرضُ أغرقتْها دماها؟
حدثينى صديقةَ الأمسِ هاتى ... عن لياليكِ بِشْرَها وأساها

ربّما كنتِ يا رفيقةُ مثلى ... زورقاً فى البحار عادَ حُطَاما
الرّفيقاتُ غبْنَ عنك وآثـ ... ـرنَ عليك الشرورَ والآثاما
فكتمتِ الشعورَ فى قلبك الصَّا ... فى وُصنْتِ الأحزانَ والآلاما
وقضيّتِ الحياةَ فى الوحدة الخر ... ساء تَسْتلهمينها الأحلاما؟

أنصتى من مكانك الغامض المجـ ... ـهول أصغى الى نشيدى الصافى
أوَ تدرين ما الذى صَنَعَتْهُ ... سنواتُ العُمْر الرهيب الحافى؟
إنّه يومُ مولدى، يومُ أحزا ... نى وذكرى الرُسُوِّ عندَ الضفاف
حينما أوقفتْ سفينتىَ الأقـ ... ـدارُ بين الأمواجِ، تحت السَّوافى

إنّه يومُ مـــولدى أيـن أفـــرا ... حُ شـبــابى أعـيـدُها للسِّنينا
كـيف مـرَّ العـامُ الحـزينُ بـقلبى الـ ... ـجَـهْمِ؟ أينَ الثلاثُ والعشـرونا؟
كـيفَ مـرّتْ هذى الـسنينُ ولم أدْ ... رِ؟ ومـالـى ذوّبتُ عـمـرى أنينا؟
لـم أنلْ مـن ظـلامـــــه المـرِّ إلاَّ ... أمـــلاً ذاهبـــاً وروحـــاً حــزينـاً

إنّه يـومُ مـــولـدى ولقـــد مَـــرَّ ... بعُـــمْـــرى الداجى كظـلّ شــقىٍّ
عـشـتُـهُ فى قـصـائـدى ودمـوعى ... بين جُـدْران مـعـبـدى الشـاعـرىِّ
لا فـؤادٌ مـعى يُشـــاركُنى حُـزْ ... نى ويبـكى على شـبــابـى الدجىِّ
لا رفـيقٌ فى غُـربْتى ووجـومى ... غـيرَ قلبى الشجىْ ودَمـعى النقىِّ

١٩٤٦-٨-٢٣

الحياة المحترقة

«كتبت الشاعرة هذه القصيدة عندما
ألقت بمذكراتها إلى النار».

هذه يا نارُ أفراحي وشوقي وشجوني
جئتُ ألقيها إلى فكّيكِ في فجري الحزينِ
كلُّ ما مرَّ بقلبي من شَقَاء وحنين
إلْقَفيه الآنَ لا تُبقي ولا تَسْتَمهليني

هذه الأسطُرُ قد ضَمتْ بقايا سنواتي
منذُ أن ألقتْ بيَ الأقدارُ في تيه الحياة
طفلةً ترنو الى الشاطئ عَبْرى النَظَراتَ
وتَرَى العالَم بحراً مُغرَقاً في الظُلُماتَ

سَنَواتي كلُّها يا نارُ في هذي السُّطورِ
أغاريدي، وأشواقُ حياتي، وحُبوري
وبقايا من حنيني، وشظايا من شُعوري
وأباديدُ من الأحلامِ والحُزْنِ المرير

إنّهــا أيتُــهــا النارُ، أزاهيــرُ شــبــابى
صُــغْتُــهـا ذكــرىً لأحزانى، ورمـزاً لعـذابى
ومـحـا أسـطُرَها دمـعى وأبلاها اكـتـئـابى
خُـذيـهـا، وأعــيـديهــا رُكـامــاً من تُرابِ

أحْـرقيــهـا، لم أعُـدْ أعبـأ، لن أبكىْ شَـذاها
إنّهـــا، يـا نارُ، ذكـــرىً لليـــالِ لـن أراها
دَفن الماضى خَــفـاياها الحَـوالى ومَــحَـاها
وطوتهـا لُـجّـةٌ النسيـانِ فى عُــمْقِ دُجَـاها

ذهبتْ تلك الـليـالى وطوى الدّهرُ صــبـايا
أىُّ نَفْـعٍ بعْـــدُ يا نارُ لـدْمــعى وأســايا؟
أىُّ مــعنىً لادّكــاراتى، وشـــوقى ومُـنايا؟
لن يعــودَ الأمسُ، لن تَلْقَى سَناهُ مُـقْلتــايا

أيّهـا الحاضـرُ لا تُسـرعْ إلى الماضى البـعيـدِ
ولتَـقفْ مـركَـبَـةُ الشمـس على الأفق المديدِ
ليكُـنْ بعــد صــبـانـا تحت أفــيــاء الخُلُودِ
آه ولْيَـمَّحِ لفظُ الأمـس، من سِـفْـر الوجـودِ

أو أبِدْ مــا تَرَكَ الماضــى من الأحــزانِ فــينا
وامسحِ الذكـرى ولا تُبْقِ لنـا الشـوقَ الدفـينا
حسـبُنا الحـاضـرُ آلامـاً ودمعـاً وشُـجُـونا
رحــمــةً فلْتَــمْـسَحِ الماضى وآثارَ السنِـينا

فيمَ تبقى ذكرياتى حـيَّـةً بعـدى وأنسَى؟
كلَّ يومٍ أســرعُ الخَطو عن العــالم يأســا
وهى مـازالتْ شبـاباً ناضراً، جِسْمـاً وَنفسـا
آهِ مـا أعنفَ أحـقـادى على الذكـرى، وأقسَى!

أيُّهـا النـارُ الهَـبى فى المَوقِـد الذاوى الرهيبِ
وخـذى مـن فـتنةِ الذكــرى غـذاء للَّهــيبِ
إثأرى منـهـا، أعــيــديهــا رَمــاداً، وأذيبى
ودعـيـنى مـرّةً أضـحـكُ من قلبى الكئــيبِ

١٩٤٦-٦-٧

في وادي العبيد

ضاع عُمْري في دياجير الحياة
وَخَبَتْ أحلامُ قلبي المُغْرَقِ
ها أنا وحدي على شطِّ الممات
والأعاصيرُ تُنادي زورقي
ليس في عينيَّ غيرُ العَبَرات
الظلالُ السودُ تحمي مفرقي
ليس في سَمْعيَ غيرُ الصَرَخات
أسفاً للعُمْرِ، ماذا قد بقي؟

سَنَواتُ العُمْر مرّت بي سراعا
وتوارتْ في دُجَى الماضي البعيدْ
وتبقَّيتُ على البحْر شراعا
مُغرَقاً في الدمْع والحزنِ المُبيدْ
وحدتي تقتلُني والعُمْرُ ضاعا
والأسى لم يبقِ لي حُلماً جديدْ
وظلامُ العيْش لم يبق شُعاعا
الشبابُ الغَضُّ يَذْوي ويَبيدْ

أيُّ مأساة حياتى وصبايا
أىّ نار خلف صَمْتى وشَكاتى
كتمتْ روحى وباحتْ مُقْلتايا
ليتها ضنّتْ بأسرار حياتى
ولمن أشكو عذابى وأسايا؟
ولمن أرْسلُ هذى الأغنيات؟
وحواليَّ عبيدُ وضحايا
ووجودٌ مُغْرَقٌ فى الظُلُمات

أيُّ معنىً لطُموحى ورجائى
شَهِدَ الموتُ بضَعْفى البَشرىِّ
ليس فى الأرض لحُزْنى من عزاء
فاحتدامُ الشرِّ طبْعُ الآدمىِّ
مُثُلى العُليا وحلمى وسَمائى
كلُّها أوهامُ قلبٍ شاعرىِّ
هكذا قالوا... فما مَعْنى بقائى؟
رحمةَ الأقدارِ بالقلب الشقىِّ

لا أريدُ العيشَ في وادي العبيدِ
بين أمواتٍ... وإن لم يُدْفَنوا...
جُثَثٌ ترسفُ في أسْرِ القُيود
وتماثيلُ اجتوتْها الأعيُنُ
آدميّونَ ولكنْ كالقُرود
وضِباعٌ شرسةٌ لا تُؤمَنُ
أبداً أسْمعُهم عذْبَ نشيدي
وهُمُ نومٌ عميقٌ مُخْزِنُ

قلبيَ الحُرُّ الذي لم يَفْهموهُ
سوف يلْقَى في أغانيه العزاءَ
لا يَظُنّوا أنّهم قد سحقوهُ
فهو ما زالَ جَمالاً ونَقاءَ
سوف تمضي في التسابيح سِنوهُ
وهُم في الشرِّ فجراً ومساءَ
في حَضيضٍ من أذاهُم ألِفوهُ
مُظْلمٍ لا حُسْنَ فيه، لا ضياءَ

إن أكنْ عاشقةَ الليلِ فكأسى
مُشْرقٌ بالضوء والحُبِّ الوَريقِ
وجمَالُ الليلِ قد طهّرَ نفسى
بالدُّجَى والهمس والصمْتِ العميقِ
أبداً يملؤ أوهامى وحسِّى
بمعانى الرّوحِ والشِعْرِ الرقيقِ
فدعوا لى ليلَ أحلامى ويأسى
ولكم أنتم تباشيرُ الشُروقِ

١٩٤٦/٨/٨

ثورة على الشمس

هدية إلى المتمردين

وَقَفَتْ أمام الشمس صارخةً بها
يا شمسُ، مثلُك قلبيَ المتمرِّدُ
قلبي الذي جرفَ الحياةَ شبابُهُ
وَسقَى النجومَ ضياؤه المتجدِّدُ
مهلاً، ولا يخدعْك حزنُ حائرُ
في مقلتيَّ، ودمعةُ تتنهدُ
فالحزنُ صورةُ ثورتي وتمرُّدي
تحت الليالي؛ والألوهةُ تَشْهدُ

مَهْلاً ولا يخدعْك حزنُ ملامحي
وشُحوبُ لوني وارتعاشُ عواطفي
وإذا لمحت على جبيني حَيْرتي
وسُطُورَ حزني الشاعريِّ الجارفِ
فهو الشعورُ يُثيرُ في نفسي الأسَى
والدمْعَ في هول الحياة العاصف
وهي النبوَّةُ لم تطِرْ فتمرَّدَتْ
الحُزْنِ، في وجهِ الحياةِ الكاسفِ

شَفَتايَ مُطْبَقتان فوق أساهما
عيناىَ ظامئتان للأنداء
تَرَكَ المساءُ على جبينى ظلَّهُ
وقضى الصباحُ على جديدِ رجائى
فأتيتُ أسكُبُ فى الطبيعة حَيْرَتى
بين الشَّذَى والوردِ والأفياء
فسَخِرْتِ من حُزنى العميقِ وأدمُعى
وَضحِكْتِ فوق مرارتى وَشقَائى

يا شمسُ حتى أنتِ؟ يا لَكآبتى!
وأنتِ التى ترنو لها أحلامى
أنتِ التى غنّى شَبَابى باسمها
وشَداَ بفيض ضيائها البسَّامِ
أنتِ التى قدّستُها وتَخذْتها
صَنَماً ألوذُ به من الآلامِ
يا خيبةَ الأحلام، ما أبقَيْتِ لى
إلا ظلالَ كآبتى وظلامى

سأحطِّمُ الصنَمَ الذى شيّدتُهُ

لك من هوَاىَ لكلِّ ضوءٍ ساطعِ

وأديرُ عينى عن سنَاكِ مُشيحةً

ما أنت إلاّ طيفُ ضوءٍ خادعِ

وأصوغُ من أحلامِ قلبى جنّةً

تُغنى حياتى عن سنَاكِ اللامعِ

نحنُ، الخياليّينَ، فى أرواحنا

سرُّ الألوهةِ والخلودِ الضائعِ

•

لا تنشُرى الأضواءَ فوق خميلتى

إن تُشرقى، فلغيرِ قلبى الشاعرِ

ما عاد ضوؤك يستثيرُ خوالجى

حَسْبى نجومُ الليلِ تُلْهِمُ خاطرى

هنّ الصديقاتُ السواهرُ فى الدُجى

يفهمن روحى وانفجارَ مشاعرى

ويُرقْن فى جَفْنى خُيوطَ أشعّةٍ

فِضيَّةٍ، تحتَ المساءِ الساحرِ

اللـيلُ ألحـــانُ الحـــيـــاة وشـــعْـــرُها
وَمطَـافُ آلهـــةِ الجـــمـــالِ المُلْهِمِ
تهــفـو عـليـه الـنفسُ غـيـر حـبـيـســة
وتحلّـق الأرواحُ فــــــوقَ الأنجُـمِ
كم ســرْتُ تحتَ ظَـلامــه ونجـــومــه
نســـيتُ أحـــزانَ الوجـــودِ المُظْـلمِ
وعـلى فـــمى نَغَـمٌ إلـهىٌّ الـصَـــدَى
تُلْـقـيــهِ قــافلةُ النـجـومِ عـلى فــمى

كـم رُحـتُ أرقـبُ كـلَّ نجمٍ عـــــابرٍ
وأصـــوغُ فى غَـــسَقِ الظلامِ مـــلاحنى
أو أرقبُ الـقَـــمَـــرَ المودِّعَ فى الـدُّجى
وأهيـمُ فى وادى الخـــيـــال الفـــاتنِ
الصـمـتُ يـبـعَثُ فى فــؤادى رعــشــةً
تحـت المســـاء المُـدْلهـم الســـاكنِ
والضــوءُ يرقُصُ فـى جـفــونى راســمـاً
فى عُـــمْـــقِــهـــا أحـــلامَ قلبٍ آمنِ

يا شمسُ، أما أنت.. ماذا؟ ما الذى
تلقاهُ فيك عواطفى وخواطرى؟
لا تَعْجَبى إن كنتُ عاشقةَ الدُجى
يا ربَّةَ اللّهَب المذيب الصاهر
يا من تُمَزِّقُ كلَّ حُلْمٍ مُشْرِقٍ
للحالمينَ وكلَّ طيفٍ ساحرِ
يا من تُهدِّمُ ما يشيّدُهُ الدُجى
والصمْتُ فى أعماق قلب الشاعرِ

أضواؤكِ المتراقصاتُ جميعُها
يا شمسُ أضعفُ من لهيب تمردى
وجنونُ ناركِ لن يمزّقَ نغمتى
مادام قيثارى المغرِّدُ فى يدى
فإذا غَمَرْتِ الأرضَ فَلْتَتذكَّرى
أنى سأخلى من ضيائك مَعْبدى
وسأدفنُ الماضىْ الذى جَلَّلْته
ليخيِّمَ الليلُ الجميلُ على غَدِى

١٩٤٦-٧-٨

بين فكّى الموت

«كانت الشاعرة مصابة بحمى شديدة فنظمت هذه القصيدة الحزينة تودع الحياة وتستقبل العالم المظلم».

يا مساءَ الصَّيفِ الحزينِ خَبَا حُبِّـ ـى لما فيكَ من أسىً وخُشُوعِ
وتبرَّمتُ بالسكون وبالأشـ ـباحِ واعتَضْتُ عنهما بدموعى
لم يَعُدْ فى قلبى هوىً لديَاجيـ ـكَ فيا رحمةً بقلبى الوجيع
رحمةً يا ظلامُ يا صَمْتُ يا أسـ ـرارُ بالخافقِ الشقىِّ المرُوعِ

ها أنا تحتَ دُجيةِ الليلِ روحُ مُستطارُ فى هيكلٍ موهونِ
صَرَخاتُ الحمَّى تحطِّمُ أحلا مى وأحلامَ قلبىَ المحزونِ
يا عيونَ النجومِ لا ترمُقينى لم يَعُدْ فى سَنَاكِ أىُّ فتونِ
وامدُدى يا رياحُ كفَّيْكِ لُطفاً وحناناً على فمى وَجبينى

ها أنا بين فكى الموت قلباً لم يَزَلْ راعشاً بحُبِّ الحياة
وعيوناً ظمأى إلى مُتَعِ الكو نِ تُنَاجى مفاتنَ الأمسياتِ
لم أزَلْ برْعماً على غُصُنِ الدهـ ـرِ جديدَ الأحلامِ والأمنياتِ
فحرامُ أن تَدْفِنَ الآنَ يا مو تُ شبابى فى عالم الأمواتِ

هـا أنـا عـنـدَ هُـوَّة الـزَّمـن المُظـ ... ـلـم بين الأمــوات والأحـيــاء
منْ ورائى صِـبـاىَ بين الأناشـيـ ... ـد ولـهــو الطُّفُــولة الحـســناء
وأمــامــى وادى المنايا قـبــورُ ... فى ظـلالِ المنّيـة الخـــرســـاء
أُفـقُ راعبُ رهـيـبُ المعـــــانـى ... ضمَّ أرجــاءَهُ الدُّجى اللانهـــائى

أيهـا الموتُ وقـفـةً قـبلَ أن تُغْـ ... ـرى بجسْـمى سكونَكَ الأبديّا
آه دَعنى أمــلأ عـيــونـى من الأنـ ... ـوار وارحمْ فـؤادىَ الشـاعـريّا
آه دَعنى أودّعِ العــودَ يـا مـو ... تُ فـقـد كانَ لى الصديقَ الوفـيَّا
وأرنّمْ لحنَ الـوَدَاعِ لـدنيــا ... ىَ لأمضىْ للموت قلباً شقـيّا

رحـمـةً بى، يا أيّها الموتُ، وأرفق ... بفـؤاد نـالتْ هَوَاهُ الحـيـاةُ
أغْـفنى الآنَ من مـفـارقـة الدنـ ... ـيـا ودَعنى إلى غـد يا مَـمَـاتُ
لا أحبُّ الظلامَ فـليَكُ مــوتى ... ى غـد حينَ تغـرُبُ الظُّلُمـاتُ
حـينمـا تضحكُ الـطبيـعـةُ فى الوا ... دى الأغنَّ الحـالى وتـشـدو الرُّعـاةُ

يا سكـونَ الليلِ العـمـيقِ وداعًـا ... إنهـــا يـا سكـونُ آخـــرُ ليـله
لم يَعُدْ فى الجسْمِ الوَهونِ سوى بُقْـ ... ـيا حيـاة ونَسْـمة مُضْـمحلّه
لم يَعُـدْ فى السِّـراج إلاّ وميضٌ ... شـاحـبٌ مـدَّ حـولهُ الموتُ ظلَّهْ
وانتَـهى يا ظلامُ تحـتَكَ تَجـْـوا ... لى وشـعْـرى وأغنيـاتى المُـملّه

وستمحو الأيامُ ذكرَ فتاة شغفتها إلهةُ الشعرِ حُبَّا
فقضتْ أمسياتها تتبعُ الأطـ ـياف والعاصفات شرقاً وغربا
يا جَناحَ الخيالِ لم يبقَ ريشٌ يا ظلامَ الفناء لم تُبقِ قَلْبا
ليسَ إلاّ جسْم تُضعضعهُ الحمـ ـى وطرف يَطوى الدياجيرَ رُعْبا

أيها الليلُ، أيّها العالمُ الغا مضُ قد أسْدلَ الستارُ المخيفُ
فارحمِ الآنَ تحتَ دُجيتك السَّو داء قلباً غامتْ عليه الحتُوفُ
لَهْفتا يا ظلامُ لن يطْلعَ الفجـ ـرُ ولن يبسمَ الفؤادُ اللهيفُ
لهفتا يا ظلامُ لهفةَ روحٍ لم يُمَتَّعْ شبابهُ المشغوفُ

يا فؤاديْ الشَريدَ ودِّعْ أمانيـ ـكَ فلن نلمحَ الصباحَ الجميلا
أنتَ يا من قضَيْتَ عُمْركَ مفتو ناً تُناجى الرُّبى وتشدو الحقولا
واسترحْ أيها الخفوقُ كفَى حُزْ ناً كفانا تضرُّعاً وذُهولا
لا يَرُعْكَ الرَّدى وحَسْبُكَ أنْ تدْ ركَ يا قلبُ سرَّهُ المجهولا

فيمَ تبكى على مُفارقة الدُّنـ ـيا وقد عشْتَ فى حماها غريباً؟
إنّها أيها المعذَّبُ مأسا ةٌ تُثيرُ الأسى وتبكى القلوبا
تخدعُ الجاهلينَ أوهامُها السو دُ ولا تخدعُ الذكىَّ الأريبا
فاحتقرها وسرْ إلى عالم الأمـ ـواتِ يا قلبىَ الرقيقَ طَرُوبا

يا عيونَ النجومِ يا وَرَقَ الصَّفْـ ـصاف يا فتنةَ السكون وَدَاعا!
لن أغنّيك بعد ليلىَ هذا آنَ أن ينشُرَ الزَّمانُ الشِّراعا
عبثاً يا حياةُ دفعيَ للموج فلن أستطيعَ بعدُ دفاعا
وغداً سوف يطمُرُ اللُجُّ أشلائى وتمضى بها الرِّياحُ سِراعا

يا بحارَ الفناء فى العالم المجهول رفقاً بزورقى المكدودِ
واحشدى حولَهُ عرائسَك الحورَ لعلّى أسلو جمالَ الوجودِ
فأنا يا بحارُ شاعرةُ الأحلامِ ضمَّختُ بالفتونِ نشيدى
وتغنّيتُ بالحياةِ ولكنْ لم تَبَرَّ الحياةُ لىْ بالوعودِ

أيُّها الليلُ آنَ أن يُطفئَ الموتُ شُعَاعَ الطُموح فى مقلتيَّا
لن تنالَ الآهاتُ من خافق الموت ولن تُصْغىَ الحياةُ إليّا
فوَدَاعاً من قلبِ عاشقة الليلِ وَدَاعاً وأنتَ يا موتُ هيّا
هكذا تذْبلُ الحياةُ ويخبو لحنُ أحزانِها على شفتيّا

١٩٤٥-٦-١٥

السفر

أنا وحدى فوقَ صدْرِ البحر يا زورقُ فارجعْ
عبثاً أنتظرُ الآن فنجمى ليس يطلعْ
هبّت الرّيحُ على البحر الجُنونىِّ المُرَوِّعْ
لِتَعُدْ للشاطئ الساجى بقلبى المُتَضَرِّعْ

عُدْ إلى الشاطئ، عدْ ما عاد يحلو لى البقاء
ذهبَ البحرُ بأصحابى إلى حيثُ الضياء
أنا وحدى، أيها الملاّحُ، حُزْنٌ وبُكاءُ
يَرْجِعُ الزورقُ بى وحدى إذا جاءَ المَسَاءُ

ذهبوا للشاطئِ المسحورِ إذ عُدْتُ لوحدى
ذهبوا إلا أنا، عُدتُ بأحزانى وسُهْدى
لم أصِبْ فى رحلتى إلاَّ صَبَاباتى وجُهْدى
فليكنْ، يا بحرُ، هذا، بالمُنى، آخرَ عهدى

كـيف يا بحـرُ توارى الركْبُ خلفَ الجـزُرِ؟
كيف يَذْوى فى فؤادى الصّـبِّ حُلْمُ السَّفَرِ؟
عـزَّ يا بـحْـرُ على مـوجِكَ بُرْءُ الصَّـدَرِ
فـلأُعـدْ، لا رحـمـةَ الآنَ بقلب القَـدَرِ

فـلأُعـدْ للسـاحلِ المظلـم قلبـاً مُسْـتَطارا
أدْفِنُ الحلْمَ وأحـيـا زهرةً وَسطَ الصَّحَـارى
أبداً أروى أناشـيـدى بأحـزان الحـيَـارى
أبداً أحْلُـمُ بالفَـجْـرِ فـلا ألقى النّهـارا

أيهـا الزَّوْرَقُ عُـد بى، لم يَـعُـدْ ثَمَّـةَ حُلْمُ
قد مَـضى الرَّكْبُ ولن يُشرقَ فى أفـقى نَجْمُ
مـا الذى أرجـو ومن حـولى المَسَـاءُ المُدلهمُّ
والأعاصـيرُ، وأشـباحُ الدّيَاجى، والخِـضَمُّ؟

أيُّهـا الشّـاطئُ، يا مَنْبَعَ أحـلامى، وداعـا
سئمَ المِجـدافُ فى كـفّيَّ دَفْـعـاً وصـراعـا
كـيف ألقـاكَ وقـد مَـزَّقـتِ الريحُ الشِّـراعـا
ورجـائى فـيكَ بين المَوْجِ يا شـاطئُ ضـاعـا

فـلأُعـدْ، لا سَفَـرَ اليـومَ إلى الأفقِ الجـميلِ
لن أرى الشـاطئَ، لن أحلُمَ فى ظلِّ النخـيلِ
وغـداً رحلتىَ الكبـرى إلى وادى الأفـولِ
آه فـلأرحلْ إليـه، فلقـد حـان رحـيلى

فـوَدَاعـاً أيهـا الركبُ وَدَاعـاً يا حـيـاة
آنَ أنْ يُطْفِئَ أفـراحى وأحـزانى الممـاتُ
آنَ أن تهـجُـرَ قـيثـارى وعـودى النَغَـمـاتُ
فـسـلامٌ أيهـا المـوتُ، سـلامٌ يا رُفَـاتُ

١٩٤٥-٧-٣٠

مرثية غريق

أيّها النَهْرُ لقد جاء المساءُ
وَمشَى الصمْتُ على الموجِ الوديعْ
وخبا في الأُفقِ الحالي الضياءُ
وتَلاشى وقْعُ أقدامِ القطيعْ

سكن الكونُ سوى الموجِ المُدَوِّى
أساطيرِ العُصورِ الخالياتْ
لم يَزَلْ يشكو المقاديرَ ويَرْوى
أبداً للكونِ أسرارَ الحياةْ

إيه يا ضِفَّةُ ما ذاكَ الخيالُ؟
فوق صدْرِ الموجِ، تحت الظُلُماتِ
أ إلهُ قد تصبَّاه الجمالُ؟
أم غريقُ عزَّهُ حَبْلُ النجاةِ؟

حدّثيني، ما أرَى خلفَ السِّياجِ؟
فهو يا ضِفّةُ في الليلِ مريبُ
ما الذي ألمح في هذي الدياجي؟
ما تراهْ ذلكَ الشيءُ الغريبُ؟

هيكلُ يغطُسُ حيناً ثمَّ يطفو
تائهاً تحتَ دُجى الليلِ الحزينْ
بَشَرٌ هذا ترى؟ أم هو طيفُ؟
ليتَ شِعْري، يا دياجي، ما يكونْ؟

آه يا شاعرتي، هذا غريق
فاحزني للجَسَدِ البالي المُمزَّق
راقداً، تحتَ الدياجي، لا يُفيقُ
والسَّنا من حَوْلِهِ جَفْنُ مؤرَّقْ

يا لَمَيْتٍ لم يودِّعْهُ قريبُ
فهوَ في النَهْرِ وحيدُ مُتعَبُ
ما بكَى مَصْرَعَهُ إلاّ غريبُ
هو قلبي، ذلكَ المكتئبُ

يا رياحَ الليل رِفقاً بالرُفاتِ
واهدئى، لا تُقْلقى جسْمَ الغريقِ
حسبُهُ ما مزّقتْ أيدى الحياةِ
فليكُنْ منكِ له قلبُ صديقِ

ولْتكنْ، يا نهرُ، أمواجُكَ حضنا
يتلقّاهُ وقلباً مُشْفقا
ولْتكنْ، يا نجمُ، أضواءُك عَيْنا
تسكُبُ الدمْعَ على من غَرِقا

آه يا قيثارتى، أىُّ المآسى!
قد كرِهْتُ الليلَ أضواءً وظلاّ
أيها الصيَّادُ، قفْ! ألقِ المراسى
إنّ تحتَ الليلِ جسْماً مُضْمَحِلاّ

هوذا، يا أيها الصيّادُ، جسْما
خامدَ الأنفاسِ فى حضْنِ المياهْ
وعُيوناً مُلِئتْ رُعْباً وهَمّا
لم يَزَلْ يملؤها حُبُّ الحياهْ

أيّها الصيّادُ، قفْ بالزورقِ
وانتَشلْ هذا الغريقَ البائسا
خُذْهُ للشاطئ وادفنْ ما بَقِي
منه في القَرْيةِ وارجِعْ يائسا

ما الذي تصطادُ في بحْرِ الزَمَنْ
وغداً يصطادُكَ الدهرُ العتيّْ
نحن يا صيادُ أبناءُ الشَجَنْ
حفَّ مَحْيانا الشَقاءُ الأبديّْ

كلَّ يومٍ بينَ أيدينا غريقُ
وغداً نحنُ جميعاً مُغْرَقونا
عالَمٌ حفَّ به الموتُ المُحيقُ
وتَباكَى في حِمَاهُ البائسونا

ضاقَ يا صيّادُ في عَيْني الوجودُ
يا لَكَوْنٍ سِرُّهُ لا يَنْجلي
كلُّ ما فِيهِ الى القَبْرِ يقودُ
ما الذي يَبْقَى لنا من أملِ؟

١٩٤٥-٧-١٠

على حافة الهوّة

جئتُكِ، يا هوّةُ، تحتَ الدُجَى
لعلّني ألقى لَدَيْكِ الخلاصْ
لم يبْقَ لي في الأرضِ ما يُرتَجى
ولم يَعُدْ لي من رحيلي مَناصْ

جئتُكِ حَيْرَى في ظلاّم الدُجَى
يدفعُ أقدامي جُنونُ الألَمْ
جئتُ وروحي فَزَعٌ صارخٌ
باسمِ إله الصمْتِ، باسم العَدَمْ

إليكِ جسْمي، كفّني بالشَذَى
أشلاءَهُ الغضَّةَ واسقيهِ
ألقي عليه باقةً حُلْوةً
من زَهْرِ أكتوبَر، ضُمّيهِ

وإن يكنْ تحتَ الدُجى بلبلٌ
فاستحلفيه أن يَصوغَ الرِّثاءْ
وإن تَسَاقَى الزَهرُ عِطرَ النَدَى
فقطرةٌ منه لجسمى ارتواء

الليلُ يدرى، ها أنا لم أزَلْ
بين َ جُنونينِ، ونفسى انفجارْ
أريد ان أحْيَا... ولكنّنى
أحِسُّ بالثورة والإحتقارْ

هيّا إلى الموت، إلى صَمْته
فيمَ أخافُ الآن؟ فيمَ الألمْ!
عّما قليلٍ تنتهى قَسْوتى
على حياتى، ويضجُّ النَدَمْ

عّما قليلٍ يتصَّبى الدُجى
قلبى، بما فى صَمْته من حياةْ
عّما قليلٍ يَحْتوينى الأسى
على وَدَاعِ الحبِّ والذِكرياتْ

ها أنا فى جُبْنىَ، فى موقفى
يخفقُ قلبى بالشَذَى باللَهبْ
تَرَدُّدِى يصرُخُ بى ارجعى
للشِعْرِ، للأحلامِ، فيمَ الهرَبْ؟

وخَلْفَ نفسى هَمسَةٌ كالصَدىَ
يكادُ يُفْنيها المَنَّداءُ الجديدْ
تهتُفُ بى: هيَّا فكفٌّ الرَدَى
أحنَى على جُرحِ الحياة المُبيدْ

وبين صَوتىْ قلبىَ المُزْدَرى
وروحىَ العاشقِ ضاعَ القَرارْ
ومرّت الساعاتُ ثم انطوتْ
ولم أزلْ فى حَيْرةٍ وانتظارْ

وعُدتُ للمَعْبد، لا جُثَّةً
محمولةً بل جَسَداً ماشيا
أسخَرُ من نفسىَ مما جَرَى
وأزدرى إحساسىَ الباقيا

١٩٤٥-٧-٣٠

سياط وأصداء

«كان على أرض الشارع المبللة جسد حصان، وكانت السياط ترتفع ثم تهوى فلا تسقط إلا على جرح».

ما زلتُ أذكُرُ كلَّ شيءٍ من صباحي الضائعِ
الراقدُ الدامي المجرَّحُ فوق أرضِ الشارعِ
وَصدَى السياطِ المرهِقاتِ على الجبين الضارعِ

يا ثورةَ الإحساس في نفسي علامَ تَمَزُّقي
ألمي على الجسد الممزَّق بعضُ ضَعْفي الأحمقِ
وغداً سأدفِنُ ما تبَقَّى من حناني المرهقِ

يا ليتني عمياءُ لا أدري بما تَجْنيْ الشُرورْ
صمَّاءُ لا أصغي إلى وْقع السياطِ على الظهورْ
يا ليتَ قلبي كانَ صخْراً لا يعذِّبهُ الشعورْ

يا ليتني، ماذا تُفيدُك، يا حياتي، ليتني؟
أحلامُك النَضراتُ باتَت في قُنوط مُحْزنِ
لن يسمعَ القَدَر المدمِّرُ فأصرُخي أو أذْعنِي

يا نارَ عاطـفتى الرقيـقة، يا غـريبةُ فى البَـشَرْ
وَقْعُ السياطِ على الظهورِ أشدُّ من وقْعِ القَدَرْ
والحسُّ فى هذا الوجـودِ جـريمـةٌ لا تُغْتَـفَـرْ

لن تقتلى الشيطانَ فى الإنسان أو تُحيْى الملاكْ
وغداً ستطويك الليـالى فى دياجيـرِ الهلاكْ
وغدا سيأسُرُكِ التـرابُ فلا شعورَ ولا حَرَاكْ

ما كان أثقلَ عبءَ أحلامى وآلامى وأقسَى!
فـامـشى بنا نحـو الفَنَاء لعلَّنا نَـنْسَى ونُنْسَى
وليُسْـدَلِ الستر المقدّس، حَسْبُنا غمّـاً ويأسا

١٩٤٦-١٠-٢٤

نغمات مرتعشة

عُدْ، لم يَزَلْ قلبي نشيداً حالما
يشدو بحبِّكَ لحنُهُ المفتونُ
عُدْ فالكآبةُ أغرقَتْ بظلامها
روحي، فليلي أدمُعٌ وشُجونُ
عُدْ، لا تَدَعْ نفسي يعذبها الأسى
ويَعَضُّ فيها خافقٌ محزونُ
عُدْ فالحياةُ- إذا رجعْتَ- أشعّةٌ
ومشاعرٌ سِخْرِيّةٌ وفُتُونُ

خطواتُكَ اللاتي تباعَدَ رَجْعُها
في مسمعي، تحتَ الظلامِ الشاحبِ
كلماتُك اللاتي تلاشى وَقْعُها
وخَبَتْ بعيداً، في السُكونِ الراعبِ
بَسَماتُكَ اللاتي خَبَت ومَضَاتُها
في مُقْلتيَّ، مع النهارِ الذاهبِ
ذابت جميعاً، والستائرُ أسْدلتْ
في مَسْرَحِ الأملِ الجميلِ الغاربِ

ذهبَ النهارُ بشاعري، بنشيدِهِ
وبَقيتُ في غَسقِ الظلامِ القاتمِ
أرنو ولا شيءٌ يروقُ لناظري
وأصيخُ، أين مَلاحني ومَلاحمي؟
عُدْ، عدْ إلى روحي الغريبِ، فأدمعي
عصفت بأفراحي وقلبي الساهمِ
عُدْ يا نشيدي الشاعريَّ لمسمعي
ماذا يعوِّضُ عن صداكَ الحالمِ؟

حبّي الإلهيُّ النقيُّ ظلمتَه
ووفاءُ روحي الشاعريِّ العابدِ
قلبي الرقيقُ أسأتَ فهْمَ حنينه
ونشيدُ أحلامي وروحُ قصائدي
لم أدْرِ ماذا كان، إلا رعْشَةٌ
في روحيَ الولْهى وقلبي الشاردِ
وخلا المكانُ وعُدْتُ أسألُ وحشتي
عن طَيْفكَ الناسي وحُبّي الخالدِ

مـا زلتُ مـنذُ ذَهَبْتَ حَـيْـرَى فـى الدُجى

شـــهــــدَ الأسـى أنّى لزمتُ مكـانيــا

مـا زال روحى راعـــشـاً مـتـمــزقـاً

يسـتنطقُ الســرَّ الغـريبَ الخـافـيـا

وهمـى يصـــوّرُ لى خُطَاك ووقْـعَـهـا

فـإذا أصَــخْتُ صَـحَــوْتُ من أحـلامـيـا

لا شىءَ غـيـرُ الرّيحِ تَعْصِـفُ فى الدُجى

لا شىءَ غـيـــر تَنَهُّـــدى وبكائيــا

٥

١-١١-١٩٤٦

المقبرة الغريقة

«من ذكريات الفيضان المخيف الذى ألم ببغداد سنة١٩٤٦، هذه القصيدة تسجل فيها الشاعرة أثر سماعها بقصة مقبرة غمرتها مياه النهر المتوحش فى ماء عاصف».

فى ظُلمة الليلِ المُخيفِ الرهيبْ
وتحتَ هولِ العاصفِ الأهوجِ
قَبْرٌ على التلِّ وحيدٌ غريبْ
رانتْ عليه ظُلَّةُ العَوْسجِ

قبرٌ وحيدٌ لم تَنَلْهُ المياهْ
مُعتصمٌ بالقمَّة الساخرهْ
كأنَّه يرمُقُ أفْقَ الحياةْ
مُستهزئاً باللُّجَّةِ الدائرةْ

بالأمسِ قد كان هُنا عالَمٌ
يغمُرُهُ الموتُ بأستارِه
يهفو عليه العَدَمُ القاتمُ
فى وَجْمةِ الصَمْتِ وأسرارِه

مـقـبـرةُ أودعـهـا البـائسـونْ
أشـلاءَ أمـواتِهُـمُ الفـانيـه
يا جُـثـثـاً مـا كـفّنتْـهـا المَنُونْ
بغـيـرِ أطبـاقِ الثَـرى العـاريه

هذى الوجـوهُ الشـاحبـاتُ الجبـاهْ
وهـذه الأشـلاءُ والأعـيـنُ
طَفَتْ حَـيـارَى فـوق وجـه الميـاهْ
وعضّ فـيـهـا العَـدَمُ المخْـزنُ

يا نـهْـرُ لا تَقْسُ على الميّـتـينْ
حـسـبُكَ مـا سـبّبـتَـهُ من شـقـاءْ
حـسـبُكَ مـا شـرّدتَ من بـائسـينْ
وارفـقْ بـسُكّـانِ الـثَـرَى الأبـريـاءْ

روّعْتَ صـمْتَ الأنفُسِ الراقـدة
فى وَجْـمـةِ الموت وصَـمتِ الـقـبـورْ
يا رحـمـةً بالجُـثَثِ البـاردة
ولْيَكُ فى مـوجكَ بعضُ الـشـعـورْ

فـى كلِّ رُكْـنٍ من دُجَـى المقْـــبـــره
تَسْـــبَـحُ أجْـــســـادٌ وتطفـــو عـظامْ
والرّيـحُ فى صَـــيْـــحـــاتهـــا المُنَكَره
والـلـيـلُ مـــــا زالَ رهـيـبَ الـظـلامْ

يا لَـلْمـــســـاكـين، أحـــتّـى المـــاتْ
تَـلْحَـــقُـــــهم لَـعْنَةُ أيّامِـــــهِـمْ؟
مـــاذا جَنَـوْا من مُـبْـهِـجـات الحـيـاه
تـرَى ومـــا ألـوانُ أحـــلامِـــهِـمْ؟

حـــتّى الـرُقَـــادُ الـهـــادئُ الآمـنُ
يـأبـاهُـــم إيّـاهُ قَـلْـــبُ الـســنـيـنْ
يشـــهَـــدُ هـذا المنظَـرُ الســـاكـنُ
أيُّ سُـــهـــادٍ، أيُّ لـيلٍ حـــزيـنْ

يا ضَـــجَّـــةَ الإعـــصـــارِ لا تملئى
آفـــاقَ هذا الـعـــالـمِ المُشْـــتكـى
وأنـت يـا أمـــــواجُ لا تـهْـــــزئـى
بـذلـكَ الـطـافـى عـلـى وَجْـــــهـكِ

لم يُبْقِ منه الدودُ شيئاً يُرَى
ولم يَذَرْ منه الرَدَى باقيا
هذا الرُفَاتُ الكالحُ المُزْدَرى
قد كان بالأمس فتًى لاهيا

يَنْسجُ تحتَ الليلِ ثوبَ الضياءْ
ويَنْشُرُ الحبَّ على العالَمِ
جذلانَ لا يعرفُ معنى الفناءْ
مُسْتغرقاً فى نشوةِ الحالمِ

أهكذا تَفْنَى أغاريدُنا
ويهزأ الموتُ بأزهارها
وتملأُ الدنيا أناشيدُنا
يوماً، ونَثْوى تحت أحجارها

ما أفظَعَ المبدأ والمُنْتَهَى
ما أعمقَ الحزنَ الذى نحملُ
ترفعُنا الأحلامُ فوقَ السُّهَا
وتهدمُ الأيّامُ ما نأملُ

وهذه المقبرةُ المُظلمة
نهايةُ المَسْعَى، فيا لَلْشقاءْ
أبعد هذى الجنّة المُلهمة
نسقطُ، فوقَ الشوكِ، صَرْعى الفناءْ

بكيتُ للأموات طولَ المساءْ
وصُغْتُ من دمعى النشيدَ الحزينْ
وفى غد أرقُدْ تحتَ السَماءْ
قبراً سيبكى عندهُ العابرونْ

قبرٌ، على التلِّ، وحيدُ غريبْ
رانتْ عليه ظُلَّةُ العَوْسجِ
فى ظُلمة الليلِ العميقِ الرهيبْ
وتحت هولِ العاصفِ الأهوجِ

١٣-٥-١٩٤٦

عودة الغريب

قلبيَ الذابلُ الحزينُ الذي ما ت وذابتْ أفراحُهُ ومناهُ
قلبيَ الشاردُ المعذّبُ بالأحـ ـلام ما بين دمعه وأساهُ
ماَلهُ الآن خافقاً بندى الحبِّ يغنّى تحتَ النجوم هَوَاهُ
ويصوغُ المُنَى ويَرْجعُ للشا طئ جذلانَ مُرْسلاً نجواهُ

فى غمار الماضى دفنتُ دموعى وتبسّمتُ للغَدِ المراحِ
ظَمَأى لم يَعُدْ يعذِّبُ روحى وشرودى تحت الدُجَى والرِّياحِ
ذهبَ البحر لم يَعُدْ ماؤه المِلْـ ـحُ يُدَوِّى على مَسيلِ جراحى
ها أنا عندَ منبعٍ شاعريِّ الـ ـماءِ صافٍ هامتْ به أقداحى

ها أنا الآنَ زورقٌ حالمُ المجـ ـداف يَرْسو على رمالِ الضفافِ
قلبيَ الشاعريُّ ملاّحُهُ البا سمُ يشدو سرَّ الوجود الخافى
شَدَّ ما عذّبتْ أغانيهُ الغُرْ بةُ واشتاقَ فتنةَ الصَفْصافِ
أبداً فى عُرْض المياهِ ينادى الـ ـبحْرَ يا بحرُ طالَ فيكَ طوافى

أيُّها الطائفُ الغريبُ لقد عُدْ — تُ وهذى مفاتنُ الآجامِ
هى ذى الضَفّةُ الحبيبةُ يا ملاّ — حُ هذى شواهقُ الآكامِ
إنّها جنّةُ الحياة تلاقتْ — عندَها الذكرياتُ بالأحلامِ
فاهبط الآن وانْسَ أشباحَكَ السُّو — دَ وذكرى الماضى الحزينِ الدامى

يا غريبَ الأحلام إمْسَح بقايا الأ — مسِ والذكرياتِ والأحزانِ
أصبح الأمسُ صرْخةً فى حمَى الما — ضى طوَتْها ستائرُ النسيانِ
كلُّ أحزانه العميقات عادتْ — لفظةً ضمَّها سكونُ الزَّمانِ
أطفأتْها الأيّامُ فهى ظلامُ — ولهيبُ خابٍ وطيفُ فانِ

لا تُثِرْهُ دعْهُ يَنَمْ أبدَ الدهـ — ـرِ وعش أنتَ ضاحك الأهواءِ
أيّها الميّتُ الذى نبضَت فيـ — ـه معانى الحياة بعد الفناءِ
أيُّها الظامئُ الذى أبصَرَ النبـ — ـعَ قريباً بعدَ الصَدَى والشقاءِ
املأ الكأسَ آن للظمأ المُحْـ — ـرِقِ أن يرتوىْ بشهدِ الرجاءِ

ذلك الماردُ الحقيرُ ثَوَى فى — ظُلُمات الأمسِ البعيدِ وغارا
لن ترَاهُ الأمواجُ فى البحْر بعدَ الآ — نَ لن يملأَ النجومَ احتقارا
لن يُحيلَ الأحلامَ فيكَ دموعاً — ويعيدَ الأنغامَ هولا ونارا
إنّه الآنَ مُغْرَقٌ فى حمى المو — ج فلا تَخْشَ حقْدَهُ الجبّارا

والحـــيــاةُ الـتى تلقَّــتْكَ بالـزهــ ـــر تَـرنَّمْ بهـــا تلالاً وعُـــشْـبـــا
هَبْ لهــا يا مــلاّحُ قلبــاً مـن النو ر وروحــاً كـالشـعـر والحبَّ عَـذْبا
هَبْ لهــا ما ملكــتَ شوقــاً وأشعــا راً وعشْ للجــمــال روحــاً وقــلبــا
صُغْ لهـــا البـحْـــرَ كلَّهُ فى نشـــيـد أرضـعـتْـهُ النـجـومُ ضَـوءاً وحُـبّـا

عــادَ ذاكَ الغـريبُ يا مـعـبـدَ الحبِّ فـــمُـــــدَّ الجناحَ فــــوقَ أســـاهُ
إن يكنْ ضلَّ قلبُـهُ أمس فى البـحـ ـــر فـقــد كـفَّـرتْ دمـوعُ صِـبــاهْ
علَّمـــتْـهُ عــواصفُ الليل حبَّ الـ ـفـــجـــر فلْتلـمح السَّنا عـــيناهُ
ولتضعْ فى الماضــى البعيـدِ المجاذيـ ـــفُ وتلـك الريـاحُ والأمـــــواهُ

أنســه حـــبَّـــهُ الذى مـــاتَ وامنح قلبــهُ الشـاعـــرىَّ حُلْمـاً جــديدا
حسبُهُ ما أشـقـيـتَـهُ أمسِ بالذكـ ـرى فـهْـبـهُ الحـيــاةَ ظلاً رغــيــدا
بمعـــانيكَ قـــربُ النـجم والسُّـحْـ ـبَ لعَـيْنيــه والصِّـبـــا والخلودا
يا شـبــابَ الحـيــاةِ يــا فــرحـةَ الدنـ ـيـــا ويا بابَ نُبْـلهـــا المفــقــودا

١٤-١١-١٩٤٦

الغروب

هبط الليلُ وما زالَ مكانى
عند شطِّ النهْرِ، فى الصمْتِ العميقِ
شردتْ روحى، وغابتْ عن عِيَانى
صُوَرُ الحاضرِ والماضى السحيقِ
وامّحَى فى خاطرى ذكْرُ الزَمانْ
وتلاَشتْ ذكَرُ الدَهْرِ المُحيقِ
ليسَ إلا الحُزْنُ يمشى فى كيانى
وأنا فى ظُلْمةِ الليلِ الصديقِ

غَرِقَ الضوءُ وراء الأفقْ
وخلا العالَمُ من لون الضياءْ
ليس الأ رمَق فى الشَفَقِ
حائلُ قد كاد يمحوهُ الفَنَاءْ
وأنا تمْثالُ حُزْنٍ مُحْرقِ
وشَقَاءُ مُطْبِقُ فوقَ شَقاءْ
أرمُقُ الأفقَ بطَرْفٍ مُغْرَقِ
تائهٍ يطْوى دياجيرَ الفَضاءْ

رفَّ حـولى الليلُ والصـمْتُ الكئـيبُ
وتمشَّتْ فى كـيـانى الرَعَـشـاتُ
أىُّ مـعنىً هـاجَ فى نفـسى الغُـروبُ؟
أجـفلتْ فـى جَـسَـدى منه الحـيـاةُ
وَسـرَى فى مـسـمـعى هَمْسٌ غـريبُ
كـلُّـه هـولُ ورُعْـبُ وشَـكَـاة
واعـتـرانى خـاطرُ مُـشْجٍ رهـيبُ
وتَـجَلَّى لخـيـالاتى المـمـاتُ

ها أنـا وحـدى تُنَاجـينى هُـمـومى
وكـآبـاتى وأشـبـاحُ الـفَنـاءِ
كلُّ مـا حـولى مُـثـيـرُ للوُجـومِ
مَـصْـرَعُ الـشـمسِ وأحـزانُ المسـاءِ
عـبـثـاً أطردُ عن نفـسى همـومى
عـبـثـاً أرجـو شُـعـاعـاً من رَجَـاءِ
غَـرِقَـتْ أحـلامُ قلبى فى الغـيـومِ
وتلاشـت مـثل أحـلامِ الضـيـاءِ

أقْـفَـرَ العـالَمُ حـولى لا نشـيـدُ
من صـبىٍّ أو هُـتَـافُ أو حـفـيفْ
وخـلا شـاطئَ السـاجى المديدُ
ومَـشَتْ فى الجـوِّ أحـزانُ الخـريفْ
أنا والأمـواجُ واليـأسُ الشـديدُ
وانحـدارُ الشطِّ والظلُّ الوريفْ
وحـواليَّ ظلامٌ وركـودُ
ألقَيـا الحـزْنَ على حِسِّى الرهيفْ

من بعـيد أبْصـرُ الراعى الحـزينْ
يُرْجِعِ الأغنامَ فى صـمْتِ الغروبِ
مُطْرقـاً أتعَـبـهُ ركْبُ السنينْ
فـقـضـاها فى نحـولٍ وشُحـوبِ
هو والأغنـامُ حُـزنُ وسكونْ
وخُطىً فى مَسـمعِ الليلِ الرهيبِ
وأنا أرمُـقُهمْ غَـرْقَى الجُفُـونْ
تحْتَ أحـلامِ شـبابى وكروبى

وبعيداً فى الفضاء المدلهمّ
خفقةٌ من جُنحِ طَيرٍ عابرِ
فأتاه ظُلمةُ الليلِ الملمّ
وجبالٌ من سحاب ماطر

فسرى بين دياجير وغيم
كخيال فى فؤاد الشاعر
لحظةً، ثم توارَى فى الخِضَمّ
بين أمواجِ الظلامِ الغامرِ

آه ما أرهَبهُ الآنَ سكونا
لا أعى فيه سوى دقّات قلبى
صَمَتَ الكونُ ونام المتْعَبونا
وهْوَ ما زالِ صَدَى حُزنٍ وحُبّ

نَظَراتى لم تَزَلْ حُلماً حزينا
وخيالاتُ مسائى لم تَعُذْبى
طفقت تصعَدُ بى أفقَ السنينا
وترودُ الكونَ من شَرْقٍ لغَرْبِ

ونُبَاحُ الكلبِ فى الحقْلِ البعيدْ
رفّ فى سَمْعى ضئيلاً مُجْهَدا
مُوحشاً فى ظُلْمة الليلِ الوليدْ
غامضَ الوقْعِ، غريباً كالصَدَى
كلُّ صَوْت فى الدُجَى رُعْبٌ جديدْ
عندَ مَنْ قدْ كان مثلى مُفْرَدا
ذا فؤاد مُرْهَف الحسِّ شريدْ
دَفَنَ الأمسَ ولم يَرْجُ الغدا

ومياهُ النَهر تجرى فى شُحوبْ
تحتَ أكداسِ الغُيوم الجاثماتْ
وصَدَى طاحونة القَمْحِ الغريبْ
يُكْئب النفسَ بأشجَى النَغَماتْ
هكذا مرَّ على روحى الغُروبْ
غامضَ الظلِّ حزينَ الخطُواتْ
فوَدَاعاً أيُّها الجرْفُ الكئيبُ
ووَداعًا يا غِمارَ الظُلُماتْ

١-١٢-١٩٤٦

عاشقة الليل

يا ظلامَ الليلِ يا طاويَ أحزان القلوبِ
انظُرِ الآنَ فهذا شَبَحٌ بادي الشُحوبِ
جاء يَسْعَى، تحت أستاركَ، كالطيف الغريبِ
حاملاً فى كفِّه العودَ يُغنّى للغُيوبِ
ليس يَعْنيه سُكونُ الليلِ فى الوادى الكئيبِ

هو، يا ليلُ، فتاةٌ شَهِدَ الوادى سُرَاها
أقبلَ الليلُ عليها فأفاقتْ مُقْلتاها
وَمضَتْ تستقبل الواديْ بألحان أساها
ليتَ آفاقَكَ تدرى ما تُغنّى شَفَتاها
آه يا ليلُ ويا ليتَكَ تدرى ما مُنَاها

جنَّها الليلُ فأغرتها الدَيَاجى والسكونُ
وَتصبَّاها جمالُ الصَمْت، والصَمْتُ فُتُونُ
فنَضَتْ بُرْدَ نهارِ لفّ مَسْراهُ الحنينُ
وسَرَتْ طيفاً حزيناً فإذا الكونُ حزينُ
فمن العودِ نشيجُ ومن الليلِ أنينُ

إيه يا عـــاشـــقـــةَ الـليلِ ووادِيه الأغنّ
هوذا اللـيلُ صَـدَى وحيٍ ورؤيا مُـتَـمنّى
تَضْحكُ الدُّنيا ومـا أنتِ سوى آهة حُـزْنِ
فـخُذى العـودَ عن العُشْبِ وُضـمّيـه وغنّى
وصِـفى ما فـى المساءِ الحلْوِ مـن سِحْـر وفنّ

مـا الذى، شاعـرةَ الحيْرة، يُـغْرى بالمسـاء؟ ٠
أهى أحـلامُ الصَـبـايا أم خـيـالُ الشـعـراء؟
أم هو الإغـرامُ بالمجـهـولِ أم ليلُ الشـقـاء؟
أم ترى الآفاقُ تَسْتهويك أم سِحْرُ الـضياء؟
عـجبـاً شـاعـرةَ الصـمْتِ وقـيـثـارَ المسـاء

طيفُكِ الســارى شحوبٌ وجلالٌ وغـموضُ
لم يَزَلْ يَسْـرى خـيـالاً لَفَّه الليلُ العـريضُ
فـهـو يا عــاشـقـةَ الظُلْمـة أســرارُ تَفـيضُ
آه يا شـــاعـــرتى لن يُرْحَمَ الـقلبُ المهـيضُ
فارجِعى لا تَسْألى البَرْقَ فما يدرى الوميضُ

عَجَباً، شاعرةَ الحيْرة، ما سرُّ الذهُول؟
ما الذى ساقك طيفاً حالماً تحتَ النخيلِ؟
مُسْنَدَ الرأسِ إلى الكفّينِ فى الظلِّ الظليلِ
مُغْرَقاً فى الفكر والأحزانِ والصمت الطويلِ
ذاهلاً عن فتنةِ الظُلْمة فى الحقلِ الجميلِ

أنصتى هذا صُراخُ الرعْد، هذى العاصفاتُ
فارجعى لن تُدْركى سراً طوتْهُ الكائناتُ
قد جَهلْناهُ وضنّتْ بخفاياهُ الحياةُ
ليس يَدْرى العاصفُ المجنونُ شيئاً يا فتاةُ
فارحمى قلبَك، لن تَنْطق هذى الظُلُماتُ

١٩٤٥-٤-٤

فى وادى الحياة

عُـــدْ بى يا زورقى الـكليـــلا فلن نَـرَى الشـاطئَ الجـمـيـلا

عُـدْ بى إلـى مَـغْـبـدى فـإنّى سـئـمتُ يا زورقى الرحـيـلا

وضـــقتُ بالموج أىَّ ضـيقٍ ومـا شَـفَى البـحـرُ لى غليـلا

إلامَ يــا زورقــى المُـعَـنَّـى نرجـو إلى الشـاطئ الوصـولا؟

والموجُ مـن حَـولِنا جـبـالٌ سـدت على خـطونا السـيـلا

والأفق مـن حـولنا غـيـوم لا نجْمَ فـيـه لـنا دليـلا

كـم زورقٍ قـبلَنـا تـولّى ولم يَـزَلْ سـادراً جَـهُـولا

فـعـد إلى مـعـبـدى بقلبى وحـسْبُ أيامـنـا ذُهـولا

حـسبُكَ يـا زورقى مَـسـيـراً لن يُـخْـدَعَ القـلبُ بالسَّـرابِ

وارجعْ، كـمـا جئتَ، غـيرَ دارٍ قـد حَلَّك الجـوُّ بـالسَّـحـابِ

وملَّ مــجْـدافُكَ المُعَنَّى تـقلُّبَ الموجِ والـعُـبَـابِ

ولم يَـزَلْ مـعـبـدى بـعـيـداً خلفَ الـدياجـيـرِ والـضَّـبَـابِ

يَشُـوقُنى الصـمْتُ فى حِـمَـاهُ وفـتـنةُ الأيـكِ والـروابى

عُـدْ بىَ يا زورقى إلـيـه قـد حـانَ، يـا زورقى، إيـابى

مـا كـفكف البـحـرُ من دموعى ولا جَـلاَ عنّىَ اكـتـئـابى

فـفـيمَ فى مـوجـهِ اضطرابى وأيـنَ، يا زورقى، رِغَـابى؟

تائهــــةٌ، والحــيـــاةُ بحْـــرٌ ... شــاطئُــهُ مُـبْـعــدُ ســحــيق
تــائــهـــــــــة والــظـلامُ داجٍ ... والصـمْتُ تحت الدُّجَى عــمــيق
يـا زورقـى آه لـو رَجَـــــعْـنـا ... من قـــبلِ أن يخـــبــوَ البـــريقُ
انــظُـرْ حـــــوالَيْـكَ، أىُّ نَـوْء ... تجــــمَــــدُ من هولـه العــــروقُ
البـــحــــرُ، يـا زورقى جُنونٌ ... ومـــــوُجــــهُ ثـائرٌ دَفـــوقُ
وكـلَّ يـومٍ لــه صــــــريعُ ... فى هَـجْـعــةِ الموتِ لا يُـفــيقُ
وأنــتَ فـى المــوج والــديـاجــى ... يـا زورقى فـى غـــد غـــريقُ
فـــعُــدْ إلى الأمـس، عُــدْ إليــه ... قـــد شـــاقنـى أمـــسىَ الـوريقُ

مـــاذا وراء الحــيــاة؟ مـــاذا؟ ... أىُّ غُــــمــوض؟ وأىُّ ســـرٍّ؟
وفــيمَ جـــئنا؟ وكــيـف نمضى؟ ... يـا زورقى، بـل، لأىِّ بـحـــــر؟
يـدفــــــعُـكَ الموجُ كـلَّ يـومٍ ... أيـنَ ترى آخــــرُ المقَــــرِّ؟
يــا زورقـى طــال بــى ذهـولــى ... وأغــرقَ الـوهمُ جـوَّ عُــمْـرى
أسْــرى كــمــا تـرسمُ المقــاديرُ ... لـى إلى حــــيــثُ لستُ أدرى
شــــريدةٌ فـى دُجى حـــيـــاتى ... ســـادرةٌ فى غُـــمــوضٍ دَهْرى
فـــخـــافـقٌ شـــاعــــرٌ، وروحٌ ... قـــال لهـــا الدَهْـر لا تَقَـــرِّى
ونـاطَـهـــــا بالـذُرَى تُـغـنّـى ... وتنـظِمُ الـكونَ بـيتَ شِـــعْــرِ

١٢-٦-١٩٤٥

أشواق وأحزان

أين منّى حـرارةُ الأمسِ، والحـا ضرُ يمشى بين الأسَى والخمودِ؟
أسـفـاً للمـاضى الإلهىِّ هل مـا تتْ أغانيه فى فـؤادى الوحيـد؟
آه يا شـاعـرى لماذا تهـاوَيْـ ـتَ بعيداً وراءَ أمسى البعيدِ؟
وأنا لـم أزلْ صـلاةً لعـينَيْـ ـكَ وإعصار لهـفـةٍ وشُـرودِ

آه هل غـابَ عن ظلام حـيـاتى كلُّ مـا كـان لهـفـةً وفُـتونا؟
كـيف ضـاع الحبُّ الإلهىُّ يا طا ئرىَ الحرَّ فـانفـجرتَ ظُنونا؟
وأنا لـم أزَلْ فـؤاداً على الشـو قِ يدارى غـرامَـهُ المدفـونا
ليـتنى كنتُ بُحْتُ يا حُلُمَ الرو حِ وأعلنتُ حـبِّى المكنونا

كـيف مرّت أيّامُنا كـيف مـرَّت بين فكٍّ الأشـواقِ والأحـزانِ؟
ملء قـلبى وقلبكُ الحبُّ والشّـوْ قُ ولكن نلوذ بالكتـمانِ
كلّمـا حـدّثتكَ عـينـاى بالحبِّ أعـاقبْ عـينىَّ بالحِرْمانِ
كيفَ يا شاعرى كتمنا ولم يَعْـ ـصِ كيوبيدَ قبلَنا عاشقانِ؟

كيف ضاعتْ عواطفى؟ كيف أنسَوْ كَ غرامى وحَيْرتى ووفائى؟
ملئوا قلبَكَ النبيلَ أباطيـ ـلَ وصاغوا كواذبَ الأنباء
وقضَيْتُ الأيام أذرف إحسا سى دموعاً وأستلذُّ شَقائى
لا لقاءُ غير الظُّنونِ ولا فر حةَ غير الخيالِ والأصداءِ

أنتَ أنتَ الذى احتفظتُ بذكرا هُ فلم يَنْسَها فؤادى الوفيُّ
كيف غابتْ عن ذكرياتكَ أحلا مى وشوقى وحُبّيَ الروحيُّ
شَهِدَ العودُ كيف علّمتُهُ حُبَّـ ـكَ مثلى فهو المحبُّ الشقيُّ
شَهِد المعبدُ الكئيبُ لحبّى أنّ حُبّى مخلّدٌ أبَدىُّ

يا نشيدى متى ستأتيكَ ألحا نى فتُصغى إلى هُتافات حبّى؟
فيمَ أقضى الأيّامَ أكتُمُ أشوا قى وقد ضاقَ بالعواطفِ قلبى؟
أبداً نلتقى فأعرضُ حَيْرى ولقلبى الكئيب أشواقُ صبٍّ
إنّها الكبرياءُ تمتلكُ الرو حَ فيبدو المُحبُّ غيرَ محبٍّ

ضاعَ عُمْرى الحزينُ فى معبد الُحزْ نِ وأذوتْهُ لهفتى وشكاتى
لم يزلْ حبّىَ العميقُ عميقاً لم تزدْهُ السنينُ غيرَ ثَبَاتِ
لم أزلْ تضحكُ النجومُ وتبكى وتغنّى على صَدَى آهاتى
لم أزلْ فى الحياةِ ورقاءَك الحيْـ ـرى وما زلتَ أنتَ حُلْم حياتى

١٥-٣-١٩٤٥

مدينة الحب

فى عُمْق صحراء الحياة، هناك فوق لَظَى الرمالْ
حيثُ الرياحُ الداوياتُ، مدينةٌ بين التِلالْ

فى قلبها نهرٌ تُحيط به المفاوزُ والصخورْ
وشواطئٌ لا ظلَّ فيها، لا خمائلَ، لا عطورْ

الماءُ يبدو وادعاً ووراءَ الألمُ العميقْ
أمواجُهُ السُمُّ الزُعَافُ وإن بدا حُلْوَ البريقْ

كم زورق خدعته جنّياتُه ورسومُهُ
كم حالمٍ أودتْ به أمواجُهُ وسُمومُهُ

والشاطئُ الثانى يلوِّحُ بالجمال وبالفتون
حتى إذا قاربتَهُ أبصرتَ إعصارَ المَنُون

لا شيءَ غيرُ الشوكِ والأشلاء فوق صُخورِهِ
لا صوتَ يُسْمَعُ غيرُ ضجَّةِ دودِهِ ونسورِهِ

اللّيلُ فيه مخاوفٌ ووساسٌ لا تَخْمَدُ
أبداً يزلزلُهُ صُراخُ غامضُ وتنهُّدُ

يا طارقَ البابِ المروِّعِ عُدْ ولا تهبطْ هُنا
هذا الجمالُ سيستحيلُ دماً وماءً آسنا

هذي الشواطئُ، كلُّ ما فيها أسىً وتحسُّر
فحذارِ منها فالسُّمومُ مُعَدّةٌ والخنْجَرُ

عيناكَ لا تسكُبْ بريقَهما على ظُلُماتها
وصِباكَ لا تدفِنْ مُناهُ في شقاءِ حياتِها

وفؤادُكَ الخفّاقُ صُنْهُ من قَذَى آثامها
ماذا رأيتَ من الحياةِ لتحتمي بظلامها؟

عُدْ، عدْ إلى لَهَبِ الصحارى وانجُ من حَمَمِ المدينة
لا تُلْقِ قلبَكَ في اللظَى وأصِخْ لشاعرةٍ حزينه

١٩-٧-١٩٤٦

إلى عينى الحزينتين

عينىَّ، أىُّ أسىً يرينُ عليكما
ويثيرُ فى غَسَقِ الدُجَى دمعيكما؟

إنى أرى خلفَ الجفُون ضراعةً
تستنطقُ الكونَ العريضَ المبْهما

أفقانِ تحت الليلِ ألمحُ فيهما
قَطَراتِ ضوءٍ يرتشفنَ الأنجما

الكونُ مبتسمُ فأيّةُ لوعةٍ
يا مقلتىَّ تلوحُ فى جَفْنيكما؟

مسكينتانِ، رأيتُما ما لا يَرَى
جيلٌ أقام على الضلال وحَوَّما

جَهِلَ الحقائقَ فى الحياة، فلم يُطقْ
عن زيفها هَرَباً وعاش مهوِّما

مسكينتان كتمتُما حُمَم الأسى
فأبى تأوُّهُ خافقى أنْ تكتما

فإذا الدموعُ غشاوةٌ رَّفتْ على
جَفْنيكما، سيلاً سخيناً مُفْعَما

ورأيتما، خَلَلَ الدُموعِ، مفاتنَ الـ
ـماضى وطاف الشوقُ فى أفقيكما

عبثاً تصوغان التوسّلَ فى الدُجَى،
قلبُ القضاء قَضَى بألا تنْعَما

عبثاً، فيا عينىَّ لا تتضرَّعا،
لا شىءَ يَرْجِعُ بالجمالِ إليكما

حسبى وحسبُكما الرُضوخُ لما قَضَى
قلبُ الليالى فارضخا واستسلما

كم حالمٍ من قَبْلِنا فَقَدَ المنَى
فَقَضى الحياةَ لوحدِهِ متجهّما

يرَعى الليالي مانحًا ظُلُماتها
روحاً مجنحةً وقلباً مُلْهَما

عينيَّ، يا سرَّ الطبيعة، حَدِّثا
ماذا وراءَ الكائناتِ رأيتُما؟

رفعتْ دياجيرُ الحياة ستُورَها
لكما وأبدتْ سرَّها المُسْتَبْهما

هاتا حديثَ الموت، هاتا سرَّهُ
قد آن، يا عينيّ، أن تتكلما

ما شاطئُ الأعراف؟ ما ألوانُهُ؟
ما سرُّهُ الخافى؟ صِفاهُ وتَرْجما

فى صدرىَ الخفّاق قلبٌ راعشٌ
ما زالَ صَبّاً بالمفاتن مُغْرَما

لولاهُ، يا عينيَّ، ما غنّيتُما
بهَوَى الحياةِ ولا أصابكما الظَمَا

عُــذراً إذا حُــمّـلتُــمــا حُــزْنَ الـدُنا
لولاىَ، يـا عــينىً، مــا حُــمّـلتُــمــا

وكــفى فــؤادى، فـى الحــيــاة، شَــقــاوةً
أنّى جـنيتُ، مـع الحــيـــاةِ، علـيكمـــا

١٩٤٥-٦-٢٥

خواطر مسائية

إذا زَحَفَ الليلُ فوق السُهُوبْ
ومرَّتْ على الأفق كفُّ الغيومْ
ولم يَبْقَ غيرُ السكون الرهيبْ
ونام الدُجَى تحت جُنْح الوجومْ

ولم يبقَ إلا نُوَاحُ اليمامْ
وهمسُ السواقى وأنّاتُها
ووقعُ خُطَى عابرٍ فى الظلامْ
تمرُّ وتخفتُ أصواتُها

جلستُ أناجى سكونَ المَسَاءْ
وأرُمقُ لونَ الظلامِ الحزينْ
وأرسلُ أغنيتى فى الفضاءْ
وأبكى على كلِّ قلبٍ غبينْ

أصيخُ إلى هَمَسات اليمامْ
وأسمعُ في الليلِ وقْعَ المطَرْ
وأنّات قُمْريّة في الظلامْ
تُغنّي على البُعْدِ بين الشَجَرْ

وآهات طاحونة، من بعيدْ
تنوحُ المساءَ وتشكو الكَلالْ
تمرُّ على مسمعي بالنشيدْ
وتفتأ تصدَحُ خلفَ التلالْ

أصيخُ ولا صوتَ غيرُ الأنينْ
وأرنو ولا لونَ غيرُ الدُجَى
غيومٌ وصمْتُ وليلُ حزينْ
فلا عَجَبُ أن أحِسَّ الشَجَا

رأيتُ الحياةَ كهذا المساءْ
ظلامٌ ووحشةُ جوٍّ كئيبْ
ويحلُمُ أبناؤها بالضياءْ
وهمْ تحت ليل عميقٍ رهيبْ

طبيعتُها أبداً باكية
فصمتُ الدُجى وأنينُ الرياحْ
وتنهيدةُ النَسَمِ السارية
ودمعُ النَدَى فى عيُونِ الصباحْ

وأبصرتُ عند ضفاف الشقاءْ
جموعَ الحزَانى وركْبَ الجياعْ
تُشرّدُهم صَرَخَاتُ القضَاءْ
وما أرسلوا هَمَساتِ الوَدَاعْ

وأصغيتُ لكن سمعتُ النشيجُ
يُدوّى صَدَاهُ على مَسمعى
وراءَ القصورِ وفوقَ المروجْ
فمن يا ترى يتغًنى معى؟

سأحملُ قيثارتى فى غدِ
وأبكى على شَجَنِ العالمِ
وأرثى لطالعهِ الأنكدِ
على مسمع الزمنِ الظالمِ

٢٤-١١-١٩٤٥

التماثيل

«هدية إلى قائمة الأسماء الغامضة المتطفشة التى
جاءت فى سفر التكوين من كتاب العهد القديم».

قد سئمتُ التفكير يا ليلى السا جى وألقيتُ بالكتابِ الحبيبِ
لم تَعُدْ هذه الصحائفُ توحى لى بغيرِ الحزنِ العميقِ المذيبِ
فهى صوتُ الآبادِ يحملُهُ الما ضى الى قلبىَ الشَجى المشبوب
فيُدوّى فى عمق نفسىَ صوتُ الـ ـعَدَمِ المرِّ والفَنَاءِ الكئيبِ

أسفاً يا حياةُ ما هذه الأسـ ـماءُ؟ ماذا قد كانَ من أهليها؟
كيف مرَّتْ أيّامهم ليتَ شعرى؟ أترى أدركوا السَعَادةَ فيها؟
أم ترى لم يكنْ لهم من جَنَاها غيرَ كأسٍ من سُمِّها رَشَفوها؟
وطوَوْا لُجَّةَ الحياة سراعاً ثمّ ألقَوْا أعباءها ونَسُوها

أسلموا للترابِ والموتِ والظُلْـ ـمة تلكَ القلوبَ دونَ رجاءِ
وطوَتْهم يدُ الزمانِ ولم تَبْـ ـتبقِ منهم شيئاً سوى الأسماءِ
آه يا موتُ يا مقادرُ يا تا ريخُ رفقاً بأنفُسِ الأحياءِ
أكذا يُسْدَلُ السِّتارُ على الأعـ ـمارِ؟ يا للأحزانِ يا للشّقاءِ

ليتَ كفٌّ النسيانِ قد مَحَت الأسـ ـماءَ من قبلُ ليتَها لم تَصنْها
ليتها لم تَدَعْ على صَفَحات الـ ـكُتْبِ ظلاً منها يحدِّثُ عنها
تركتْها سُخْريَةً في فم الدهـ ـرِ وهُزْءاً من الحياة ومنها
يا حياةً همِنا بها وهْيَ ليل يأمُرُ الموتُ في دُجَاهُ ويَنْهَى

أيُّهذي الأسماءُ يا من تبقَّيْـ ـتِ تماثيلَ ليسَ فيها حياةُ
أنت يا مَنْ بالأمسِ كنتِ شُعوراً وقلوباً تَشُوقُها النَغَماتُ
كلُّ لفظٍ وراءَ أحرفهِ مَعْـ ـنًى حياة أتى عليها المماتُ
كلُّ لفظٍ قلبٌ مَشَى تحتَ ضوء الـ ـشمسِ يوماً وملؤهُ الرَغَباتُ

واستحالت تلك القلوبُ رَمَاداً واستحالتْ أعمارُها ألحانا
كلّ حيٍّ مَشَى به الأهلُ والأصـ ـحابُ للقبرِ يائسينَ حَزَانَى
وتصدَّى للذكريات الحزينات فتىً شاعرٌ يذوبُ حنانا
فشَدَاها أغنيّةً ظنّها تُبْـ ـقى حياةَ الموتى وتعدو الزمانا

آه يا للمخدوعِ قد بقى اللحـ ـنُ ولكنْ أينَ الذينَ شداهم؟
أينَ ألحانُهم؟ وأين أماني عمْرهم؟ أو حقولُهُم وقُرَاهم؟
أينَ ما حدَّثوا به الليلَ والفجـ ـرَ؟ وأينَ ابتهاجُهم وأساهم؟
أسفاً شاعري! لقد بادَ مَوْتا كَ وأبقَيْتَ في الوَرَى ذكراهم

مـا تُفيـدُ الذكـرى وقد خَبَت الألـ ـحانُ واستسلمتْ لأيدى السكونِ؟
واستحال الأحياءُ فى الكُتْبِ أسما ءَ تُثـيــرُ الأسَى لـقلبى الحـزينِ
لستُ أدرى مـاذا حـوَى كلُّ لفظ من مـعــانٍ غــابتْ وراءَ السنينِ
لسـت أدرى إلا أسـاىَ وحُـزْنى لضـحايا الماضى وصرْعَى المنونِ

وأنا يا حـيــاةُ مـاذا سـألقَى؟ هل سـأغدو لفظاً جَفَـتْهُ المعـانى؟
هل سـتطوينىَ الليــالى وتُلْقى فـوق عُـمْرى دياجـرَ النسـيـانِ؟
وغــداً يـطفئُ الزَّمــانُ ســراجى ويُضـيعُ الرَّدى صَـدَى ألحـانى؟
ثم أغــدو بينَ التـمــاثيلِ تمـثـا لاً؟ وأُمْـحَى من الوجـودِ الفـانى؟

آه لا لا أُريـدُ فلتــرحمِ الأيّا مُ دمـعـى وشَـقْـوتـى واكـتـئـابى
وليكنْ من لحنى الحـزينِ صـدىً با قٍ بسَـمْـعِ السنيـنِ والأحـقـابِ
رحـمـةً لا تكنْ دمـوعى الدَفُـوقـا تُ رثاءً مـبـكّراً لـشــبــابى
وليُسَـجَّلْ على ضـريحىَ مـا يُبْـ ـقى شـبـابـى وإن أكن فى التـرابِ

هكذا ينـتـهى شـعـورى بحـرما نى وأنسَى مـأسـاةَ عُمْرى الخـادعْ
وأعــزَّى بأنّ فى الـكون من قـلـ ـبى بقــايا مـن الأسَى والمـدامعْ
ويقــولونَ: ذلكَ اسـمُ فـتــاة طـالما غـنّت الـنجــومَ الـلوامعْ
فـــسلامُ على أسـاها وذكـراً ها سـلامُ على صِبَـاها الضـائعْ

٣-٦-١٩٤٦

ذات مساء

ثورة مـن ألـمٍ، مـن ذكـريـاتِ
خلفَ نـفـسى، ملء إحـسـاسى العـنيفِ
وجُـمـوحٌ فى دمى، فى خَلَجَـاتى
فى ابـتـسـامـاتـىَ، فى قلبـى اللهـيفِ

إن أكنْ أبـسِمُ كـالطـفلِ الـسـعـيـدِ
فـابتـسـامـاتـىَ وَهمٌ وخِـداعْ
إن أكـنْ هـادئـةً، بـيـن الـورودِ
فـفـؤادى فى جُنونٍ وصِـرَاعْ

أىُّ مـأسـاةٍ تَراها مُـقْلـتـايا!
أىُّ حُـزْنٍ عـاصـرٍ فـى نَظَراتى!
جَـمَـدَتْ فـوق شـقـائى شَـفَـتـايا
وانحـنتْ كـفَّـاىَ تحت الـرَعَـشَـاتِ

لا تَسلْني عن خيالاتي ولحني
فالدجى الآنَ بغيضٌ في عيوني
أينَ ألقى بَصَرى الباكي وحُزْني
إن أنا حولْتُ عن كفّي عُيوني؟

أينَ أرنو؟ كلَّما حوّلتُ عيني
طالعتْني صورةُ الوجهِ اللهيفْ
ذلكَ الوجْهُ الذي ألهبَ فنِّي
بمعاني الشِعْر والحبِّ العنيفِ

أيّها الغادرُ، لا تنظرْ إليّا
قد سئمتُ الأمل المُرَّ الكَذُوبا
حسْبُ أقداريَ ما تَجْني عليّا
وكَفى عُمْريَ حُزْناً ولهيبا

فيم أبقى الآن حَيْرَى في مكاني؟
آه لو أرجعِ، لو أنسَى شقائي
أدفنُ الأحزانَ في صَدْرِ الأغاني
وأناجي بالأسى صمْتَ المَساءِ

ليتنا لا نلتقى، ليتَ شَقائى
ظلَّ ناراً، ظلَّ شوقاً وسُهَادْ
يا دُموعى، أىُّ معنىً للّقاء
إن ذَوَى الحبُّ وأبلاهُ البعادْ

أيّها الأقدارُ، ما تبغينَ منّا؟
فيمَ قد جئت بنا هذا المكانا؟
آه لو لم نكُ يا أقدارُ جئنا
ها هُنا، لو لم تَقُدْنا قَدَمانا

ما الذى أبقيت فى قلبى الجريح
ليس إلا الألمَ المرَّ الشديدا
لم يَعُدْ فى جسمىَ الذاوى وروحى
موضعُ يحتملُ الجرْحَ الجديدا

أكذا تنطفئ الذكرى؟ ويَفْنى
حبّنا؟ والأمَلُ الشعرىُّ يخبو
أكذا تذبلُ آمالىَ حُزْنا
وهى أشعارُ وأنغامُ وحبٌّ؟

خَدَّرَ الحزنُ حياتى وطواها
لم تَعُدْ تَعنينىَ الآنَ الحياةُ
أبداً ينطقُ باليأسِ دُجَاها
وتُغنّى فى فَضَاها العاصفاتُ

لم يَعُدْ من حُلُمى غيرُ ظلالِ
من أسىً مرَّ على وجهى المريرِ
آه لا كان بُكائى وخَيالى
أيّها الليلُ، ولا كانَ شعورى

والتقينا، لا فؤادُ يتغنّى
لا ابتسامُ رسمتْهُ الشَفَتانَ
لم يَعُدْ إحساسُنا شعراً وفنّاً
ليتنا ضِعْنا وماتَ الخافقانِ

لم يعدْ فى نفسىَ الولْهى مكانُ
لأسىً أو فرحةٍ أو ذكرياتْ
أىّ معنىً للمُنى؟ فاتَ الأوانُ
وذَوَتْ عيناىَ، تحتَ العَبَرَاتِ

والتـقـينا في الدُجَى، كـالغـرَباء
تحتُ جُنح الصـمت يطوينا الـوجـومَ
كلُّ شيء ضـاحك تحتَ السـمـاء
وأنا وحـدي تـذوبني الهـمـومُ

هكـذا يا ليلُ صـوّرتُ شـقـائي
في نشـيـد من كـآباتي وحـزني
قـصّـةٌ قـد وقـعَتْ ذاتَ مـسـاء
وَحـوَتْ روحي وأحـزاني ولحني

١٩٤٦-٥-٢

جزيرة الوحى

خُذْنى إلى العالم البعيدِ
يا زورقَ السِحْر والخلودِ

وسِرْ بقلبى إلى ضِفافٍ
توحى إلى القلبِ بالقصيدِ

جزيرةُ الوَحْى، من بعيد،
تلوحُ كالمأملِ البعيدِ

الرملُ فى شطِّها نَدىٌّ
يرشَفُ من دجلةَ البَرُودِ

والقَمَرُ الحُلوُ، فى سَماها،
أمنيّةُ الشاعرِ الوحيدِ

فلْتَسْرِ يا زورقى بروحى
قد آنَ أن يستفيقَ عودى

وآنَ للشعر أن يُغنِّي
بالحُلم الضاحكِ الشَرُودِ

حُلمي، وقد صغتُهُ نشيداً
يهشُّ، من سِحْرِه، وجودي

شاعرتي، حدِّقي، فهذي
جزيرةُ الشِعْر والنشيدِ

لاحتْ، على البعْد، ضَفَّتاها
أمنيِّةَ العالَم الجديدِ

إن لَهَتِ المقلتانِ عنها
صاحت بها الأمنياتُ: عودي

فَلْتبسمي، يا ابنةَ الأغاني
للشاطئِ الساحرِ المديدِ

ولْتُوقفي الزورقَ المُعَنَّى
تحت شُعَاعِ السَنَا البديدِ

العـــودُ والـشــــغْـــــرُ والأمــــانى،
شـــاعـــرتى، فــــاضْـــــدَحى وزيدى

قـــد ضَـــحكَ الـعُــمُـــر واســـتنامتْ
عـــــواصَـفُ الـيـــــأسِ والنـكـودِ

وانـقـلبَ الـيـــــأسُ بـشْـــــريـات
وأمـنيـــــاتٍ، فــــأيُّ عــــيـــــدًا!

١٩٤٤-٩-٥

على وقع المطر

أمطرى، لا ترحمى طيفىَ فى عُمْقِ الظَلامْ
أمطرى صُبِّى على السيلَ، يا روحَ الغَمَامْ
لا تُبَالى أن تُعيدينى على الأرضِ حُطَامْ
وأحيلينى، إذا شئتِ، جليداً أو رُخَامْ

اتركى ريحَ المساءِ المُمطرِ الداجى تُجَنُّ
ودعى الأطيارَ، تحت المطر القاسى، تئنُّ
أغرقى الأشجارَ بالماء ولا يُحْزنك غصْنُ
زَمْجرى، دوِّى، فلن أشكوَ، لن يأتيْك لحنُ

أمْطرى فوقى، كما شئتِ، على وجهى الحزين
لا تُبالى جَسَدى الراعشِ، فى كفِّ الدُجونِ
أمطرى، سيلى على وجهىَ، أو غَشِّى عيونى
بلِّلى ما شئتِ كّفىَّ وشَعْرى وجبينى

أغرقي، في ظُلْمة الليلِ، القُبورَ الباليه
والطمي، ما شئتِ أبوابَ القُصورِ العاليه
أمْطري، في الجبَلِ النائي، وفوقَ الهاويه
أطْفِئي النيرانَ، لا تُبقي لحيٍّ باقيه

آه ما أرهَبَكِ الآنَ، وقد ساد السكونْ
غيرَ صوتِ الرِّيح، في الأعماقِ، تدوي في جُنون
لم تَزَلْ تَهْمي، من الأمطارِ، في الأرض، عُيونْ
لم يَزَلْ قلبي حزيناً، تحت أمواجِ الدُجون

أيُّها الأمطارُ، قد ناداكِ قلبي البَشَريُّ
ذلك المُغْرَقُ في الأشواقِ، ذاك الشاعريُّ
اغسليه، أم ترى الحزْنُ حِمَاهُ الأبديُّ
إنّه، مِثلَكِ يا أمطارُ، دفّاقٌ نقيُّ

أبداً يسمعُ، تحت الليلِ، وقْعَ القَطَراتِ
ساهماً يحلمُ بالماضي وألغازِ المماتِ
يسألُ الأمطارَ: ما أنتِ؟ وما سرُّ الحياةِ؟
وأنا، فيمَ وجودي؟ فيمَ دمعي وشكَاتي؟

أيهـا الأمطارُ ما مـاضيك؟ من أين نبـعتَ؟
ابنةُ البـحـرِ أم الـسُـحْبِ أم الأجـواء أنتَ؟
أم تُرَى من أدُمعِ الموْتَى الحزَانى قد عصرْتَ؟
أم دموعى أنتِ يا أمطارُ فى شَذْوى وصَمْتى؟

مـا أنا؟ ما أنت يا أمـطارُ؟ ما ذاك الخِضَمُّ؟
أهُوَ الواقعُ مـا أسـمَعُ؟ أمْ صـوتُكَ حُلْمُ؟
أىُّ شىء حـولنا؟ ليـلُ وإعـصـارُ وغـيمُ
ورعــودٌ وبـروقُ وفـضــاءُ مُـدْلـهِمٍّ

أسفـاً لستُ سوى حُلْمٍ على الأرضِ قصـيرِ
تَدْفِنُ الأحـزانُ أيَّامى ويـلهـو بى شُـعورى
لستُ إلا ذرةً فى لُجَّـةِ الدهـرِ المُغَــيـرِ
وغـداً يجرفُنى التيَّـارُ، والصمْتُ مـصيرى

وغـداً تدفـعُنى الأرضُ سَـحَـاباً للـفـضـاء
ويُذيـبُ المَطَرُ الدفَّـاقُ دمــعى ودمــائى
مــا أنا إلا بقــايا مطرٍ، مـلءَ السـمــاء
تَرجعِ الـريحُ إلى الأرضِ به، ذاتَ مســاء

أمْطرى، دوِّى، اغلبى ضجَّـةَ أحزانى ويأسى
أغـرقـينى، فلقـد أغـرقتُ فى الآلام نفـسى
إملئى كـأسىَ أمطاراً فـقـد أفـرغتُ كـأسى
واحْجُبى عنى دُجَى أمسى فقد أبغضتُ أمسى

١٩٤٦-١٢-٩

شجرة الذكرى

مــــررتُ بهــــا فى المســـاء الدَجِىّ
فـــــألقـــيتُ رَحْلىَ فى ظلّهـــــا
وحـــدّقتُ فى خُــضْــر أوراقـــهــا،
وروحى الكئـــيـــبــــةُ فى لـيلـهـــا
فـــهـــاجتْ لقلبى دُجى الذكـــريات
وأتـرعـتُ لحـنىَ مـن ويـلـهـــــا
وصـــيَّـرتُ مُــتّكَأى ســـاقَــهـــا
وطافتْ شــجــونى من حـــولهـــا

تـذكـــــرتُ، والقـلـبُ فى حُـــزْنِه
وقـــوفىَ، فى ظـلِّهـــا الســـاحـــرِ
كـــأنْ لـم تمرَّ الـلـيـــالى الطـوالْ
عـلى أمـــسى المبـــعـــدِ الدابرِ
وقـفـتُ أكـفكـفُ دمـعى الســخـين
وأصـــرُخُ مـن ألمى الآســـــرِ
أقصُّ على ظلِّهــا قــصَّــتى
وقـــصَّـــةَ شـــاعـــرىَ الغـــادرِ

قصصتُ عليها الحديثَ الكئيب
وفي يدَي الشوكةُ القاطعه
أمُرُّ بها، والأسَى غالبى،
على ساقها البرَّةِ الوادعه
فيا ليَدى جَرَحتْ ساقَها
وجذّتْ أزاهيرَها اللامعه
كأنى بذاك جرحتُ الحياه
وعاقبتُ أقدارَها الخادعه

ومرَّتْ علىَّ السنينُ الطوال
وطالَعَنى يومىَ الخالدُ
فأبصرتُ فيه أساىَ البعيد
يُحِسُّ به قلبىَ الواجدُ
فقلتُ لقلبىَ: هيا نَطفْ
بها، ولْيَثُرْ حزُنكَ الهامدُ
سنسألُها اليومَ عن جرْحها
ألم يَشفِه الزَمَنُ الآبد

وعُدتُ إليها، كأنْ لم تمرَّ
علىَّ السنين وأقدارُها
فؤادىَ ما زال مستأسراً
وروحىَ ما أطفئت نارُها
يُفَيِّئُنى ظلُّها من جديد
وتحنو على القلب أزهارُها
فيا نُبْلَها، صَفَحَتْ عن يدى
وما زال عند يدى ثارُها

ودُرْتُ أسائلُ عن جُرْحِها
أما دملتْهُ أكفُّ القَدَرْ؟
فلم أرَ إلاَّ اخضرارَ الحياة
فليس عليها لجُرْحٍ أثَرْ
وأما جِراحُ فؤادى الحزينْ
فما زلنَ يشكونَ طولَ الصَدَر
فيا عَجَباً للزمان المسىء
متى عن إساءته يعتذرْ؟

١٤-٦-١٩٤٤

الخيال والواقع

رحمةً، لا تُنزلينى من سَمَائى
واتركينى فى خيالِ الشُعَراءِ

اتركينى، لا تُعيدى لى الظُنونا
ودعينى أملأ الدنيا لُحونا
وأصُغْ عُمْرى جَمَالاً وفُتونا
أبداً أصْدَحُ حبّاً وَحنينا
لحبيبى وأنا تحتَ سَمَائى
وخيالى، من خَيالِ الشُعَراء

اتركيني، أنا قد نُحْتُ طويلا
ودعينى أبصرِ الكونَ جميلا
شَبِعَ القلبُ دموعاً وذُهولا
فدعيه يقطعِ العُمْرَ جَهُولا
ويَعشْ، مثلىَ فى ظلٍّ السماء
ويُشاركنى خيال الشعَراء

رحـــمـــةً بـى، رحـــمـــةً، لا تُحـــزنيـنى
ودعـــيـنى فـى خـــيـــالاتـى، دعـــيـنى
قـــصّـــةُ الإثـم وأنبـــاءُ الُمجـــونِ
لا تَقُـــصّـــيـــهـــا على قـلبى الحـــزينِ
ودعـــيـــه، فى تـعـــاليـل السَـــمـــاءِ
ممـعنـاً فى نَشَـــوات الـشُـــعَـــراءِ

إنْ يـكن قـلبىَ ظمـــآنَ وفـــيّـــا
لا يَرَى فـى شـــاعـــرى إلا نـبـــيّـــا
أو يكـنْ يكـتُمُ حُـــبّـــاً شـــاعـــرياً.
فـــهـــو مـــا زال بأوهـامى يـحـــيـــا
أبـداً يرسُـمُ أحـــلامَ السَـــمـــاءِ
ويـغنّـى أغنـيـــاتِ الـشُـــعـــراءِ

قـــد ســـئـــمتُ الـواقعَ المرَّ الممـــلا
ولقـــد عُـــدْتُ خَـــيـــالاً مـضـمـحـــلا
فـــاتـركـــينـى بخـــيـــالى أتسَلّى،
آه كـــاد اليـــأسُ يـعـــرونىَ، لـولا
أنّـنى لُـذْتُ بأحـــلام الســـمـــاءِ
وتخَـــيـــرتُ خـــيـــالَ الشُـــعَـــراءِ

صوّرى ما شئت لى الأمسَ وسحرَهْ
يومَ كان الحبُّ فى كفّى زهره
ارسُمى للقلب أحلامَ المَسَرّهْ
ودعينى أذق الأفراحَ مرّهْ
علّنى أهبطُ من بُرْجَ السماءِ
ويجافينى اكتئابُ الشُعَراءِ

لا تُثيرى ألمى، حسبُك أنّى
لم أزلْ فى معبَد الحبِّ أغَنّى
لم يزَلْ حُلمىَ رؤيا مُتَمَن
كلَّ يومٍ يَهْدمُ اليأسُ وأبنى
ولقد شيّدتُ لى بُرْجَ السَماءِ
وخيالاتى ووهْمَ الشعراءِ

لم يكن حبّى سوى حُلمٍ غريبِ
مدَّهُ الوهْمُ على قلبى الكَئيبِ
أسفاً، لم يَبْقَ لى غيرُ شُحوبى
وأغاريدىَ آلتْ للغروبِ
لم يَعُدْ لى غيرُ أحلامِ السماءِ
وخيالاتى ووهْمِ الشُعراءِ

١٩٤٥-٨-٣١

السفينة التائهة

فى لُجَّةِ البحرِ الرهيبِ سفينةٌ تحت السماءْ
ألقتْ بها الأقدارُ فى لُجَجِ المنايا والشقاءْ
الريحُ تصرخُ حولَها وتضجُّ فى ظُلَم الفضاءْ
والموجُ يضربُها ويُلقيها على شَفَةِ الفَنَاءْ

سارتْ ولا ربّانَ يَهْديها إلى الشطّ السحيقْ
حَيْرَى يُخَادعها الظلامُ فلا شُعَاعَ ولا بريقْ
من فوقها هولُ الرعود وتحتها اللُّجُّ العميقْ
سارتْ وما تدرى إلى أينَ المصيرُ وما الطريقْ

الريحُ مزّقتِ الشراعَ فأينَ يضربُ زورقى؟
والموجُ أطفأ ضوءَ مصباحى فماذا قد بقى؟
وغداً سينسكبُ الدُجى فى جَفْنَى المغْرورقِ
وتسيرُ أمواجُ البحور على شبابى المُغْرَقِ

لا شيءَ يمسحُ أدمعي، لا حلْمَ تَلمحُهُ عيوني
لا شاطئٌ ترنو إليه سفينتي، تحتَ الدُجونِ
كتبتْ لي الأقدارُ أن أمشي على شوكِ السنينِ
جسْماً تعذّبُهُ كآبةُ خافقٍ جَمِّ الحنينِ

رحماك يا أيدي الكآبة ما الذي قد كان منّي؟
ماذا جَنَيْتُ لتَعْصُري قلبي وأحلامي ولَحْني؟
أبداً تَمُدّين الجنَاحَ على خيالاتي وفنّي
وتلوّنينَ مَشَاعري بسَوادِ آهاتي وحُزني

ويروحُ يصرُخُ تحتَ عبئك قلبيَ المتمرِّدُ
قلبي الذي ضاقَ الوجودُ به وعذّبَهُ الغَدُ
قلبي الكئيبُ المُستَطَارُ الشاعرُ المتنهِّدُ
يحيا على ظَمَأ الحياةِ فأينَ أينَ الموردُ؟

كم شاعر عَبَد الحياةَ وعاشَ يشدو بالجَمالْ
أبداً يغرِّدُ للطبيعةِ والكآبة والخيالْ
حتى إذا طَلَع الصباحُ على الصحاري والتلالْ
عثرَ الضياءُ على فتىً مُنْجىً على كُثُبِ الرمالْ

نَمّتْ عليه كـآبةٌ، لم يَمْحُـهـا الموتُ الرهيبْ
ووشت به عينان رانَ عـليهمـا اليأس المُذيبْ
وإلى يمـين رُفَاتـه قيـثارُهُ السـاجى الكئـيبْ
حَفظَ الوفاء لمن خَـبَتْ ألحانُهُ وذَوَى اللهيبْ

يا ليلُ، ما نَفْعُ الأسى؟ يا بحرُ، ما معنى الدموعْ؟
النَوْءُ يصـخَبُ داوياً، والمـوجُ يهـزأ بالقُلوعْ
أنَّى تسيرُ سفـينتى الحيْرَى إذن؟ أنَّى الرُجوعْ؟
فلنمضِ للمجـهولِ، ذلك وحدَهُ مـا نستطيعْ

١٩٤٦-٧-٧

قلب ميت

نعم، مـــاتَ قلبى، أينَ أحــزانُ حـــبِّــه؟
وأين أمـــــانيــــه؟ وأيــنَ أغـــانيـــه؟
حــرارتُهُ أضــحــتْ رَمــاداً مــهــشَّــمــاً
وأحـــلامُــهُ ذابتْ على صــدر مــاضــيــه
هــو الآن ثـلجىُّ الـعـــــواطـف، بـاردٌ
يُقــضّى مع الأشــبــاحِ غُــرَّ لـيـاليــه
ويَرْعَـــبُـــهُ ذكـــرُ المـــاتِ وليـله
فـيــدفِنُ نيــرانَ الأسى فى قـــوافـيــه

وكـــانَ له من قـــبلُ هيكلُ مَـــعْـــبَـــدٍ
يُغـنّيـــه فى أحـــلامـــه وصَـــلاته
مـن الحُبِّ والأحـــلام صـــاغَ رُوَاءَه
وألقى عليـــه أمنيــات حـــيـــاته
على صَــدْره الـشِــعْــرىّ تمثـالُ شــاعــرٍ
تـذوبُ مـــعـــانى الـروح فى نـظراتـه
يَرىَ فـيــه إحـســاسى حـيـاة نقـيـةً
أطلَّــتْ خـــفـــاياها عـلى ظُــلُمـــاته

وكان صباحٌ... واستفقتُ فلم أجدْ
من المعبدِ الشعريِّ إلا رسومَهُ
تَحَطَّم تمثالي الجميلُ على الثرى
وألقى على قلبي النقيِّ همومَهُ
ورُحْتُ إلى حبّي أمزِّق زهرَهُ
وأنثُرُ أحلامَ الصِبا ونجومَهُ
وينْضَبُ في قلبي جمالُ شبابه
وينفُثُ ليلُ الحزنِ فيه سُمومَهُ

وها أنا ذي عُمْري احتقارٌ وأدمعٌ
وفي نفسيَ الولهى لَظَىً وتمرّدُ
أحنُّ إلى حبّي الجميلِ وإن يكنْ
أشاحَ عن التمثال جَفْني المسهَّدُ
وماذا تبقَّى الآنَ؟ شِلْوُ حجارة
تضيقُ بها نفسي، وصَخْرٌ ممدَّدُ
تَعلَّقَ قلبي بالنجومِ وقلبُهُ
تمرَّغَ في الأوحالِ، والطينُ يشهَدُ

هنالكَ، فى الأمس البعيد، وليله
سأدفنُ تمثالى وحُبّى وأدمعى
أشيّدُ قبراً من تمرُّد خافقى
وأسقيه من بُغضى له وترَفّعى
أغنّيه ألحانَ احتقارى وثورتى
وتهزأ أضواءُ النجوم به معى
وأزرعُ فيه الشوكَ والسُمَّ واللَظَى
وأتركُهُ شِلْواً كقلبى المروَّعِ

١٩٤٦-٧-٢٨

بعد عام

مرَّ عـامٌ يا شـاعرى مُنْذُ أبْصَرْ   تُكَ فى ذلـك الصبـاحِ الكئيبِ
مرَّ عامُ لم تكتحلْ عينىَ الظمـ   ـأى برؤياكَ لم يخفَّ قُطوبى
الليـالى تمرُّ تتبعُـهـا الأيّـ   ـامُ فى بُطئِـهـا المُملِّ الرتيب
وأنا لـهـفـةٌ وشـوقىَ يزدا   دُ وروحى فى عاصف من لهيبِ
ظَمَـأ للحيـاة يملؤ إحْسَـا   سى ونارُ فى دمعىَ المسكوبِ
وشظايا كـآبةٍ رسمتْ فو   ق جبينى غُلالَةً من شحوبِ

مرَّ عامُ من قال؟ هل أنا فى حُلْـ   ـمٍ بَنَاهُ تخيُّلى المصدومُ؟
أهْوَ وهمُ ما خلتُـهُ سنةً أطـ   ـفـأ أضواءها الزمانُ اللئيمُ؟
مرَّ عامٌ ولم أقابلْكَ، ماذا؟   كيفَ أبقتْ على حياتىِ الهمومُ؟
كيف طابتْ لى الحياةُ على بُعْـ   ـدك عنّى؟ ولم يُمتْنى الوجومُ؟
الشهيقُ الحزينُ فى هدأة الليـ   ـل، ألم يُلْقِه إليكَ النسيمُ؟
والشرودُ الذى أماتَ أحاسيـ   ـسى، أما حدَّثتْكَ عنه النجومُ؟

لم أزلْ أذكرُ الصَبَاحَ الذى مرَّ   نَدَىً فوقَ قلبىَ المكسورِ
منذ عامٍ فى الشارع الصاخب الممـ   ـتدِّ والشمسُ فى صفاء الأثيرِ
جمعتْنا هنالك الصُدْفةُ الحلْـ   ـوةُ فى غَفْلةٍ من المقدورِ

والتـقينـا لم نبتـسمْ لم أحـدّثـ ـكَ بمـا فى فـؤادى المعـصـورِ
لحظةً ثم أجـهـز الزَمـنُ القـا سى على قـلبِ حُلْمىَ المسـحورِ
سرتُ يمنى وسـرتَ يُسْرى ولم يَبـ ـقَ سـوى ثورتى ونارِ شُـعورى

ومَـضـى العـامُ كلُّهُ، كـلَّ يومٍ أتلـقَّى الصـبـاحَ بـالأحـلامِ
كلَّ يـوم أقـولُ: يـا قلـبى الظمـ ـآن للصَّـحْوِ لا تـضقْ بالغَـمَامِ
ربّمـا أشفـقتْ بنا الصُـدَفُ العمـ ـيـاءُ هذا الصـبـاحَ بعـد الظلامِ
لن يضـْـرَّ الأقـدارُ فى ليـلهـا أن تـلقَـاكَ مـرّةً بابتـسـامِ
فـتـدبَّ الحـيـاةُ ثانيـةً فـيـ ـكَ وتصـحـو خـوامدُ الأنغـامِ
ويُجَنَّ الشعـورُ فى عُـمْقِ أعـمـا قكَ حـيّـاً حـراً من الآلامِ

مـرَّ عـامُ ودقّتْ الساعـةُ الخـمـ ـسـاءُ عشْراً واستيـقظتْ أحـزانى
الثـلاثاءُ لم يُعـدْك إلى أشـ ـواق روحى الممـزَّقِ اللهـفـانِ
مـرَّ عـامُ كـأنـه حُلُمُ مـرَّ على جَـفْن شـاعـرٍ وسنانِ
مـرَّ عـامُ لـم يبقَ منْهُ سـوى لحـ ـنِ حـزيـنٍ مُـغـرورقِ الألحـانِ
ليس إلاّ ابتـسـامـتى المرّةُ الظَمْـ ـأى ودقّـاتُ قـلبىَ الحـيـرانِ
ليس إلاّ ظلُّ مـن الصمـتِ واللهـ ـفـةِ يبـدو فى جـفـنىَ الظمـآنِ

٢٦-٦-١٩٤٥

العودة إلى المعبد

معبدى، عادت بى الأحزانُ فارأفْ بعذابى
عدتُ يا ليتكَ تَدْرى بعضَ آلامى وما بى
عدتُ والقلبُ شريدُ تائهُ بين الضَبَابِ
يتلوَّىَ فى إسارٍ من حنينى واكتئابى

ذهبَ الأمسُ بأوهامِ فؤادى ومحاها
فإذا قلبىَ عبدٌ ولقد كان إلها
آه فارأفْ بفتاة حطَّمَ الدَهْرُ مُناها
وأفاقتْ لِيَهُدَّ الحزْنُ واليأسُ قُواها

مَعْبدى، افتَحْ لقلبى البابَ، قد طالَ وقوفى
أنا من ماتَ ربيعى فى أعاصيرِ الخريفِ
جئتُ ألقى بين كفَّيْكَ أسى قلبى اللهيفِ
علَّنى أحْظَى بِظلِّ فى مجاليكَ وريفِ

عُدْتُ، يا معبدُ، للصمْت، فلن أشدوْ بحبّى
لم يَعُدْ قلبىَ يهفو فلقد ودّعتُ قلبى
حسبىَ الآنَ وجومى وكآباتىَ حَسْبى
حسْبُ روحى نارُ إحساسى وآهاتى ورُعْبى

أسَفاً، كيف ذَوَى حُبّى ولحنى ورجائى؟
ليتنى كنتُ تناسيتُ، فلم أرْعَ وفَائى
ليتَ حبّى لم يُعلّمنى أغاريدَ السماء
ليتَهُ خلَّفَنى فى الأرضِ بينَ الأشقياء

رحمةً، ماذا ترانى أفعلُ الآنَ بفنّى؟
هى ذى آلهةُ الشعْر فهل تمسَحُ حُزْنى؟
هو ذا العودُ فهل يُسْعدُ روحى أن أغنّى؟
رحمةً بى، ما الذى قد أبقتِ الأحزانُ منّى؟

أين أمسى، وهو أحلامٌ وألحانٌ وَلَهْوُ؟
أينَ أيّامىَ إذ قلبى من الأشواقِ خلْوُ؟
ما الذى أبقى لىَ الحبُّ؟ أجِسْمى، وهو نَضْوُ؟
وفؤادى، وهو أوصالٌ؟ وروحى، وهو شِلْوُ؟

ادفنِ الأحــلامَ، يا قلبي الخيــاليَّ المُحَطَّمْ
واسـتفقْ مـن قـبلِ أن ينطفئَ الحُلْـمُ فـتندمْ
ما الذي أغراكَ بالحب؟ ومن أوحى وألهَمْ؟
عَـجَباً، كيـف ترى الشـرَّ بعـينيك وتحلم؟

استفقْ من حُلْمكَ الشـعريِّ وايأسْ يا كئيبُ
ذبلـتْ أغنيـــةُ الحـبِّ وواراها المـغـــيبُ
وستـبقى، أيّهـا المحزونُ، في الشـوقِ تذوبُ
أبداً ترجــو رجــوعــاً لهـوى لـيس يؤوبُ

ثم مــاذا؟ أيُّ حُلْم ترتجي يـا ابنَ السـمــاءِ
أنتَ في الأرضِ، فـلا تحلُمْ بلُقْـيا الأوفيـاءِ
لا تَلُمْ شــاعـرَكَ الغــادرَ وابسم للشـقــاءِ
والتـجئ للعـودِ تَسْعَدْ يـا حزينَ الشُـعَـراءِ

مـعبـدي، إفتح لقلـبي البابَ، لا تَقْسُ عليـه
ليــجــدْ عـندَكَ سَلْـواهُ لينسى أملَـيــه
يا لَمــحــزون شــقيّ مــزّقَ الشــوكُ يَدَيْه
ملءُ دنيـاهُ عُبُــوسٌ، فـابـتـسِمْ أنتَ إليــه

١٩٤٤-٨-٩

عيد الإنسانية

«٨/ ٥/ ١٩٤٥ يوم الهدنة»

فى دمى لحنٌ من الشـوق جـديدُ
والمجـالىّ حَـوَالىَّ نشـيدُ
ليلتى هذى ابتسـامٌ وسُـعودُ
طافَ بالأفْقِ فـغنّاهُ الوجـودُ
هى يا قيـثارتى لحنٌ سـعيدُ
هى شـعرٌ، هى وَحْىٌ، هى عـودُ
هـذه الليلةُ للعـالَم عـيدُ
وهى، يا قيـثارتى، الحُلْمُ الوحيدُ

أين أوتارُكَ يا عـودى الحـبيبا
شُـدَّها واصدَحْ ولا تَبْقَ كئيبا
لم تَعُدْ دُنياكَ جَمْـراً ولهـيبا
أنتَ يا مَنْ عشْتَ فى الكون غـريبا
نَغَمُ السلْمِ سَـرَى فـاخْىَ طَروبا
واملأ الدنيا لُحوناً وطُيوبا
وانسَ أمسـاً مـلأ الكونَ خُطوبا
آنَ للأفـراحِ أن تمحـو الكُروبا

فرحةُ الهدْنة، يا بُشرَى لفتّى

آأنا أحلُمُ؟ أم تكذبُ أذْنى؟

أم هىَ الفرحةُ قد لاحتْ لعينى؟

حُلُمَ الصادى ورؤيا المتَمنًّى

يا إلهَ الشِعْرِ نَحِّ الصَمْتَ عنِّى

آنَ أن أنسى ضراعاتى وُحزْنى

آن أن أحييْ الأمانىْ وأغنّى

ومعى قلبى وأشعارى ولحنى

أنا مَن غَنَّتْ دموعَ الأشقياء

وبكتْ أشعارُها للأبرياء

كم صريعٍ قبرهُ ثلجُ الشتاءِ

ويتيمٍ مهدُهُ شوكُ العَراءِ

وصبايا كرَعَتْ سُمَّ القَضاءِ

قبلَ أن تَرشُفَ كأساً من هناءِ

صُغْتُ أحزانى وحُبى ووفائى

هو أحزانى وحبُى ووفائى

ولقد صورتُ أحلامى سنينا
وهى ما زالتْ سَراباً. وظنونا
وإذا الرحمةُ تُنجى الحالمينا
بالسَلامِ الحلوِ، حُلمِ المنشدينا
وصَدَى الوحى ولحنِ الشاعرينا
لم يَعُدْ قلبُ المقاديرِ ضنينا
فابسمى، شاعرتى، فى الباسمينا
واملئى المعبدَ زَهْواً وفتونا

آه يا شاعرتى، غنِّى الأمانى
واسمعى، هذا هُتافُ المهْرجانِ
فالنواقيسُ، على البُعْدِ، أغانِ
بَشَّرَتْ بالفجرِ أحزانَ الزمانِ
وصَدَى السلْمِ على كلٍّ لسانِ
فاتنَ النغمةِ عُلْوىَّ المعانى
إنها الفرحةُ، يدرى المَشْرِقانِ
أقبلتْ تأسو جراحَ الحَدَثانِ

١٩٤٥-٥-٨

ليلة ممطرة

ألآن يا نجمى تغيبُ ولم يَحِنْ وقتُ الأفولْ؟
ألآنَ والليلُ الجميلُ يُريقُ ضوءك فى الحقولْ؟
والزَهْرُ، تحت الليلِ، نشوانٌ بمَشْرِقكَ الجميلْ؟
والنهرُ، والشطآنُ تضحكُ تحت أشجارِ النخيلْ

ألآنَ تغـرُبُ؟ يـا لَمـأسـاة الجـمـال الذابلِ
يا نجـمىَ المأسورَ فى كفِّ الضَباب الشـاملِ
يا فـيلسـوفَ الليلِ، يا سـرَّ الوجـود الذاهلِ
عَـبَـثـاً أناشـيـدى إلى أضـواءِ نجمٍ آفلِ

عـبثـاً سَـهرتُ اللـيلَ أرنو والتفـجّعُ غـالبى
أتزوّدُ النَظَرَ الأخـيـرَ إلى ضـيـاكَ الشـاحبِ
وأصـوغُ ألحـانَ الرثاءِ على صـبـاكَ الذاهبِ
وأحوكُ من دمـعى الضيـاءَ لكلّ نجمٍ غاربِ

رحمـاكَ يا نجمى الجـميلَ متى نهـايةُ ليلتى؟
ومـتى ستنقـشعُ الغـيومُ وتسـتريحُ كـآبتى؟
قد شاقَ قلبى أن أحسَّ الصمتَ تحتَ خميلتى
وتجـوبُ عيناىَ الفـضاءَ وفى يدى قـيثـارتى

مازلتُ أنتظرُ السكونَ وليس غيرُ صَدَى المطَرْ
والريحُ فى سَـمْعِ المساء تئنُّ مـا بين الشَجَـرْ
لا طيرَ يمرَحُ فـى الحقولِ ولا أريجَ ولا زَهَرْ
لا شىء غير صراخِ رعـدٍ هاتفٍ بأسى البَشَرْ

ومن الظلام تصاعدَتْ آهاتُ قُمْرىٍّ الغصونْ
ذهبتْ بمـكمنه الرِّيـاحُ وعـزَّهُ المـأوى الحَنُونْ
حيرانُ، مرتعشُ الجناح، مجرَّحُ تحتَ الدُجونْ
رحماكَ يا ربَّ العواصفِ، حسبُنا المطَرُ الهَتُونْ

أينَ الفضاءُ الحلوُ؟ أين الصَـحْوُ؟ أينَ سَنَا النجومْ؟
من جمع المطر الكئيب، وبث فى الليل الغيوم؟
يا ريحُ رفْـقاً بى ورفـقاً بالعـرائشِ والكرومْ
رفـقاً بقُـمْرىٍّ المروج فـقد أمـضّـهُ الهُمـومْ

قـد كـان فى قـلبى أمـان يا رياحُ فـخُـنتـهـا
قـد كان فـى هذا المساء مَـفـاتنُ فـمحـوتهـا
قـد كان فى المرجِ الجـمـيل عرائـشُ أذبلتهـا
قـد كان فى ثَبَجِ الـسَمَـاءِ كـواكبُ أطفأتهـا

وبقيت، فى الليلِ الكئيب، أصيخُ للمطر الكئيبْ
وعلى فمى اللحنُ الغريبُ، يصوغُهُ قلبى الغريبْ
وتلوحُ لى خَلَلَ النوافذ ظـلمةُ الليلِ الرهيبْ
عبـثاً أغـذى موقـدى فالآنَ ينطفئُ اللهـيبْ

قـد حطَّمَ الإعصـارُ نافذتىَّ وانطفـأ الضيـاءْ
والآنَ لا أضواءَ حـولى غيـر إبراق السـماءْ
يا ضجَّةَ الإعصـار فى الآفاق، يا مَطَرَ المساءْ
الآنَ ألتـمسُ الـرُقَـادَ إلى غَـدٍ فـإلـى اللقـاءْ

١٩٤٦-١١-٦

أنشودة الأبديّة

«إلى القيثارة الإلهيّة التى منحتْ الإنسانية أروع الألحان، إلى تشايكوفسكى الموسيقىّ الروسى، ذكرى لمرور أربع وخمسين سنة على وفاته».

سأحبُّ الحياةَ من أجلِ ألحا ... نكَ يا بلبلى الحزينَ وأحيا
سأرى فى النجومِ من نورِ أحلا ... مكَ ظلاً مُخلَّداً أبديّا

سأناجى فى الليل جُنحاً من الأحـ ... ـزانِ يوماً ألقى عليكَ ظلالَهْ
سأحيّى فى الكرمِ فيضاً من الأسـ ... ـرارِ أضفى يوماً عليكَ جمالَهْ

وإذا ثارت العواصفُ فى الليـ ... ـلِ وراءَ الحقلِ الرهيبِ الدجى
لستْ روحىَ المشُوقةُ فيها ... ذكرياتٍ من روحكَ النارىِّ

آه يا أيّها الملاكُ إلى رو ... حكَ، فى الموت، حنَّ روحى الحزينُ
أنا تلك التى حياتى على الأر ... ضِ اكتئابٌ ووحشة وحنين

آه لو كنتُ عشتُ مثلكَ فى الما ... ضى وأبصرتُ وجهَكَ العُلْويّا
لولا رأيتُ الإلهامَ يملأ عينيْـ ... ـكَ ضياءً ووجهَكَ الشاعريّا

آه لو بعتُ كلَّ عمري بيومٍ ... شاعريّ يراكَ فيه وجودي
من بعيدٍ أرنو إلى الهيكل السا ... مي وأصغى إليكَ يا معبودي

وأرى كيف يُغْرقُ الحزنُ مرآ ... كَ وتبدو أسراره في عيونكْ
وأحسُّ أرتعاشَ قلبك للحُسْـ ... ـنِ وظلَّ الشُّرودِ فوقَ جبينكْ

وأرى كيفَ تُرْجفُ الوترَ المسْـ ... ـحورَ كفَّاكَ يا ملاكي النبيلا
كيفَ ترنو إلى الحياة وما فيـ ... ـها وتَسْتلهمُ الوجودَ الجميلا

وأرى كيفَ يغسلُ الدمعُ عينَيـ ... ـكَ وتبكي في وحشة الإنفرادِ
وأرى كيفَ يرقُصُ الألمُ الطا ... هرُ في مقلتيكَ قبلَ الرُّقادِ

كيف يأتي الدُّجَى عليك فترنو ... في ذهول إلى ظلال الماضي
بينَ فكْ الذكرى يعذِّبُكَ الشو ... قُ وتبقى في رَعْشةٍ وانتفاضِ

كيفَ تحتَ الدُّجىَ تهيمُ على وجـ ... ـهكَ بحثاً عن لحظةٍ من هدوءِ
هارباً من صرَاخِ نفسك من دُنـ ... ـياكَ من عالم الورَى الموبوءِ

هارباً هارباً تحـدِّقُ فى النهــ ـــر وما فوق مائه من جليدِ
تتمنَّى أن يَدفِنَ الثلجُ بلوا ك بعيداً عن اضطراب الوجودِ

آه يا بلبلى وقد جاءكَ المو تُ أخيراً وغبتَ عن دنيانا
أخمدَ الصمتُ والفَنَاءُ أغانيـ ـكَ ولم يَبْقَ غيرُ رَجْعِ أسَانا

رَقَدَ الحالمُ الإلهىُّ تحتَ الـ ـفَجْرِ جسماً مَيّتاً وروحاً أصمّا
كلُّ أنغامِهِ السماويةِ الظَمْـ ـأى وأحلام روحه عدْنَ حُلْما

وعلا ذلكَ الجبينَ الأثيرىَّ شحوبُ الموتِ المريرِ القاسى
وهوى ذلك الإلهُ السَماوىُّ على الأرضِ خامدَ الأنفاسِ

عَبَثاً قبّلتْهُ آلهةُ الفجـ ـرِ وغنَّتْهُ أعذبَ الأنغامِ
عبثاً ذكَّرتْهُ ربّةُ موسيـ ـقاهُ بالذكرياتِ والأحلام

أيّها الموتُ أيّها الماردُ الشرِّ يرُ يا لعنةَ الزَّمان العنيدَ
كيفَ ترضى يداكَ أن تقتلَ الإلـ ـهامَ؟ ماذا تركتَهُ للوجودِ؟

سـوف تفنى يـداكَ أنتَ ويبْـقَى ظلٌّ ذاكَ الطيـرِ الجـميـلِ الوديعِ
سوف تبقى نجواه تخفقُ فـوقَ الأ رضِ بالحبّ والجـمـال الرفـيع

أيُّهـا الحـاقـدُ التـرابيُّ أمّـا أنتَ فاحـقدْ وعشْ على الأضـغانِ
إنَّهُ الآنَ فـوقَ حـقْـدكَ فـوقَ الأ رضِ، فـوقَ الـفناءِ والنسـيـانِ

١٩٤٧-٦-٣

على الجسر

يا نَهْرُ لا تحفظْ دموعى أو أسى قلبى المرُوعِ
اكتمْ- حنانكَ- ما تساقطَ فى مياهكَ من دموعى

ذهبَ المساءُ بكلٍّ ما أبصرتَ من حزْنى العميقْ
ومحا الدُجَى من عُمرِ يأسى ليلةً لن تستفيقْ

انْسَ الذى أبصـــرتهُ بالأمـس من أحـزانيـــه
واكـتُمْ أساىَ وأدمـعى تحتَ النُجـومِ الحانيـة

انسَ الخطَى المُتَـعَـثِرات وصـوتىَ المتـهدِّجـا
والدمعَ، يخنُقُ كلَّ ألـفاظى بكفٍ مـن شجـا

رحـماكَ أنتَ الكاتمُ الحـانى على المتـأوِّهينْ
وحنان مـوجِكَ كم طوَى قلباً يعـذِّبُهُ الحنينْ

أنتَ الذى شَهِـدَتْ ميـاهكَ أدمعى وتردّدى
أنتَ الذى سـمعت ضِـفافُكَ آهتى وتنهّـدى

ومَشَيْتُ فوقَ الجسر أبكى أمنياتى فى سكون
وأديرُ وجهى، نحو موجكَ، عن عُيونِ العابرينْ

أحزانُ حبىّ كلها، فى شاطئيكَ، نَفَضْتُها
أسرارُ روحى كلُّها، تحت الظلامِ، نَثَرْتُها

لم أستطعْ، يا نهرُ، كتْمانَ العواطف والشُعورْ
مَنْ يمنَعُ السيلَ القوىَّ من التَدَفقِ والمسيرْ؟

وإذا طَغَى الحزنُ العميقُ فمن يرد هديرَهُ؟
وإذا ذوى الأمل الجميلُ فمن يُعيدُ عبيرَهُ؟

عَبَثاً أقاومُ نارَ أحزانى فلن يخبوْ اللهيبْ
أبداً تُذكّرنى الحياةُ بروعةِ الماضى الحبيبْ

حُلُمُ إلهى الجمال رسمتُهُ تحت النُجومْ
وبنيتُهُ قصراً من الزَهْر المنضَّرِ فى الغيومْ

وصَبَبْتُ فيه، من حَيَاتى، صفوَهَا ونَقَاءَهَا
ونثرت فيه، من زُهورى، عِطْرَها ورُواءها

وهُرعتُ، كالطفلِ النقيِّ، إلى رجائي الأوحدِ
فرأيتُ قصري الحلو أطلالاً تثير تنهّدي

لا شيء يمحو ذكرياتِ الأمسِ من قلبي الكئيبْ
لا نورَ ينفذُ في ظلامي، لا انطفاءُ للّهيبْ

في عُمْقِ أعماقي أعاصيرُ يُجَنُّ جُنونُها
وعلى جفوني رَسْمُ أحلامٍ يَضِجُّ حنينُها

أيّانَ أنجو من ظلالِ الأمسِ، أينَ ترى المَفَرْ،
والليلُ يعكسُ ذكرياتي، والأغاني والشَجَرْ؟

يا نهرُ فلْتَدفنْ شكَاياتي ومُرَّ شُجونها
الآدميّةُ إن بكتْ فلضَعْفِها وجنونها

١٩٤٦-٩-٢٥

إلى الشاعر كيتس

الإشارات إلى قصيدته

"Ode to a Nightingale"

حـــيــــاتى وآلامُ روحى الحـــزيـنْ
وأحـــــــــلامـىَ المُـرّةُ الـذاويـة
ومـــــوكـبُ أيّـامىَ الـذاهبــــات
وأطـيــــافُ أيَّـامـىَ الآتيــــه
تَجَــمَّــعْـنَ فى باقــة مـن عـبـيـر
ثَوَتْ خـلفـــهـــا روحـىَ الفــانيــه
وأهديتُـــهـــا نَـغَــمـــاً حــالمًا
إلى روحـكَ الحُــرّةِ البـــاقــيــة

حـــيــاتىَ، يا شـــاعـــرى، كلهـــا
حـــيـــاة فـــتـــاة مـن الحـــالمينْ
إلـهَـــيــــةُ الـروح لـكـنَّهـــا
عـلى الأرضِ حــــفْـنَـةُ مـــاء وطـينْ
تُعــذِّبُهـــا صَـــرَخـــاتُ الأسى
وتُرْعِــشُـهـــا صَــدَمـــاتُ السنينْ
ولولاكَ مـــا وجـــدتْ فـى الثـــرَى
عـــزاءً، ولـم يَجْـــتَـــذِبْـهـــا الحنينْ

أناشيدُكَ الخالداتُ العِذاب
نشيدى وأغنيتى الهاتفه
فكم ليلة من ليالى الشتاء
دفعتُ بُها ضَجَّةَ العاصفه
وأسمعتُها النارَ فى مَوْقدى
وغنّيتُها الظُلَّةَ الوارفه
وأيقظتُ فى ظلّها فِتْنتى
ونارَ عواطفىَ الجارفه

.

وكم فى ليالى الخريف الكئيب
وقفتُ أحدّقُ عندَ النَهَرْ
أصيخُ إلى صوت قُمْرِيَّة
سَجَتْ فوقَ بعضِ غُصون الشَجَرْ
أفتشُ فى صَوْتها عن شَجَاكَ
وشكواكَ بين الأسى والفِكَرْ
وأسألها عن شبابَ ذَوَى
وظلٍّ صِبا راقدٍ فى الُحفَرْ

أقـــولُ لهـــا: صَـــوِّرى من جـــديد
ظلام المســاء الكئــيبِ البـــعـــيــدْ
ومــا كـــانَ من شـــاعـــرى فى دُجَـــاه
وآهـاتـه وأســــــاهُ المُبـــــيـــــدْ
صِـــــفى حُـــــزْنَهُ عنـد رأسِ المريـض
ووحـــشـــتَـــهُ والـرَجَـــاءَ البَـــديدْ
صـــــفى ذلـك الجـــسَـــدَ الآدمىَّ
ومـــــا قـــــالَ عند وَدَاعِ الوُجـــودْ

صِـفى شـاعـرى كـيف أمـضى المسـاء
علــى قَـــــــــدَمــىْ ذلكَ الميـتِ
يُصـــيـخُ إلى النَغَـــمـــات الحنون
ويُطــرقُ إطـراقــــــــةَ المُنْـصِـت
صـفـيـه، كـمـا أرعـشـتْـهُ الحـيـاة
أسـىً، تحتَ ســـيـف الرَدى المُصْلَت
على كـــفِّـــه رأسُـــهُ الشــاعـــرىُّ
وحــيـــداً، إلى جـــانب الجـــثَّـــة

وكيف تولّى المساءُ الحزين
على شُعْلة الشَمْعة الشاحبة؟
وهل صَرَخَتْ فى الظلام الرياح
كما صَرَخَتْ نفسُهُ الصاخبة؟
«هنالكَ حيثُ يموتُ الشباب
وتَذْوى أشعتُهُ الغاربة»
هنالكَ حيثُ الذهولُ الغريب
يودِّعُ روحَ المُنى الذاهبة

وتَمْضى الليالى إلى قَبْرِها
وتَمْشى الحياةُ مع الموكبِ
أسيرُ أنا فى شعاب الوجود
أفتِّشُ عن حُلُمى المُتَعَبِ
تُخَادعُنى كلُّ قمْريّةٍ
وتعبَثُ كلُّ الأغاريد بىٍ
وما زالَ طيفُكَ طيَّ الخَفَاء
تُحَجِّبُهُ ظُلْمةُ المغربِ

٦-٢-١٩٤٧

-١-

"صوت التشاؤم"

هيَ ذي يا ظلامُ عاشقةُ الليـ ـلِ تُطيلُ التحديقَ تحت الدَّياجي

وقفتْ عند شاطئ النَهْرِ تُصْغي لأنينِ الرِّياحِ والأمواجِ

وتَرَى الليلَ غيهباً راعبَ الظلِّ على رائعٍ من الأثباجِ

وتُحسُّ الحُزْنَ العميقَ لحقلٍ أغرَقْتهُ المياهُ خلفَ السِّياجِ

وقفتْ في الدُجى تُحسُّ الأسى المرَّ وتبكي في مَسْمع الظُلُماتِ

وتَرَى بالخيالِ ما حلَّ بالقَرْ يةِ والبائسين من وَيلاتِ

فَجَأتْهم، تحت الدجى، لجة المو جِ فباتوا صَرْعى القَضاء العاتي

ومَضَوا يضربونَ في ظُلمة الليـ ـلِ وما من منجى من المأساةِ

وتعالى تحت الظلام صُراخُ ردَّدتْهُ الريَّاح للأشجارِ

هو صوتُ الأحياء، في لجَّة المو تِ وَصَرْعى الأمواج والأقدارِ

عبثاً تضرعينَ، عاشقةَ الليـ ـلِ لقلبِ الظَّلامِ والأسرارِ

عبثاً فالحياةُ سنَّتُها الحز نُ وحكْمُ الآهاتِ والدمعِ جارِ

-٢-

«صوت الأمل»

سرْ بنا سر يا زورقَ الأملِ العذْ ... بِ وإن أُسْدلتْ ستورُ الظلامِ
وتَعَالى الدويُّ في النَهَر البا ... كي على مَسْمع القلوبِ الدّوامي
سرْ بنا لن نخافَ من ضجّة المو ... جِ ولن نرهبَ العُبَابَ الطامي
نحنُ في الموجِ دفّةُ طالما لا ... قتْ رياحَ الأقدارِ والأيّامِ

سرْ بنا حيثُما يُريدُ لنا المجـ ... ـهولُ سرْ في هذا الوجودِ الحزينِ
لن تنالَ الحياةُ منّا فقد ذُقْـ ... ـنا أسَاها في عُمْرنا المغبونِ
ورمتْنا أحزانُها فصَبَرنا ... وغداً مغْربُ الأسى والشُّجونِ
وغداً تنضَبُ الدموعُ وتَفْنَى ... ضجّةُ الموج في عميقِ السكونِ

سوف تصفو الأمواجُ في لجّة النَهْـ ... ـرِ ويخبو الإعصارُ خلفَ التلالِ
وتعود النخيلُ تضحكُ للشطِّ ... كما كنَّ في الليالي الخوَالي
ويعودُ الملاّحُ يخرُجُ بالزو ... رقِ نشوانَ ضاحكَ الآمالِ
هكذا يرجعِ الصفاءُ إلى الوا ... دي ويغفو على جَمَالِ الليالي

-٣-

«صوت الشاعر»

مُغــرَقٌ فى خيــاله شاردُ العَيْـ ـنَيْنِ مُســتســلمٌ إلى الأحــلامِ
يذرَعُ الضــفّةَ الجمــيلة مفــتو نًا بصــوتِ الأمــواج والأنســامِ
ويَرَى اللُّجّةَ الرهيــبةَ سِحْــراً وينابيعَ فــضْنَ بالإلهــامِ
وعلى البُعْدِ منظرُ النَخْلِ فى النهـ ـرِ ومَــرْأى التــلالِ والآكــامِ

هكذا الشــاعرُ الخيــالىُّ يقضى يومَــهُ فى الأوهامِ والألحــانِ
ويَرَى فى طُغيــان مــائكَ يــا نهـ ـرُ جَمَالَ الطبيعةِ الفتّــانِ
فهــو ذاكَ الطيــرُ المغرِّدُ بالشعـ ـرِ نبىُّ الخيــالِ والألوانِ
تتصبّاهُ مــوجةٌ تَغْسِلُ الشطَّ ونهــرٌ داوٍ ولُجٌّ قــانِ

كلُّ مــا فى الطبيعة الحلوة المفْـ ـتــانِ يُوحى لقلبــه بالغناءِ
كــيف لا وهْوَ ذلكَ الشــاعرُ المُرْ هف وابنُ الخيــالِ والإيحــاءِ
عــاشقُ الصَحْوِ والغيومِ الحزينا تِ وشــادى الضيــاءِ والظلمــاءِ
ورســولُ السمــاء للعــالم البــا كى وصوتُ الأمواتِ والأحيــاءِ

(١٩٤٦)

الخطوة الأخيرة

اشهدى أيتُها الأشجارُ، أنى
لن أرى ثانيةً تحتَ الظلالِ
ها أنا أمضى فلا تبكى لحُزْنى
لا يُعذّبْك اكتئابى وابتهالى

خُطُواتى، فى الدُجَى لا تحسبيها
إنّها آخِرُ ما أخطو هنا
إنّها رجْعُ أغانٍ لن تَعِيها
سوف تَذْوى مثلَما أذوى أنا

خُطُواتى، أىُّ رجْعٍ مُحْزِنِ
آهِ لو لم أسمعِ الصوتَ الكئيبا
ليتنى أفقِدُ حسّى، ليتنى
لم أشاهدْ ذلكَ الحُلْمَ الغريبا

أيُّ حُلمٍ ذابلٍ فوقَ الرمالِ
صُغتُ فيه كلَّ موسيقى حياتى
كلَّ أحلام شبابى وخيالى
كلَّ ما فى خافقى من نَغَماتِ

ها أنا أرحلُ، يا أشجارُ، عنكِ
تحتَ عبءٍ من شُرودى وخشوعى
ليتنى أجرؤ أن ألقى عليكِ
نظرةً ثانيةً، دون دموعِ

لن تُحسِّى، فى غدٍ، وقْعَ خُطايا
فأنا، يا أخواتى، لن أعودا
كلُّ أحلامى وأضغاثِ رؤايا
عُدْنَ يأساً صارخاً، عدن شرودا

سوف ألقى العودَ فى الظلِّ وأمضى
أى معنى، بَعْدُ، للعودِ الرقيق؟
سوف أحيا، يا سمائى، فوقَ أرضى
سوف أطوى النورَ فى قلبى العميقِ

وَوداعـــاً، أنتَ يـا حُلمَ شـــبـــابى
أنتَ يـا من صـــغـــتُـــهُ خـــمسَ سنينْ
هـا أنـا أدفـن، فى الأرض، رغـــابى
وأوارى أمـلـــى المُـرَّ الحـــــــزيـنْ

المـمــرّاتُ الجـــمـــيـــلاتُ ســـتــبكى
فـــوقَ ذكـــرايَ ولكـن لن أعـــودا
حـسْبُ روحى، أيُّهـــا الأشـجـار، منك
أنّ ذكـــرى رَغـــبـــاتى، لن تَبِـــيـدا

وأنا؟ لا تجـــزعى، حـــســـبك منّى
أنّ ذكـــراك بقـلبى ســـوف تحـــيـــا
كلُّ جَـــذْرٍ منك فـى أعـــمـــاق فـنّى
ســـوف يـبـــقـى شـــاعـــرياً أبـدياً

آه يا أشـــجـــارُ، لا، لا تذكـــريـنى
فـــأنـا تمثـــالُ يأس بَـشَـــرىٍّ
لـيس عـندى غـــيـــرُ آثـارِ حنينى
وبـقـــايـا من شـــقـــائى الأبَـدىٍّ

كنت يوماً خافقاً، بينَ الغيومِ،
أسكُب الأحلامَ في عُمق حياتي
تصعَدُ الآمالُ بي فوق النجومِ
ويصوغُ الشعْرُ أحلى رَغَباتي

أيُّها العودُ، وَدَاعاً من حياتي
هبطَ الليلُ وقد حانَ رحيلي
امْحُ ما قد كان، إمسَحْ نَغَماتي
انْسَ أنغامَ شَقَائي وذُهولي

لن تعيْ، في الغد، أنغامَ أسايا
وترانيمَ سروري وشَقائي
فانسَني، ها قد نَأى رجعُ خُطايا
ها أنا أغرقُ، في قلبِ المساءِ

١٩٤٦

البحـــر

للشاعر الإنـكليزى جورج غوردن بايرون من قـصيدته
الطويلة: Childe Harold pigrimage

أيهـا البـحـــر أيُهـا الأزرقُ الدا — كنُ إهدرْ مـا شـئتَ فى الظـلمـاء
سـاخــرَ الموج من قُـوَى الآدمـيـيـّـ — ـنَ عــمـيـقــاً مُـــدَوِّىَ الأنواءِ
مَخَـرتْ فى العُباب مـنكَ الأساطيـ — ـلُ وتاهتْ فى مـوجـكَ اللانهـائى
وبَقـيتَ المجـهـول يرهَـبكَ الإنـ — ـسـانُ وهو الطـاغى على الأشـيـاءِ

كل مـا عنـده من القـــوّة الهَـــوْ — جـاء يا بحــرُ عند شطّكَ يـعـيَـا
فهو يَطْغَى فى الأرض بالشرِّ والتخـ — ـريـب لكن تَظَـلُّ أنتَ عــتـيّـــا
وتَظَلُّ الأمـــواجُ منـكَ كـمـا كـا — نتْ حـمىً زاخـراً وسـطحـاً سـويّاً
مـا عليـهـا ظلٌ لـطُغـيـانِ مـخلو — قٍ سيـبـقى على الزمـانِ صَبّـيّـا

ذلك الحىُّ ليس يُتــرُكُ مـن ظلٍ — ســـوى ظلّـه على الأمـــواجِ
عندمـا تحـتـويه أمـواجُكَ الهُـو — جُ فـيَـهْـوى فى لُجّـة الأثبـاجِ
صـارخـاً هابطاً إلى عُـمْقِ أعـمـا — قكَ مَيْـتـاً تحتَ الفـضـاء السَّاجى
دونَ قـــبــــر يضُـمُّ أشــلاءَهُ أو — كَـفَنٍ غـيـرَ رائعـات الـدّياجى

كلُّ مـا فـوقَ موجك الخـالد الجبـ ـــار مـــا إن يبـــقى بقـــايا خُـطَاهُ

ومسـافـاتُكَ البـعـيداتُ ليسَتْ أيّهـــا البـــحـــر مـــا تنالُ يَداهُ

أيُّهـــا المزدرى بـطُغْـيـــانه المكـ ـــذوب يـا ســاخــراً بكُنْه قـــواهُ

إنَّه ذلـكَ الضــعـــيفُ إذا جـــا ءَكَ يومـــاً وأبصـــرتْ عـــيناهُ

تلقّـــاهُ مـــوجـــةٌ بعــدَ أخــرى منـكَ يا بحـــرُ فى ظـلامِ المســـاءِ

ثم تـرمى به الريـاحُ المُخــيـفـــا تُ رُفـاتاً مَـيْـتـاً إلى الأجـواءِ

فـإذا مـــا خَـبَـا جُنونُ الأعـــاصيـ ـرِ ومـاتتْ أصـداؤها فى الفـضـاءِ

عادَ شِلْواً إلى حِمى الشاطئ السا جى وجسـمـاً عـلى حفَـاف الماءِ

أيّهـــا البـــحـــرُ آه مـــا هذه الأسـ ـوارُ تحت الحـــديد والنيـــرانِ؟

أىُّ شىء هذى القـلاعُ الرهـيبـا تُ؟ ومـــا ســـرُّ ذلكَ الطُغْـيـانِ؟

لقّـبـوا ســادةَ البـحـارِ ومـا هُمْ غـيـرُ طيفٍ من الغُـرورِ الفــانى

تتـلقّــاهُم قـــوَى مـوجـكَ الرا ئـعِ بالموتِ والأذَى والـهـــوانِ

كلُّ شىءٍ فى السَّاحـل الشاسع النا ئى يُطيعُ الموتَ البطىءَ العتـيّـا

كلُّ شىءٍ يَبْلَى وتلبث جـــبّـــا راً كـــمـــا كنتَ ســاخـــراً أبديّا

أين آشـــورُ؟ أينَ رومـا وقـــرطا جةُ مـا عـادَ ذكـرُها قَطُّ يحـيـا

ذهبتْ كـلُّهـا ومـــاتـتْ ومـا زلـ ـتَ كـمـا كنتَ أيها البحرُ حيـا

كل تلك السواحلِ الحلوة الغنـ ... ـاء عادت تحتَ الزَّمان صَحَارى
يتمشّى فيها الغريبُ وكانت ... أمس دنيا تفيض نورا ونارا
وتبقَّيْتَ أنت مثلَكَ بالأمـ ... ـسِ عميقاً مدوّياً جبّارا
لم يغضِّنْ جبينَكَ الزَمَنُ الما ... ضى وما زلت جارياً قهَّارا

منذ أن شبَّت الخليقةُ أنتَ الـ ... ـبحرُ تحت الضياء والظُلُمات
كلُّ شيء كما أرى البَشَرُ الفا ... نونَ باقٍ وأنتَ أنتَ العاتى
أبداً أنتَ ذلكَ اللانهائيُّ ... المُدَوِّى فى مَسْمع الداجيات
أبداً أنتَ سرمديٌّ خفيٌّ ... فى السكونِ الساجى أو العاصفاتِ

وأنا أيّها المُحيطُ المدوّى ... عاشقُ الموجِ والحصَى والرمال
طالما سرتُ، فى صباىَ، على الضفّـ ... ـة مُسْتَغرقاً بوادى الخيالِ
طالما سرتُ شارداً مثلَ أموا ... جِكَ نشوانَ ضاحكاً للمجالى
كلّ حُلْمى أن يحتوىْ زورقى مو ... جُك يوماً فترتوى آمالى

كيفَ يا بحرُ كيفَ تَنْسى مَرَاحى ... عندَ أمواجكَ الجميلاتِ أمسِ؟
عندما فى طفولتى كنتُ ألهو ... فى شواطيكَ بين بِشْرى وأُنْسى
طالما من أمواجك الباردات الـ ... ـبيضِ أترعتُ فى الأمسِّ كأسى
ليتَ شعرى فهل نَسيت أغاريـ ... ـدى وحبىّ الطاغى وفورةَ نفسى؟

١٨-٦-١٩٤٦

مرثية فى مقبرة ريفية

«ترجمة للقصيدة المشهورة: An Elegy Written in a Country Churchyard للشاعر الإنكليزى توماس غرى»

فى المساء الكئيب والجرسُ المحـ ـزونُ ينعَى النهارَ للأجواء
والقطيعُ المكدودُ ينسابُ فى المر ج بطىءَ الخُطَى كئيبَ الثُغَاء
والفتى الحارسُ المؤودُ إلى المأ وى يجرُّ الخُطَى من الإعياء
تاركاً هذه المجالى الحزينا تِ لقلبى أنا وللظَّلماء

سوفَ يخبو النورُ الملألئ فى الأفـ ـق بعيداً على امتداد السهوبِ
والفضاءُ الممتدُّ يغمرُهُ الليـ ـلُ فلا شىءَ غير صمتٍ رهيبِ
ليس إلا حفيفُ أجنحة الأطـ ـيارِ فى جوِّها الدجىِّ الكئيبِ
ودوىُّ الأجراسِ ينشرُ فوق الـ مَرْجِ وهْمَ الكَرى وصمتَ الغيوبِ

ليسَ إلاّ قمريّةٌ يُرسِلُ الشكـ ـوَى الى البدْر قلبُها المغبونُ
عُشُّها قنّةٌ تسلّقَها الزهْـ ـرُ وأخفتْهُ فى الظلال الغصونُ
تتشكّى الذينَ مرُّوا بدنيا ها فلم تَدْرِ ما عَسَى سيكونُ
عكّروا العُزْلَةَ القديمةَ والصمـ ـتَ فدوَّى هُتَافُها المحزونِ

ها هنا فى الظلال مـن شَجَـر السَّـرْ و وبينَ الأغـصـان والأشـجـارِ
حيثُ تعـلو الرمالُ والعُشْبُ ينمو بينَ هـذى الكُثْـبـانِ والأغـوارِ
رَقَـدَ الراحـلونَ من سـاكنـى القَرْ يةِ بـين الرمـالِ والأحـجـارِ
أسلمـتْـهم أيدى المنونِ إلـى ضِيـ ـقِ قـبـورٍ تحت الـثـرَى المُنْهـارِ

رقـدوا فـابتسـامـةُ الفـجـر لا توُ قظُ دنيـاهمُ على الأنْسَـامِ
ومـراحُ الطيـورِ فى أسـقُفِ الأكـ ـواخِ مـا إن يُصْحيـهُـم من مَنامِ
رقـدوا الـرقـدةَ الأخيـرةَ فى الوا دى الدجىِّ الحـزيـنِ وادى الحِـمـامِ
ليـسَ تُغْـريهمُ هتـافـاتُ بوقٍ كـيف تُـغْـرَى هيـاكـلُ من عظامِ؟

رقـدوا فى العَـرَاءِ تحتَ الثلوجِ الـ ـبـيضِ لا مـوقـدُ ولا نيـرانُ
ومـضَـوْا فـالبـيـوتُ خـاويةُ منـ ـهُـمْ وفى قلب أهـلهـا أحـزانُ
لا صـغـارُ تخفُّ جَـذْلَى مَـسَـاءً تتـلقَّـاهُـمُ ولا أحـضـانُ
يا لتـنهـيـدةِ اليَـتَـامَى فـمـا يرْ جِعُ آبـاؤهم إلـى مـا كـانوا

كم تعـرَّتْ سنابِـلُ القـمـح فى أيـ ـديهمُ كـم ترنَّمـوا فى السـهـولِ
ولكم شَـقّتِ الحـقـولَ مـحـاريـ ـثُهُمُ فـازدهتْ زهورُ الحـقـولِ
وبأىِّ الأفـراحِ سـاقـوا إلى المأ وَى قطـيعَ الأغنامِ عـند الأصـيلِ
ولكم أخضَـعوا من الشَـجَرِ الصلـ ـدِ وألقَـوْا بسـاقِـهِ فى الوحـولِ

ليسَ للهازئينَ أن يَحْقروا جُهْـ ـدَهُم أو طُموحَهُمْ فى الحياةِ
أو مَسرّاتِهم وذكرَهُم المغـ ـمورَ بالفقر والشّقاء العاتى
رحمةً لا تكنْ دموعُ الحزانى بَسَماتٍ فى الأعينِ الساخراتِ
ليسَ للأغنياءِ أن يحقروا عُمْـ ـرَ فقيرٍ مَحْياهُ للآهاتِ

أو ليستْ هذى الحياةُ سَرَاباً؟ أوَ ليسَ الفَنَاءُ عُقْبَى سَناها؟
أو تُنْجى الألقابُ أو منَحُ المجـ ـدِ إذا ما الحِمامُ أَخْنَى الجباها؟
يا لَوَهْمِ الأحياءِ كم من حضارا تٍ أطافَ البِلَى بها فمحاها
كلُّ ما فى الحياةِ يُنْهى إلى القبـ ـرِ فما مجدُها؟ وما جَدْواها؟

لا تَلُمْهم يا أيّها الكائن المغـ ـرورُ إن لم يَرُقْ هَواكَ الثوىُّ
لا تَلُمْهم إن لم يَشِدْ فوقَهُ المجـ ـدُ التماثيلَ أيُها البَشَرىُّ
ها هُنا لا قُبَابَ لا قوسَ نَصْرٍ ليسَ إلاّ سرُّ الرَّدَى الأبدىُّ
وهُوَ المرقَدُ الأبيدُ لقومٍ لم يُرنِّمْ مديحَهُمْ آدمىُّ

ليتَ شعْرى ماذا تقولُ التماثيـ ـلُ لَميْتٍ؟ وما غنَى الأقواسِ؟
ألها أن تَرُدَّ للكائنِ الحىِّ إذا ماتَ خامدَ الأنفاسِ؟
وهُتَافُ المديحِ هل هوَ يوماً بالغٌ مَسْمَعَ الحِمامِ القاسى؟
ونفاقُ الأحياءِ هل يمنَحُ الأجـ ـداثَ والموتَ رعشةَ الإحساسِ؟

لستَ تدرىَ منْ حلَّ فى هذه البُقْـ ـعـة تحتَ التـراب والأشـواكِ
علَّـهُ كـان شـاعـراً طاهـرَ الرُّو ح حَبَتْـهُ السـماءُ قلـبَ مَـلاكِ
علَّهُ العبقـرىُّ لو أمـهَلَ المو تُ لقـاد الدُّنيـا إلى الأفـلاكِ
علَّـهُ الملهَـمُ الذى يوقظُ النـا ىَ فيفتـرُّ كلُّ قلبٍ باكِ

عبقـريّاتُهُـم زوَتْهـا المآسى مَسَحَتْ ضـوءها يدُ الأقـدارِ
فهُمُ الجاهلونَ ما رفـرفَ العلْـ ـمُ عليـهم بجُنحـه الطيَّـارِ
وهُم البـائسـونَ أطفـأ بردُ الـ ـفَقْر فيهم نبعَ اللهيبِ الوارى
فإذا عبقـريّـةُ الروحِ مَجْـرىً جـامدُ السَّيلِ راسبُ التيّـارِ

يا لَظُلْمِ الأقـدارِ كم ماسة حَسْـ ـناءَ ظلَّتْ فى ظُلْمـة الأعمـاقِ
أخفـتِ اللُجَّةُ العميقـةُ لألا ها فيـا ضيعـة السَّنا الألآقِ
كم زهور زَجَّى بهـا القَـدَرُ القـا سى بعيـداً عن أعيُنِ العُشَّـاقِ
تبعثُ العطرَ والفُتـونَ إلى جوٍّ الصَّحَـارى ودُجيـةِ الآفـاقِ

ربّما كـان تحتَ هـذا الثَرَى العـا رى قلوبٌ شـواعـرُ وعُقـولُ
ربّما كـان تحتـهـا (هامـدنُ) ثا ن زَوَاهُ مقـرُّهُ المجهـولُ
أو فتىً مثلَ (ملتنِ) الشاعـر الملـ ـهَمِ أخفـاهُ صمتُـهُ والذُهولُ
ربّما كـان تحتَـهـا (كـرومولُ) آ خَـرُ لم يُصْبـِهِ الدمُ المطلولُ

حَرَمَتْهم أيدى القَضَاء نعيمَ الـ ـعيشِ واستعبدتْهُمُ الآلامُ
فهُمُ حيثُ لا مجالسَ لا تصـ ـفيقَ حيث المخْيا هُدىً وسلامُ
وهُمُ حيثُ ليس يُهْزَا بآلا مِ الحزانَى وتُحْقَرُ الأيتامُ
وهمُ البائسونَ أرضُهمُ قَفْـ ـرٌ وأيامُهُمْ طَوَىً وسَقَامُ

غيرَ أنَّ الشقاءَ أحمدُ فى دنـ ـياهُمُ الإثمَ والأذَى والغرورا
فإذا همُ ولا جرائمَ تُدمِى الأ رضَ من حولهم ولا تدْميرا
لم يخوضوا الحروبَ سَعْياً إلى المجـ ـد ولم يَعْرفوا الدمَ المهدورا
والليالى مَدَّتْ لهم سُبُلَ الرحـ ـمةِ فاستعذبوا الشعورَ الطَهورا

وُهوَ الفَقْرُ ردَّ أنفُسَهم بيـ ـضاً من الشرِّ والأذَى والحقودِ
فإذا طافَ باطلُ بحِماهُمْ احمرارُ الحياء لونُ الخدودِ
ليسَ فيهم من سَخَّرَ الشعرَ والفنَّ عبيداً للمَطْمعِ المحدودِ
ليس فيهم من داسَ آلهةَ الفنِّ على مَذْبح الغِنَى المنشودِ

ولقد أمضَوا الحياةَ بعيدِ ـنَ عن النَّار واحتدامِ الصراعِ
مـلأتْهم ألوانُ أحلامهم نُبْـ ـلاً فلم تُغْرِهم رؤى الأطماعِ
عبروا وادىَ الحياة سُكوتاً مُغْرَقى العُمْرِ فى صفاء الطباعِ
لهو هم مُنْبَع يفيضُ على الأر ضِ ونايٌ نشوانُ فى فم راعِ

رقـدوا والقـبـور عـارية إلاّ من الصـمـت والهـدوء الحـزين
وعلى البُـعْـد تلمحُ العـينُ تمثـا لاً ضـئـيـلاً يبكى لصَـرْعَى المنون
كُـتبتْ تحتـهُ قـواف وأشـعـا رٌ تـغـنّى لمـن ثَـوَوْا فـى الطـين
يسـألُ العـابرينَ آهـةَ حُـزْن لقـبـورٍ تحتَ الـدُجَى والدُجـون

القبـورُ التى حَنَتْ ريشةُ الشـعـ ـرِ عليـهـا بـلحنِ حُـزْنٍ حـائرْ
فـإذا اللحـنُ لحنُ شـاد مـقلٍّ ليس فـيـه إلاّ تـفـجُّعُ شـاعـرْ
القـبـورُ التى عـلى صَـخْـرها لحـ ـنُ رثـاء يُثـيـرُ دمعَ العـابرْ
ويُنادى الأحـيـاءَ أنّ حـيـاةَ الـ ـمـرءِ حُلْمٌ عُـقْبـاهُ صـمتُ المقـابرْ

أىُّ نفـسٍ تَرَى يهـونُ عليـهـا أن تُوارَى فـى لجّـة النسـيـان؟
ولتـكن هذه الحـيـاةُ شـقـاءً من تَـراهُ يرتـاحُ للأكـفـان؟
أىُّ قلـبٍ يَرْضَى مـغـادرةَ الأر ضِ بلا حَـسْـرَةَ ولا أحـزان
وهْى أفقُ الأضواءِ والسحْرِ والأشـ ـعـارِ والقـبـرُ عـالـمُ الديدان؟

وهى الروحُ حـينَ ترحَلُ تـهـفـو لفـؤاد حـان وصـدر خَـفُـوق
والعـيـونُ المودّعـاتُ يُعَـزّيـ ـهـا أسًـى مُشْـفق ودمـعُ صـديق
ومن الـقـبـرِ ذلك المظـلـمُ البـا ردُ يعلو صـوتُ الـزّمـان العـمـيق
آهِ حـتّى فى شِلْـوِ أجسـادنـا المَيْـ ـتـة تبـقـى آثارُ ذاكَ البـريق

آه يا شـاعـرى وأنتَ؟ وقـد خَلَّـ ـدتَ ذكرى الأمـواتِ والبائسـينا
أنتَ يا من قَـصَصْتَ أنباءهـم شِعْـ ـراً وذوّبتَ قـلبَـكَ المحـزونـا
علَّ روحـاً تقـودُهُ الوحـدةُ الخُـر ساءُ يومـا إلى حِـمَـاكَ حنينا
علَّـهُ سـائلٌ غـداً عن أغـانيـ ـكَ وما قـد جرّتْ عـليك السنونا

أيّهـا الشـاعـرُ الوفـيُّ وقـد يَهْـ ـتُفُ قـلبٌ ثانٍ يُجـيبُ السـؤالا:
طالما قـبّلتْ خُطاهُ ثَرَى الـوا دى صبـاحـاً وجابتِ الأدغـالا
طالما سـارَ مُسْـرِعـاً تـنفضُ الأنـ ـداءَ أقـدامُـهُ وتطوى التـلالا
ليُلاقى إشـراقةَ الشمس فـوقَ الـ ـقِمَمِ الخُضْـرِ فـتنةً وجمـالا

ها هُنا فى الظـلالِ من شَـجَـرِ البلـ ـوطِ بيـن الأغـصـانِ والأفـيـاءِ
طالما مـدَّ جسـمَـهُ الخـائرَ المكـ ـدودَ مُسْتَسْلماً لأيدى القـضـاءِ
سابحاً فى الخيالِ مغروروقَ العيـ ـنينِ نَهْبَ اكـتـئـابةٍ خَـرسْـاءِ
أبداً يـرقُبُ السـواقـىَ حيـرا نَ ويُصْـغـى إلى خـريرِ الماءِ

كم رأينـاهُ شـارداً فى المجـالى وعلى ثغـرهِ ابتـسـامـةُ سـاخـرْ
كم لمحنـاهُ حـالمَ القَلْـبِ يحـثـثُ خُطَاهُ بينَ الروابى النـواضـرْ
تارةً ضـاحـكاً وآناً حـزينـا شاحبَ الوجْـهِ مُغْرقـاً فى الخواطرْ
قـوّستْ ظهـرَهُ همـومُ الليـالى قـضَـتْ بالأسى عليـهِ المقـادرْ

طالما سارَ شاردَ الخطو مكدو | داً كسار ضلَّتْ به قَدَماهُ
أو كمن أخلصَ الغرامَ فلم يَلْـ | ـقَ سوى البُغْضِ والجفاء هواهُ
أو كمن وشَّحَ الشقاءُ لياليْـ | ـه وماتتْ أحلامُهُ ورؤاهُ
أو كمن عاشَ حالمَ الروحِ بالنو | رِ فلم يرحمِ الظلامُ مُناهُ

وأتى الفجرُ ذاتَ يومٍ فلم أعـ | ـثرْ على الشاعرِ الشريدِ النبيلِ
لم أجِدْهُ على التلال الحبيبا | ت إلى قلبه ولا في السُّهولِ
ومَضى اليومُ ثمَّ أقبلَ ثانٍ | والفتى في مَقَرِه المجهولِ
لا إلى جانب الجداولِ ألفيْـ | ـه ولا في الرُّبَى ولا في الحقولِ

وأتاني الصَبَاحُ بالنبأ المجـ | ـهولِ فالشاعرُ الحزينُ صريعُ
حملوهُ على الأكُفِّ وألحا | نُ المراثي تفجُّعٌ وخُشوعُ
آه يا عابرَ السبيلِ اقترب واقـ | ـرأ رثاهُ فذاكَ ما تستطيعُ
كتبوهُ على حجارةِ قبرٍ | ما بكتْهُ غيرَ الدجونِ دُموعُ

"الكلمات المكتوبة على القبر"

ها هنا فى التراب فى ظُلَّة الشو ... ك وسادٌ لشاعرٍ محزونِ
جهلتْهُ الحظوظُ والمجدُ والشهـ ... ـرةُ فى ظُلْمة الزمانِ الضنينِ
لم يَنَلْ من مناهلِ العلم والفنِّ ... سوى كأسِ ظامئٍ مغبونِ
والليالى صاغتْ صِبَاهُ من الحزْ ... نِ وهزَّتْ حياتَهُ بالشجونِ

وَسِعَ الكونَ كلُّهُ قلبُهُ الخفّـ ... ـاقُ بالودِّ والحنان الدَّفُوقِ
ولقد كافأَتْهُ آلهةُ الشِّعـ ... ـرِ على قلبه النبيل الرقيقِ
مَنَح البائسينَ أثمنَ ما يمـ ... ـلكُهُ: عَبْرةَ انفعالٍ عميقِ
فَحَبَتْهُ السماءُ أنبلَ ما تمـ ... ـنحُهُ للأحياءِ: قلبَ صديقِ

آه يا عابرَ السبيلِ دعِ الشا ... عرَ فى مَرْقَدِ الردَى مُطمئنّا
لا تحاولْ كشفَ الستار عن الخيـ ... ـرِ ودَعْ مقلةَ المَسَاوئ وَسْنَى
فوراءَ الترابِ قلبٌ له فى ... رحمة الله مأملٌ ليس يَفْنَى
مأمَلُ الخافقِ الذى ضمَّهُ اللـ ... ـهُ إلى عَدله فأغمضَ عَيْنا

أيار ١٩٤٥



شظايا ورمَاد

الطبعة الأولى ١٩٤٩



مقدمة

فى الشعر، كمـا فى الحياة، يصح تطبيق عبارة بـرنارد شو: «اللاقاعدة هى القاعدة الذهبـية»، لسبب هام، هو أن الشعر وليد أحـداث الحياة، وليس للحياة قـاعدة معينة تتبـعها فى ترتيب أحداثها، ولانمـاذج معينة للألوان التى تتلون بها أشياؤها وأحاسيسـها، ولاتناقض بين هذا الرأى وما يقسم إليه النقاد الشعـر من مدارس ومذاهب حين يقـولون «كلاسيكى، رومانتـيكى، واقعى، رمزى، سريالى. . .» فهذه كلها ليست قواعد، وإنما هى أحكام.

وقد يرى كثيرون معى أن الشعر العربى، لم يقف بعد على قدميه، بعد الرقدة الطويلة التى جثـمت على صدره طيلة القرون المنصرمـة الماضية، فنحن عموماً ما زلنا أسرى، تسّيرنا القواعـد التى وضعها أسلافنا فى الجاهلية وصدر الإسلام، مـا زلنا نلهث فى قصـائدنا ونجر عـواطفنا المقيـدة بسلاسل الأوزان القديمة، وقرقـعة الألفاظ الميتة، وسدى يحاول أفـراد منا أن يخالفوا فإذ ذاك يتصدى لهم ألف غيور على اللغة، وألف حـريص على التقاليد الشعرية التى ابتكرها واحد قـديم أدرك ما يناسب زمانه، فـجهّدنا نحن مـا ابتكر واتخذناه سنّةً، كأن سلامـة اللغة لاتتم إلا إن هى جمدت على ما كـانت عليه منذ ألف عام، وكأن الشعـر لايستطيع أن يكون شعراً إن خرجت تفعـيلاته على طريقة الخليل.

ويقولون: ما لطريقة الخليل؟ وما للغة التى استعملها آباؤنا منذ عشرات القرون؟ والجـواب أوسع من أن يمكن بسطه فى مـقدمـة قصيـرة لديوان، ما لطريقة الخليل؟. . . ألم تصـدأ لطول ما لامسـتها الأقلام والشـفاه منذ سنين وسنين؟ ألم تألفها أسماعنا، وترددها شفاهنا، وتعلـكها أقلامنا، حتى مجتها منذ قرون ونحن نصف انفعالاتنا بهذا الأسلوب حتى لم يعد له طعم ولا لون

لقد سارت الحـياة، وتقلبت عليها الصور والألوان والأحـاسيس ومع ذلك ما زال شعرنا صـورة لقفا نبك، وبانت سعـاد، الأوزان هى هى، والقوافى هى هى. . وتكاد المعانى تكون هى هى؟

ويقولون: مـا للغة؟ وأية ضرورة إلى منحهـا آفاقاً جديدة؟ فـينسون أن اللغة إن لم تركض مع الحياة ماتت، والواقع أن اللغـة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء، التى تستطيع بها مواجهة أعاصير القلق والتحرق التى تملأ أنفسنا اليوم, إنها قد كانت يوماً لغة موحـية، تتحرك وتضحك وتبكى وتعصف، ثم ابتليت بأجيال من الذين يجيدون التحنيط وصنع التماثيل، فصنعوا من ألفاظها «نسخاً» جاهزة، ووزعوها على كتـابهم وشعرائهم، دون أن يدركوا أن شاعراً واحداً قـد يصنع للغة مـا لايصنعه ألف نحـوى ولغوى مجـتمـعين, ذلك أن الشاعر بإحســاسه المرهف وسمعه اللغوى الدقيق، يمد للألفــاظ معانى جديدة لم تكن لها، وقـد يخرق قاعدة مدفـوعاً بحسه الفنى، فـلا يسئ إلى اللغة، وإنما يشدها إلى الأمام, الشاعر أو الأديب إذن هو الذى تتطور على يديه اللغة أما النحـوى واللغوى فلا شـأن لهما بها، النحـوى واللغوى عليهـما واجب واحد هام، واجب الملاحظة واستخلاص قواعـد عامة من كلام «المرهفين» من الكتّاب والشعراء.

على أن الأديب الذى سنتفق على تسميته «مرهفاً»، لابد أن يملك ثقافة عميقة تمتد جذورها فى صميم الأدب المحلى،قديمه وحديثه، مع اطلاع واسع على أدب أمة أجنبـية واحدة على الأقل، بحـيث يتهيأ له حس لغـوى قوى، لايستطيع معـه إن هو خلق، إلا أن يكون ما خلق جمالاً وسمـوا، فإذا خرق قاعدة، أو أضـاف لوناً إلى لفظة، أو صنع تعبيراً جديداً، أحـسسنا أنه أحسن صنعاً، وأمكن لنا أن نعد ما أبدع وخرق قاعدةً ذهبية.

ولن تقف وظيفة الأديب المرهف، عند خرق قـاعدة هنا، وإضافة معنى هناك، وإنما سيكون عليـه واجب أدق من هذا تفرضه عليه طبـيعة التطور فى

اللغات الإنسانية الحية، سيكون عليه أن يُدخل تغييراً جوهرياً على القاموس اللفظى المستعمَل فى أدب عصره، فيترك استعمال طائفة كبيرة من الألفاظ التى كانت مستعملة فى القرن المنصرم ويُدخل مكانها ألفاظاً جديدة لم تكن مستعمَلة، ذلك لأن الألفاظ تخلق كما يخلق كل شىء يمر عليه إصبع الاستعمال فى هذه الحياة المتغيرة، وهى تكتسب بمرور السنين، جموداً يسبغه عليها التكرار، فتفقد معانيها الفرعية شيئاً فشيئاً، ويصبح لها معنى واحد محدود، يشلّ عاطفة الأديب، ويحول دون حرية التعبير.

ثم إن هنالك سبباً آخر هاماً يستدعى هذا الاستبعاد للألفاظ التى كثر استعمالها، هو أن الأذن البشرية تمل الصور المألوفة والأصوات التى تتكرر، وتستطيع أن تجردها من كثير من معانيها وحياتها، وخير مثال لهذا أننا ننفر الآن بطبيعتنا من استعمال ألفاظ كهذه: «عمبر، كافور، غصن بان، قد، هلال، صدغ، عود، نرجس، لؤلؤ» وهى ألفاظ كانت فى بعض العصور السالفة تبدو رقيقة شعرية، وربما كانت يوماً مما لايستعمله إلا المجددون من الشعراء.

وقد لاحظت خلال دراستى للآداب المعاصرة، هذه الملاحظة الطريفة: لاحظت أننا فى هذا العصر، قد أصبحنا ننسى المدلول الخاص لكلمة «البدر» فنهملها إهمالاً يكاد يكون كلياً، ونؤثر عليها لفظ «القمر» وقلَّ فى الشعراء المعاصرين مَن يرضى استعمال كلمة «بدر» إلا فى الحالات النادرة، وأنا أعترف، أننى أكلف نفسى أحياناً متاعب كثيرة، لكى لاأستعملها، والتعليل السايكولوجى لهذا يسير، فأنا وسواى نتذكر بلا شك تلك العشرات من الأبيات الصماء النافرة التى تركها شعراء العصر المنطفىء الماضى، واستعملوا فيها كلمة «بدر» حتى جردوها من جمال معناها، وأطفأوها، وأبقوا منها ظلالهم هم عليها.

ربما كان هذا كله من عمل ما يسميه علماء النفس الاقتران Association وربما كان لـه عندهم تعليل آخر، سـوى أن هذا كله يتعلق بالسـبب لا بواقع الأمر، فالمهم أن الألفاظ تصدأ وتحول، وتحتـاج إلى استبدال بين حين وحين، وقد رأينا أن هذا الاسـتبدال وظيـفة الأديب يقـوم بها وهو «نصف واع» لأن الوعى التام قلما ينتج شيئاً ذا قيمة.

* * *

لنعد إلى حديث الأوزان..

فى هذا الديوان لون بسيط من «الخروج» على القـواعد المألوفة، يلاحظ فى قصائد مثل «جـامعة الظلال» و«لنكن أصدقاء» و«مرثيـة يومٍ تافه» و«أغنية الهاوية» وسواها، وقـد يحسن بى أن أؤكد للقارئ أننى لا أعـدّ نفسى واحدة من المرهفين الذين تحدثت عنهم فى الصفحـات السابقة، سوى أننى أحسست أن هذا الأسلوب الجديد فى ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد، وسأحاول فيما يلى أن أبسط خاصية هذا الأسلوب، ووجه أفضليته على أسلوب الخليل، الأبيات التالية تنتمى إلى البـحر الذى سماه الخليل «المتقارب» وهو يرتكز إلى تفعيلة واحدة هى «فعولن»:

يداك للمس النجوم

ونسج الغيوم

يداك لجمع الظلال

وتشييد يوتوبيا فى الرمال

أتراني لو كنت استعملت أسـلوب الخليل، كنت استطيع التـعبـير عن المعنى بهذا الإيجـاز وهذه السهولة؟ ألف لا، فـأنا إذ ذاك مضطرة إلى أن أتم

بيتاً له شطران، فأتكلف معانى أخرى غير هذه، أملأ بها المكان، وربما جاء البيت الأول بعد ذلك كما يلى:

يداك للمس النجوم الوضاء ونسج الغمائم ملء السماء

وهى صورة جنى عليها نظام الشطرين جناية كبيرة، ألم نلصق لفظ «الوضاء» بالنجوم دونما حاجة يقتضيها المعنى إتماماً للشطر بتفعيلاته الأربع؟ ألم تنقلب اللفظة الحساسة «الغيوم» إلى مرادفتها الثقيلة «الغمائم» وهى على كل حال لاتؤدى معناها بدقة؟ ثم هنالك هذه العبارة الطائشة «ملء السماء» التى رقعنا بها المعنى، وقد أردنا له الوقوف فخلقنا له عكازات؟

هذا كله إذا نحن اخترنا الوزن «المتقارب»و أما إذا اخترنا «الطويل» مثلاً، فالبلية أعمق وأمر، إذ ذاك تطول العكازات وتتسع الرقع، وينكمش المعنى انكماشاً مهيناً، فنقول مثلاً:

يداك للمس النجوم أو نسج غيمة يسيرها الإعصار فى كل مشرق

ليلاحظ القارئ بلادة التعبير، وتقلص المعنى، وأين هذا من تعبيرنا الأول:

يداك للمس النجوم
ونسج الغيوم

وينبغى ألا ننسى أن هذا الأسلوب الجديد، ليس «خروجاً» على طريقة الخليل، وإنما هو تعديل لها، يتطلبه تطور المعانى والأساليب خلال العصور التى تفصلنا عن الخليل، فالخليل قد جعل وزن البحر «الكامل» كما يلى:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن
كفاى ترتعشان أين سكينتى؟
متفاعلن متفاعلن متفاعلن

شفتاى تصطخبان أين هدوئى؟

مرتكزاً إلى «مـتفاعلن» التى اعتـاد العرب أن يضعـوا ثلاثاً منها فى كل شطر؟ وكل ما سنصنع نحن الآن، أن نتلاعب بـعدد التفاعيل وترتيبـها فتجئ القصيدة من هذا البحر أحياناً كقصيدة «جدران وظلال» وهذا مقطع منها:

وهناك فى الأعماق شىء جامد

حجزت بلادته المساء عن النهار

شىء رهيب بارد

خلف الستار

يدعى جدار

أواه لو هدم الجدار

ولو قطعناه لجاءت تفعيلاته كما يلى:

متفاعلن متفاعلن متفاعلن

متفاعلن متفاعلن متفاعلان

متفاعلن متفاعلن

متفاعلان

متفاعلان

متفاعلن متفاعلان

ومزية هذه الطريقة أنهـا تحرر الشاعر من طغيـان الشطرين، فالبيت ذو التـفاعيل الـست الثابتـة، يضطر الشاعـر إلى أن يختم الكلام عند الـتفعـيلة السادسـة، وإن كان المعنى الذى يريده قـد انتهى عند التفـعيلة الرابعـة، بينما يمكنه الأسلوب الجديد من الوقوف حيث يشاء.

* * *

ثم نتحدث عن القافية، ذلك الحجر الذى تلقمه الطريقة القديمة كل بيت، قالوا إن العربية لغة واسعة غنية، وأن ذلك يبرر كونها اللغة الوحيدة التى اتخذت القافية الموحدة سنة فى قصائدها، ونسوا أن أية لغة مهما اتسعت وغنيت، لاتستطيع أن تمد «ملحمة» بقافية موحدة، أياً كانت، ولم ينتهوا إلى أن ذلك كان واحداً من الأسباب التى حالت دون وجود الملحمة فى الأدب العربى، مع أنها وجدت فى آداب الأمم المجاورة، كالفرس واليونان.

وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفادحة التى أنزلتها القافية الموحدة بالشعر العربى طيلة العصور الماضية، وإنما المهم أن نلاحظ أن هذه القافية تضفى على القصيدة لوناً رتيباً يمل السامع فضلاً عما يثير فى نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية، ومن المؤكد أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة، ووأدت معانى لاحصر لها فى صدور شعراء أخلصوا لها، ذلك لأن الشعر الكامل «الغنائى منه خاصة، والشعر العربى غنائى كله تقريباً» لايستطيع أن يكون إلا وليد الفورة الأولى من الإحساس فى صدر الشاعر، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيل اندفاعها، فهى أشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم، والقافية الموحدة قد كانت دائماً هى «العائق»، فما يكاد الشاعر ينفعل، وتعتريه الحالة الشعرية ويمسك بالقلم فيكتب بضعة أبيات، حتى يبدأ محصوله من القوافى يتقلص، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله، والتفكير فى القافية، وسرعان ما تغيض الحالة الشعرية وتهمد فورتها، ويمضى الشاعر يصف الكلمات ويرص القوافى دونما حس، ولذلك، قلما نجد فى أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة، يسيطر عليها جو تعبيرى واحد منذ مطلعها إلى ختامها، فالشاعر يضطر إلى مصانعة القافية، وأنا أعرف شعراء يختارون القافية، ثم يكتبون البيت وفقاً لها، وهذا أبرز دليل على مدى طغيان هذه الإلهة المغرورة.

إلا أن من حسن الحظ، أن شعراءنا المعاصرين قد استخفوا بسلطان القافية، وخرجوا عليه فاستعملوا نظام الرباعية وأشباهها، ويكاد هذا يصبح الآن أمراً مقبولاً، لايبقى على قوافى هذا الديوان اعتراضاً، إلا أننى أعترف مع ذلك بأننى أخضعت القافية أحيانا، لأكثر مما فعل سواى، فنظمتها فى قصيدة «مسامير» هكذا: «أ ب أ، ب ج ب، ج د ج، د هـ د، هـ و هـ . .إلخ.»(١) وفى «رماد» التى استعملت فيها نظام الرباعية كما يلى: «أ ب ب أ» وفى «غرباء» التى استعملت فيها نظام «المقطوعة Stanza» وكانت القافية فى كل مقطوعة تجرى هكذا «أأب ب أب»، أما قصيدة «الكوليرا» فقد كانت المقطوعة فيها أطول مما «ينبغى» قليلاً وقد جرت على هذا النسق «أب ب ج ج ب د د ب هـ هـ هـ هـ» على أننى حررت القافية تحريراً تاماً فى قصائد مثل «مر القطار» و«نهاية السلم» و«خرافات» و«جدران وظلال» وسواها، فتركتها تتكرر كما يشاء السياق دون تقيد بنظام معين، ولعل هذه هى الخطوة الوحيدة التى تسبق الشعر المرسل Blank Verse، وإن كان لابد من إشارة إلى قصيدة «الجرح الغاضب» فلأقرر أن الأسلوب الطريف فى تقفيتها مقتبس مباشرة عن الشاعر الأمريكى «أدجار آلان بو» فى قصيدته البديعة «Ulalume».

* * *

و قلت إن اللغة العربية لم تكتسب بعد قوة الإيحاء؛ لأن كتابها وشعراءها لم يعتادوا استغلال القوى الكامنة وراء الألفاظ استغلالا تاماً، إلا حديثاً، فقد بقيت الألفاظ طيلة قرون الفترة الراكدة «المظلمة» تستعمل بمعانيها الشائعة وحدها، وربما كان ذلك هو السبب فى جنوح الجمهور العربى جنوحاً شديداً إلى استنكار المدارس الشعرية التى تعتمد على القوة الإيحائية للألفاظ، كالرمزية، والسريالية، على اعتبار أن هذه المدارس تحمِّل اللغة أثقالاً من

الرموز والأحـلام الباطنية والخلجـات الغامضـة، واتجاهات اللاشعـور، ومثل ذلك مما لاتنهض به إلا لغة بلغت قمة نضجها.

والواقع أن القارئ العـربى يتهرب من الشـعر الرمزى، لأن اللغـة تجابه التعبير عن مثل هذه الأحاسيس المبـهمة أول مرة، فليس غريباً أن تتلكأ قليلاً، وتتوتر، أما تعليل الأمر بأن ذاتية العربى تنفر بطبعها من الرموز ولاتجد جمالاً فى الدهاليز التى تتلوى وراء الحس، والعوالم الخفية الـتى يعسر إدراكها، فأمر لا أعتقد به أنا على الأقل..

ذلك لأن النفس البشرية عموماً، ليست واضحة، وإنما هى مغلفة بألف ستر، وقـد يحدث كثيـراً أن تعبر الذات عن نفسـها بأساليب ملتوية، تـثيرها آلاف الذكـريات المنطمـسـة الراكدة فى أعـمـاق العـقل البـاطن منذ سنوات وسنوات، ومئـات الصور العابرة التى تمر فـيحدق فـيها العـقل الواعى ببرود وينساها نسياناً كلياً، فيتلقفها العقل الباطن ويكنزها مع ملايين الصور التافهة، ويغلق عليـها الباب، حـتى إذا آنس غفلة من العـقل الواعى، أطلقهـا صوراً غامضةً لا لون لها ولا شكل.

وليست مثل هذه الأحاسيس الغريبة وقفا على إنسان دون إنسان، سوى أن التعبير عنهـا يختلف، فالإنسان العادى يراها فى أحلامه، أمـا الفنان فيعبر عنها بفنه وأحلامـه معاً، وما دمنا لانستغـرب حين نستيقظ أحيـاناً فى أعماق الليل وقد حلمنا أننا نركض حفاة، فى قبو قديم، كان جزءاً من دار خربة كنا نسكنها منذ ثمانى عـشرة سنة كاملة، لم نعد إليها خـلالها مطلقاً، ومع ذلك لاحظنا فى الحلم أدق الأشـياء المنطمـسـة التـافهـة التى شـاهدناها فى السنين الغابرة، ذلك المسمار القديم المعـوج على الجدار، وقد تدلى منه الحبل الباهت القديم نفســه، ثم هناك، على ارتفاع أمتار، أنبوب الميـاه الذى كنا فى طفولتنا نتسلقه أحيـاناً، أقول: ما دمنا لانستغرب ذلك فى حلم فلمـاذا لا نتقبله حين

يصفه شاعر فى قصيدة؟ إن الشاعر الذاتى الذى يراقب نفسه، كما لو كان يراقب بحراً زخراً لا شطآن له ولا قرار، لايستطيع أن يتهرب من مثل هذه الصور الباهتة الممحوة، فهى تلاحقه أبداً، ولابد له من وصفها فى شعره، والإبهام جزء أساسى من حياة النفس البشرية، لا مفر لنا من مواجهته إن نحن أردنا فناً يصف النفس، ويلمس حياتها لمساً دقيقا.

ومع ذلك فالإبهام ليس مقصوداً لذاته، وإنما هو صورة من صور الحياة، ولذلك يندر أن نجد شاعراً، كل شعره معقد ملتو، أما الذين يتعمدون تعقيد شعرهم، فقد يكون (ألدس هكسلى) التمس لهم بعض العذر حين قال إن المعاصرين يهربون إلى الإبهام خوفاً من الوضوح الذى هو الصفة الأساسية فى الأدب الشعبى.

وليس قصدى من هذا التعليل للتعبير الرمزى والسريالى، أن أقول إن طائفة من قصائد هذه المجموعة تنتمى إلى هذه المدرسة أو تلك، وإنما أود أن أمهد لطائفة من القصائد التى عالجت فيها حالات تتعلق بالذات الباطنية أحياناً، وباللاشعور أحياناً، وهى حالات لم يقف عندها الشعر العربى إلا نادراً، فهو قد وقف نفسه على معالجة السلوك الخارجى للإنسان.

ففى «الخيط المشدود فى شجرة السرو» حاولت رسم صورة شعرية للانفعالات والخواطر التى اعترت شاباً فوجئ بنبأ موت حبيبته، وسيلاحظ أن القصة العاطفية فى هذه القصيدة ثانوية الأهمية بالنسبة للخيط المشدود فى الشجرة وما كان له من صلة وثيقة بشرود الشاب المصدوم، وفى حالة الهذيان الداخلى التى اعترته، فعقدة القصيدة تعتمد على الحالة التى تعترى إنساناً يتلقى نبأ مثيراً فاجعاً لايتوقعه؛ فهو إذ ذاك يصاب بشرود كبير عميق، ويبدو أنه لم يسمع النبأ، ويتلفت حوله فتعلق عيناه بأول شىء تافه تصادفانه، فيغرق فى التفكير فيه، وقد كان الشىء التافه فى هذه القصيدة هو الخيط، كان

مشدودا فى شجرة سرو تقوم عند الباب فـانشغل العقل المصدوم بالتفكير فيه، وبقى منشغلاً حتى عاد إليه وعيه وأدرك فداحة المأساة التى نزلت به.

ولن يعثر القارئ على شىء مثير فى قصيدة «مر القطار» إن هو توقع أن يجد فيهـا وصفاً للقطار أو لرحلة فى القطار، فقد كـان غرضى الأساسى من كتابتها أن أعبر عن الشعور الغامض الذى يحسه المسافر ليلاً بالدرجة الثالثة من القطار، فهناك حـالة التعب الكلى التى يجد فيـها المرء نفسه مـشوبة بلون من الكسل والارتخاء، وهناك صوت عجـلات القطار الرتيب الذى لايتغير، ولون الغبـار المتراكم على كل شىء، على الحـقائب، وعلى الوجوه والثـياب، ثم هناك منظر المسافرين الغرباء وقد جمعتـهم عربة القطار صفوفاً، والقطار يصفر بين حين وحـين فيثيـر إحساسـاً غريباً فى النفس، كل ذلك والسكوت يغـمر العربة، التى نام أغلبـية الموجودين فيـها وهم جالسون على مقـاعدهم، وبين فترة وأخرى، يصـدف أن يتثاءب مسافر غريب لا نعـرفه، ويهتف بملل وبرود «كم السـاعـة الآن؟» أو «مـتـى نصل؟» أو «أين نحن؟» أو مـثل ذلك من العبارات، فإذا أحس قارئ «مر القطار» ببعض هذا الجو كان ذلك حسبى.

أما قصيدة «الأفعوان» فقد عبرت فيها عن الإحساس الخفى الذى يعترينا أحيانا بأن قوة مجـهولة جبارة، تطاردنا مطاردة نفسية ملحـة، وكثيراً ما تكون هذه القوة، مجموعة من الذكـريات المحزنة، أو هى الندم، أو عادة تمقتها فى سلوكنا الخارجى، أو صورة مـخيفة قابلناها فلم نعد نستطـيع نسيانها، أو هى النفس بما لها من رغبـات وما فيها من ضـعف وشرود، أو أى شىء آخر. . . فالأمر متـوقف على ذاتية القارئ، وليس يعنيه أن أعين «افـعوانى» أنا، فذلك أمر ثانوى، وإنما المهم، أن هذا الأفعوان يطاردنا باستمرار وسدى نتهرب منه، حتى إذا لذنا باللابرنث Labyrinth «وهو تيه مـعقد المسـالك يدخله المرء فلا يملك مغادرته لالتـواء طرقه وكثرة أبوابه»، حتى إذا استعـملنا طريقة الإيحاء الذاتى كما صنعت أنا فى القصيدة:

إنه لن يجيء
لن يجيء وإن عبر المستحيل
أبداً لن يجيء

فالنتيجة الحتميــة، أنه يجيء أخيراً، وسرعان ما نصرخ «إنه جاء!» وفى قصيدة «خرافات» يجد القارئ لوناً من الشعــور أحسه، ويحسه كثيرون، كلما ساد الســكون مكانا، فإذ ذاك نســمع بأذن الروح ألف قصــة تقصــها الأشــياء الراكدة حــولنا، فالسيــاج يتكلم ويعيد مــا كانت عنده من ذكــريات انطمست وماتت، و«قــصائص الورق الممــزق فى الخرائب» تحكى أقاصــيص مثــيرة عن حوادث بعيدة منســية، و«الغبار» يقص قصة النســيان الذى تذره العصور على كل شىء، و«مقاعد الغرف القديمة» تتــحدث عن جيل من الناس مر بها يوماً ثم انتــقل إلى أفق بعيــد مجهــول، وهكذا. . . حتــى يكاد الإنسان الحــساس لايرى شيئاً إلا ويحسه يغمغم ويهمس ويطارده بالكلام.

* * *

والذى أعتــقده أن الشعر العــربى، يقف اليوم على حافــة تطور جارف عاصف لن يبقى من الأســاليب القديمة شيئاً، فــالأوزان والقوافى والأساليب والمذاهب ستتزعزع قواعدها جميعاً، والألفاظ ستتسع حتى تشمل آفاقاً جديدة واسعة من قوة التعبير، والتجارب الشعــرية «الموضوعات» ستتجه اتجاهاً سريعاً إلى داخل النفس، بعد أن بقيت تحوم حولها من بعيد، أقول هذا اعتماداً على دراسة بطيئة لشعرنا المعاصر واتجاهاته وأقــوله لأنه النتيجة المنطقية لإقبالنا على قــراءة الآداب الأوروبية ودراســة أحــدث النظريات فى الفلســفــة والفن وعلم النفس، والواقع أن الذين يريدون الجــمع بين الثقافــة الحديثــة وتقاليد الشــعر القديمة، أشبه بمن يعيش اليوم بملابس القرن الأول للهجرة، ونحن بين اثنين: إما أن نتعلم النظريات ونتأثر بها ونطبقها، أو ألا نتعلمها إطلاقاً.

وقد يفيدنا أن نتذكر دائماً أن التطور الذى يحدث فى الفنون والآداب فى عصر ما، أكثر ما يكون ناشئاً عن التقاء أمتين أو أكثر، فقد يحدث أن أمة معينة، تخمد قابلياتها وتركد قروناً كاملة بتأثير عوامل خاصة، ثم يأتى عليها زمن متوثِّب يوقظها فتتململ وتتحرك، وترنو إلى ما حولها، وتبدأ باستيعاب ما فاتها من ثقافات، فتستفيد من تجارب أمة مجاورة بقيت نشيطة فأضافت إلى الفكر الإنسانى فصولاً لامعة، فما يمضى نصف قرن حتى تنتهى الأمة التى كانت راكدة من مرحلة الاستيعاب، وتبدأ حيث وقفت الأمة المجاورة تبدأ بالإضافة، وهذا هو الأسلوب الذى يتبعه خط التطور فى تاريخ الأمم، بحيث لانستطيع أن نعثر على مذهب، أو اختراع، أو نظرية، توصلت إليها أمة بعينها، دون أن تستفيد من تجارب الأمم الأخرى.

* * *

آخر ما أود أن أقوله فى هذه المقدمة، إننى أؤمن بمستقبل الشعر العربى إيماناً حاراً عميقاً، أؤمن أنه مندفع بكل ما فى صدور شعرائه من قوى ومواهب وإمكانيات، ليتبوأ مكاناً رفيعاً فى أدب العالم.

وألفُ تحيةٍ لشعراء الغد.

١٩٤٩/٢/٣

نازك الملائكة



كبرياء

لا تَسَلْني عن سرِّ أدمعيَ الحرَّ ... ى فبعضُ الأسرار يأبى الوضوحا
بعضُها يؤثِرُ الحياةَ وراءَ الـ ... ـحسِّ لُغْزاً وإن يكنْ مجروحا

بعضُها إن كشفتَه يُسْتَحلْ حُبْـ ... ـاً مُهاناً يموتُ موتاً حزينا
بعضُها بعضُها تكبَّر أن يكـ ... ـشفَ عمّا وراءَهُ أو يُبينا

ومئاتُ الأسرار تكمنُ في دمـ ... ـعةِ حُزْنٍ تلوح في مقلتينِ
ومئاتُ الألغاز في سكتةِ تهـ ... ـتزُّ خلفَ انطباقةِ الشفتينِ

وعيونٌ وراءَ أهدابها أشـ ... ـباحُ يأسٍ في حَيرةٍ وانكسارِ
تؤثِرُ الظلَّ والظلامَ ارتياعاً ... من ضياءٍ يبوحُ بالأسرارِ

وقلوبٌ تضمُّ أشلاءها فو ... قَ جراحٍ وأدمعٍ وذهولِ
تؤثِرُ الموتَ كبرياءً ولا تنطـ ... ـقُ بالسرِّ بالرجاءِ الخجولِ

وشفاهُ تموتُ ظمأى ولا تَسْـ ... ـأل أينَ الرحيقُ؟ أين الكأسُ؟
ونفوسٌ تحسُّ أعمقَ إحسا ... سٍ وتبدو كأنّها لا تُحسُّ

وأكفٌ تودُّ لو مَــزَّقتْ لو ... قَـتَلَتْ لو تمرّدتْ فى جُنونِ
لو رأتها الحيـاةُ قـالتْ: هدوءٌ ... وادعٌ فـى بـراءةٍ وسـكـونِ

لو رأتهـا مـاذا تَرَى؟ كلُّ شىء ... مُـغْرَقٍ خلفَ داكناتِ السُّتورِ
ألفُ سـتـرٍ وألفُ ظلٍّ من الكبـ ... ـتِ عـمـيقٍ وألفُ قـيـدٍ ونيـرِ

لا تَسَلْنى لاتجرحِ السرَّ فى نفـ ... ـسى ولا تَمْحُ كبـرياءَ سكوتى
لو تكلمتُ كـانَ فى كل لفظٍ ... قبرُ حُلمٍ وفـجرُ جُرْحٍ مُميت

لو تكلمتُ كـيفَ ترتعشُ الأشـ ... ـعـارُ حُـزناً وترتمى فى عَـيَـاءِ
لو كشـفتُ السرَّ العميق فمـاذا ... يتـبـقى منى سـوى الأشـلاءِ؟

لو تكلمتُ رعشـةٌ فى حيـاتى ... وكـيـانى تُلحُّ أن أتكلّمْ
وسكوتى العـمـيق يكتم أنفـا ... سى وقلبى يكادُ أن يتـحـطّمْ

لـو تكلمت لو سكتُّ نداءا ... ن عميقان كالحياة استعارا
تتـلاقى عليـهـمـا كلُّ أسـرا ... رى فـأبقى شِعـراً وحبّـاً وناراً

وتظلُّ الحيـاةُ تخلُقُ من وجـ ... ـهى قناعـاً صَلْداً يفـيضُ رياءا
جـامـداً بارداً أصـمّـاً ويُخْفى ... بعضَ شىءٍ سـمّـيتُـه كبـرياءَ

(١٩٤٨)

يوتوبيا الضائعة

صدىً ضائعٌ كسراب بعيد ... يجاذب روحى صباحَ مساءْ
أنامُ على رَجْعِهِ الأبدىّ ... ويوقظنى برقيقِ الغناءْ
صدىً لم يشابهْه قطّ صَدَىً ... تغنّيه قيثارةٌ فى الخفاءْ
إذا سمعتْهُ حياتى ارتمت ... حنينًا ونادتهُ ألفَ نداءْ
يموت على رجعه كلُّ جُرْح ... بقلبى ويُشرقُ كلُّ رجاءْ
ويمضى شعورى فى نشوةٍ ... يخدّرُهُ حُلْم يوتوبيا

ويوتوبيا حُلُمٌ فى دمى ... أموتِ وأحيا على ذكرهِ
تخيَّلته بلداً من عبير ... على أفق حِرْتُ فى سرِّهِ
هنالك عبر فضاءٍ بعيد ... تذوب الكواكب فى سحرِهِ
يموت الضياء ولايتحقق ... ما لونه ما شذى زهرِهِ
هنالك حيث تذوب القيود ... وينطلق الفكر من أسرِهِ
وحيث تنام عيون الحياة ... هنالك تمتدُّ يوتوبيا

ويوتوبيا حيث يبقى الضياء ... ولاتغرب الشمسُ أو تَغْلسُ
وحيث يظلُّ عبيرُ البنفسجِ ... حيّاً ولايذبل النرجسُ
وحيث تفيضُ الحياةُ رحيقاً ... غمراً ولاتفرُغُ الأكؤسُ
وحيث تضيعُ حدودُ الزمان ... وحيثُ الكواكبُ لاتنعسُ
هناك الحياة امتداد الشباب ... تفور بنشوته الأنفسُ
هناك يظلُّ الربيعُ ربيعاً ... يظلّلُ سكان يوتوبيا

هنالكَ حيث وعتْ شهرزاد ... أقاصيصَ غنّتْ بها ألفَ ليلهْ
وحيثُ دِيانا تسوقُ الضياء ... ونارسيسُ يعبُدُ فى الشمسِ ظلَّهْ
هنالك يوتوبيا فى الضباب ... على شفق لم ترَ العين مثلهْ
يحفُّ بها أبدٌ من عطور ... ويمنحُها ألفَ لحنٍ وقُبْلهْ
وترقدُ فى سَكْرة لا تُحَدُّ ... على رجع أغنية مضمحلَّهْ
على شاطئٍ كضياء النجوم ... أسمّيه شاطئَ يوتوبيا

هنالك طوَّفتُ ذات مساء ... وكان معى هيكلٌ كالسرابْ
أُحسُّ خطاهُ على الرمْل لكن ... أرى غيرَ شيء وبعض سحابْ
وكنتُ أحسُّ بجسمى حياةً ... تطيرُ بروحىَ فوق الترابْ
وكان أمامى ممرٌ غريبٌ ... تغلّفُهُ دفقات الضبابْ
ويمتدُّ عن جانبيه خليجٌ ... وبعضُ جزائرَ بعضُ هضابْ
وفى حلُمى صحتُ: أين أسير ... فردَّ صدىً: قربَ يوتوبيا!

أحسستُ في قعر روحي جنوناً وشوقاً عميقاً كبحرٍ عميقْ
أريدُ انتهاء الطريقِ الغريب إلى البلد المتمنَّى السحيقْ
لى ذلكَ الأفقِ الأزليّ وحيث يعيشُ أبولو الرقيقْ
أسيرُ أسيرُ ولا شيءَ يبدو أمامي غيرَ امتداد الطريقْ
على ظمأ لوجود عجيب يذوبُ عليه النَدَى والبريقْ
على ظَمأ صارخٍ وأخيراً صحوتُ ولم أرَ يوتوبيا

وفي حُلُم آخرٍ كنتُ أمشي على شاطئ من حصىً ورمالْ
غريب غريبٍ بلونِ الأثير يحفُّ به أُفُقٌ كالخيالْ
تناهى بأقدامي َالمُتعَبَات إلى صخرة رسخَتْ كالمحالْ
تسلُّقُها أملٌ مضمحلٌّ فقد تتزحلقُ حتى الظلالْ
وقفتُ على قَدمَيْها أنوحُ على حُلُمٍ بائسٍ لن يُنالْ
وساءلتُ ماذا ترى خلفَها؟ فقال لىَ الرملُ: يوتوبيا!

وفي حُلمٍ ثالثُ خلتُ نفسي على بابها المرمريِّ الكبيرْ
أحدّقُ في نشوة لا تحدُّ أكادُ أُجَنُّ.. أكادُ أطيرْ
أحقا أرى البابَ؟ ألواحُهُ تلوحُ مبطَّنةً بالحريرْ
تقدمتُ واجفةً في خُشوعٍ وفي مقلتي ومْضُ حُلْمٍ قريرْ
أدقُّ على الباب في نَشْوةٍ ولا ردَّ غيرَ السكونِ المريرْ
فصحتُ بصوتٍ حبيسٍ: دعوني أموتُ على بابِ يوتوبيا

ومــرتْ حــيــاتـيَ مــرّت ســدىً ولا شـيءَ يـطْـفـئُ نــار الـحـنـيـنْ
سدىً قد عبـرتُ صحارى الوجود سُـدىً قـد جـررتُ قـيــود السنينْ
ومــا زلتُ أذرعُ صــمــتَ القــفــارِ وأســـألُ عن ســـرِّهـا العــابـرينْ
يـطـولُ عـلـى قـلـبـيَ الانـتـظـار وأغــرقُ فـي بحــر يأسٍ حـــزينْ
أحــــاولُ أن أتـعــــزى بشـيء بـغـــــــاب، بـواد، بـظـلة تـيـنْ
دقـــائـقَ... ثم أخــيـبُ وأهـتُفُ: لا شيءَ يُشـــبــهُ يـوتـوبـيـــا

ســـأبقـى تجـــاذبنى الأمـنيـــات إلى الأفق الســـرمـــدىِّ البـعـيــدْ
وأحلُـمُ أحلُمُ لا أســـتــــفـــيـ ـقُ إلا لأحـلُمَ حُلْـمـــاً جــــديدْ
أقــبّلُ جـــدرانهـــا فى الخـــيـــال وأســـألُ عنهـــا الـفـضـــاءَ المديدْ
وأســألُ عنـهـــا انسكابَ الـعطور وقَطْـرَ الندى ورُكـــامَ الجليـــدْ
وأســألْ حــتى يمـوتَ الســؤال على شــفـتيَّ ويـخـبـو النشـيــدْ
وحــين أمــوتُ... أمـوتُ وقـلبى على مــــوعــــدٍ مع يوتـوبيـــا

١٩٤٨

تواريخ قديمة وجديدة

لِنَسِـــرْ كـــان أمسٌ ومـــاتْ　　　منذُ بضع مـــئـــات السنينْ
مَـــســحتْ ذكـــرَهُ السنوات　　　وطوتهُ مع الميِّـــتـــيـــنْ

وبحـــثْنا زمـــانـاً طويـلْ　　　عن كـــواكـــبـــه الآفـــلاتْ
واســتـعـــرنا يدَ المســتـحـيلْ　　　لنُعـــيـــدَ إليـــه الحـــيـــاةْ

وأهبْنا بركـب العُـــصـــورْ　　　أن يعـــــودَ علـى بَدْء
علَّنا نســتــعــيــدُ الشــعــورْ　　　فَـــرَجـــعْنا بلا شيء

كم شـــقـــقنا هناكَ الظلامْ　　　وعـــبـــرْنا سكونَ الركـــودْ
ونـبـــشنا رُكَـــامَ العظامْ　　　لم نجـدْ شـيـئَنا المفـقـودْ

ورأينـا هناك جـــبـــاهْ　　　لا ترى فـــهـي عـــمـــيـــاءُ
وعـــيـــوناً طوتْهـا الحـيـاهْ　　　صـــمـــتتْ فـــهي خـــرســـاءُ

ورأينـا رفـــــاتَ قلوبْ　　　حنّطتْـــهـــا يدُ الذكـــريـاتْ
وســـديً حـــاولـتْ أن تؤوبْ　　　مـــعنا فـهْي.. فـــهي رُفـــاتْ

ورأينا شـــفـــاهاً خـــوتْ		لم تَـعُـــد تشـــتكى أو تجـــوعْ
وأكـــفّـــاً ذوتْ وانطوتْ		لم يـعـــد لأســـاها دمـــوعْ

وســـــألنـا عـن الأمسِ		فـــعـــثـــرنا على تـابوتْ
وهـــنـــاكَ عـــلـــى الـرمْـــسِ		يجـــثمُ الـزمنُ المبـــهـــوتْ

ورَجـــعنا إلى التـــقـــويمْ		علّـنـا نـخـــــدعُ الأيـامْ
فـســمـعنا صُـــراخَ الهـشـيمْ		خلـفَ ســـخـــرية الأرقـــامْ

ورأيـنـا الـغـــــدَ المنـتـظرْ		ســاحــبـاً نـصـفَـــهُ المشـلولْ
ســاحــبـاً نـصـفَـنـهُ المُحتَـقَـرْ		نصـــفَـــهُ الجـــامـــدَ المملولْ

وهـناكَ انـطـوى ســـفـــرُ		واخـــتـــتـمْنا النشـيـدَ القـديمْ
وغـــداً يـنبُـتُ الـعُـــمْـــرُ		فـــوقَ جُـــرْح الـزمـــانِ الألـيم

ويتـــيـــهُ صـــدى الأمسِ		فى مـــدار الـزمـانِ الـعـــمـــيقْ
ونُـحِـس عـلـــى الـكـــأسِ		فـــورةَ الحُلمُ المســـتـــفـــيقْ

١٩٤٨

صـــراع

أحبُّ.. أحـبُّ.. فــقلبى جُنون		وســورةُ حبٍّ عـمـيـق المَدَى
أحبُّ فــروحىَ حسٌ غــريبُ		يضـيع لـديه جـمـودى سُـدَى
حـيـاتىَ فـى العـالـم الشـاعـرىّ		لهــيبٌ من الحبّ لـن يَخْـمَـدا
وجـسمى قَلبٌ خَفُوقٌ خفـوق		سـيلبثُ ملتــهـبــاً مــوقَـدا

وأكــرهُ أكــرهُ قـلبى لهــيبٌ		وسَورةُ مَـقْت كـبـيـر كـبـيرْ
وروحىَ مـسـتـعـرُ الاحـتـقـار		يرى الكونَ أفْـقـاً وضيعـاً حـقير
حـيـاتى تحسّ وجـيبَ الحُـقُـود		على عــالم مـغـرَق فى الشُـرُور
ونـفـــسىَ فـى ثورة لا تَـقَــرُّ		تحـقِّـرُ مــا حـولهـا من صـخـور

أُحبُّ وأكـرهُ.. حبّـى شـقـاءْ
أحبّ وأكـــره.. كُــرْهـى ألمْ
فـفـيمَ أعيشُ؟ سئمتُ البقـاءْ
وشـاقَ حـيـاتـىَ صـمْتُ العَـدَمْ

وأبكي.. وأبكي.. فـدمـعى لهـيب		يـحـطّمُ روحـــى ويُـذْوى المنـى
تعــذُبنى حَـيـرتـى في الوجـود		وأصـــــرُخُ مـن ألمى: مـن أنـا
مُنحتُ عـيــوناً تحبُّ الدمــوع		وقلبــاً يـحـــبِّــذُ أن يُـطعَـنا
وروحــاً تعــثّـر فـيـمــا يريد		فـــمـجَّ الظلامَ وعـــاف السَّنا

وأضحكُ من كلّ ما فى الوجود	وفى ضَحكى مَرَحٌ ساخرُ
فقلبىَ سخريّةٌ واحتقارٌ	يثيرهما العالمُ العاثرُ
أحدّقُ من قِمّتى فى الثَرَى	فيُضْحكنى دودُهُ الناخرُ
وأضحكُ ضحكةَ ربٍّ كئيب	تمرَّدَ مخلوقُهُ الكافرُ

وأبكى واضحكُ.. دمعى دماءُ
وأبكى واضحكُ.. ضحكى نَدَمْ
ففيمَ أُمرِّغُ تحت الضياءْ
فؤاداً سيرقُدُ تحت الظُلَمْ

أريدُ وأجهلُ ماذا أريد	أريد وعاطفتى لا تُريدْ
أحبُّ السماءَ ولونَ النجوم	وامقتُها كلَّ فجرٍ جديدْ
أريدُ وأشعُرُ أنى أحسُّ	ويسخَرُ مما أحسُّ الوجودْ
وأرغبُ فى حُلمٍ غامضٍ	فليس له هيكلٌ أو حدودْ

وأنفرُ من كلٍّ ما فى الوجود	وأهرُبُ من كلّ شىءٍ أراهْ
ففى عُمْق نفسىَ صوتٌ غريب	يعلّمُ قلبى ازدراءَ الحياهْ
ويصرُخُ بى: اهربى اهربى	ويُتعب احساسَ روحى صَداه
فاهتفُ يا عالمى: لا أريد!	وتصرخُ بى ذكرياتى: النجاه!

أريدُ وأنفرُ تحت السماءْ
فأرسمُ كلَّ صراعى نَغَمْ
ومن أجلِ لحنى سأرضى البقاءْ
وعارَ الحياةِ وذُلَّ الألمْ

أحبُّ وأكره ماذا أحبُّ   وأكرهُ؟ أيُّ شعورٍ عجيبْ؟
وأبكى وأضحك ماذا ترى   يثيرُ بكائى وضحكى الغريبْ؟
أريدُ وأنفرُ، أيُّ جنون   حياتىَ؟ أيُّ صراعٍ رهيبْ؟
لماذا أغنّى؟ لماذا أعيشُ؟   ومنذا أصارعُهُ، من يُجيبْ؟

١٩٤٧

عندما انبعث الماضى

أمسُ فى الليل وكانت صور الأسرار شتّى
تَصبّىً حاضرى الغافى وكان الأمسُ مَيْتا
خلْتُنى كفّنته ذات مساءِ
وتحصنتُ بدعوى كبريائى
سمعتْ روحىَ فى إغفاءة الظلمة صوتا
لم يكن حلماً خُرَافىً الستورِ
بعثتهُ رغبةٌ خلف شعورى
كان شيئاً، كان فى صمت الدُجَى صوتك أنتا
ذلك الصوتُ الذى يعرفهُ سمعى مليّا
صوت ماضىً الذى ماتَ وما خَلَّفَ شيّا
غيرَ أشتاتِ احتقارٍ باهتِ
رسبتْ فى قعْر قلبى الصامتِ
غيرَ أشتاتِ ادّكارات لحبٍّ كان حيّا
منذ أعوامٍ.. وقد فاتَ ومرّا
منذُ أعوامٍ.. وصار الآن ذكرا
لفّها الماضى وواراها الترابَ الأبديا

ذلك الصوتُ الذى مرّ على سمعيَ أمس
كان يوماً رغبة تجهش فى أعماقِ نفسى
كان حُلماً ذائباً فى عبراتى
كان حبّاً تائهاً فى أمنياتى
ثم حطّمتُ على ذكراهُ قيثارى وكأسى
عندما ضيعتُهُ تحت الضبابِ
وتعثرتُ بأشلاء شبابى
وتهاويتُ على جثة أحلامى وأُنسى

ومضى عامان مطوطان مرّا فى شُحُوبِ
كان عمرى خربةً يصبغها لون الغروبِ
تذرعُ الأشباحُ فى الصمت دُجاها
ويعيش البوم فى ظلٍّ أساها
كلما جالت بى الحيرة فى القبو الغريبِ
مدتْ الذكرى ذراعيها إليَّا
لونُها يخلقُ من رُعبيَ دنيا
ويثيرُ الوترَ الميِّتَ فى قلبى الكئيبِ

وانقضى عامانِ ملعونانِ من أعوامِ حبي
مزّقتْ روحيَ أظفارُهما، روحي وقلبي
لم تَدعْ حتى شِراعاً من رجاءِ
أبداً لم تُبْقِ إلا كبريائي
وأباديدَ ادّكارات لها قسوةُ ذئبِ
عرفتْ روحيَ فيها لون أمسي
أمسيَ الراسبُ في أعماقِ حسّي
عرفتْ فيها صدى الصوت الذي غمغم قربي

إنه الأمسُ إذنْ عاد ليحيا من جديدِ
إنه عاد إذن يطرقُ أبوابَ شُرودي
أسفاً يا شبحي عُدْ للترابِ
لم تعُدْ تملك أن تطرقَ بابي
لم يعد يربطنا إلا ركامٌ من حدودِ
هُوةٌ أعمقُ من ذنبكَ! ماذا؟
قد تبقّى لك عندي غيرُ هذا؟
غير ذكرى عبرتْ يوماً ومرّتْ بوجودي؟

مر القطار

اللَّيلُ ممتدٌّ السكونِ إلى المدَى
لاشىءَ يقطعُهُ سوى صوتٍ بليدْ
لحمامةٍ حَيْرى وكلبٍ ينبَحُ النجمَ البعيدْ،
والساعةِ البلهاءُ تلتهمُ الغدا
وهناك فى بعضِ الجهاتْ
مر القطارْ
عجلاته غزلت رجاءً بتُّ أنتظر النهارْ
من أجلِه.. مرَّ القطارْ
وخبا بعيداً فى السكونْ
خلفَ التلال النائياتْ
لم يبقَ فى نفسى سوى رجْعٍ وَهُونْ
وأنا أحدّقُ فى النجومِ الحالماتْ
أتخيلُ العرباتِ والصفَّ الطويلْ
من ساهرينَ ومتعبينْ
أتخيلُ الليلَ الثقيلْ
فى أعينٍ سئمتْ وجوهَ الراكبينْ
فى ضوءِ مصباحِ القطارِ الباهتِ

سَئِمتْ مراقبةَ الظلامِ الصامتِ
أتصوّرُ الضجرَ المريرْ
فى أنفسٍ ملّت وأتعبها الصفيرْ
هى والحقائبُ فى انتظارْ
هى والحقائبُ تحت أكداسِ الغبارْ
تغفو دقائقَ ثم يوقظُها القطارْ
ويُطِلُّ بعضُ الراكبينْ
متثائبًا، نعسانَ، فى كسلٍ يحدّق فى القِفارْ
ويعودُ ينظُرُ فى وجوه الآخرينْ
فى أوجه الغُربَاء يجمعُهم قطارْ
ويكادُ يغفو ثم يسمَعُ فى شُرُودْ
صوتاً يغمغمُ فى بُرُودْ
«هذى العقاربُ لاتسيرْ!
كم مرَّ من هذا المساء؟ متى الوصولْ؟»
وتدقُّ ساعتُهُ ثلاثاً فى ذُهُولْ
وهنا يقاطعهُ الصفيرْ
ويلوحُ مصباحُ الخفيرْ
ويلوحُ ضوءُ محطة عبرَ المساءْ
إذ ذاك يتئدُ القطارُ المُجْهَدُ
... وفتىً هنالكَ فى انطواءْ

يأبَى الرقادَ ولم يزلْ يتنهدُ
سهرانَ يرتقبُ النجومْ
فى مقلتيه برودةٌ خطٌ الوجومْ
أطرافَهَا.. فى وجهه لونٌ غريبْ
ألقتْ عليه حرارةُ الأَحلام آثارَ احمرارْ
شَفَتَاهُ فى شبه افترارْ
عن شِبْهِ حُلْمٍ يفرُشُ الليلَ الجديبْ
بحفيفِ أجنحة خفيّات اللُحونْ
عيناهُ فى شِبْهِ انطباقْ
وكأنّها تخشَى فرارَ أشعة خلف الجفونْ
أو أن ترى شيئاً مقيتاً لا يُطَاقْ
هذا الفتى الضَجِرُ الحزينْ
عبثاً يحاول أن يرى فى الآخرينْ
شيئاً سوى اللُغْزِ القديمْ
والقصّة الكبرى التى سئمَ الوجودْ
أبطالها وفصولهَا ومضَى يراقبُ فى برودْ
تكْرارهَا البالى السقيمْ
هذا الفتى.....
وتمرُّ أقدامُ الخفيرْ
ويُطِلُّ وجهٌ عابسٌ خلفَ الزُجاجْ،

وجهُ الخفير!
ويهزُّ فى يده السراجْ
فيرى الوجوهَ المتعَبه
والنائمينَ وهُمْ جلوسٌ فى القطارْ
والأعينَ المترقبه
فى كلِّ جفْنٍ صرخةٌ باسمِ النهارْ،
وتضيعُ أقدامُ الخفير الساهدِ
خلفَ الظلام الراكدِ

مرَّ القطارُ وضاع فى قلبِ القفارْ
وبقيت وحدى أسألُ الليلَ الشرودْ
عن شاعرى ومتى يعودْ؟
ومتى يجيىءُ به القطارْ؟
أتراهُ مرَّ به الخفيرْ
ورآه لم يعبأ به.. كالآخرينْ
ومضى يسيرْ
هو والسراجُ ويفحصان الراكبينْ
وأنا هنا ما زلتُ أرقُبُ فى انتظارْ
وأوَدُّ لو جاءَ القطارْ....

١٩٤٨

عروق خامدة

يا حُبُّ لم تَبْقَ لنا ذكرى ... لم يطوها الموتُ
كان لنا ماضٍ وقد مرّاً ... ولفَّهُ الصمْتُ

نحن هنَا وهمان، لا لونا ... لا صوتَ لا شكلا
سرابُ لاشيئينِ، لا معنى ... لا لفظَ لا ظلاّ

تدفعنا الآهاتُ والأحزانْ ... وما لنا مأوى
يا ليتنا نظفرُ بالنسيانْ ... أو نُمنحُ السلوى

نبكي فلا تحنو علينا يدُ ... بربتة من حنانْ
نحن هنا اللا أمسُ واللا غَدُ ... نحن هنا اللاكيانْ

أعيننا أفقٌ بلا لونِ ... لايعكس الأشياءْ
شفاهنا لحمٌ بلا لحنِ ... وروحنا أشلاءْ

ونلتقي فتسكُتْ النجوى ... وتكتم الأنفاسْ
وضحكةٌ تبدو بلا جدوى ... ينقصُها الإحساسْ

وتلتقي الكفّان أينَ الرغابْ ورعشة الأشواقْ؟
أصابعٌ ميّتةُ الأعصاب ليس لها أعماقْ

وأعينٌ فارغةُ الأحداقْ ليسَ لها قلبُ
الشَرْقُ فيها أسودُ الآفاق ويلهَثُ الغربُ

وأذرعٌ صمّاءُ كالأحجارْ فارقها الشوقُ
جامدة لو لامستها النارْ لم يستفقْ عِرْقْ

ونلتقي ينقصنا شيءُ شيءٌ وراءَ الروحْ
شفاهنا يُنكرها الضوءُ وليلُنَا مجروحْ

ونلتقي تفصلُنا آلامْ وأدمعٌ خُرْسُ
يعزُّ أنْ تجمعِنا الأيامْ وبيننا الأمسُ

وبيننا هاوية الذكرى تقذفُ بالأشباحْ
سُدىً أريدُ الضفَّة الأخرى قد غرقَ الملاّحْ

١٩٤٨

الجرح الغاضب

أغضبُ أغضبُ لن أحتمل الجُرْحَ الساخرْ
جُرْحٌ قد مرَّ مساء الأمس على قلبى
جُرْحٌ يجثم كالليل المُعْتِم فى قلبى

يجثم أسود كالنِقْمة فى فكرٍ ثائرْ
جرحٌ لم يعرف إنسانٌ من قبلى مثلَهُ
لن يشكو قلبٌ بشرىٌّ بعدى مثلَهْ

الظلمة فى أمسى المطوىِّ أحستْهُ
ومضت تهمس فى صمت الليل: من الجانى
حتى الأبديةُ والآفاق أحسَّتْهُ
وتناسى، لم يعبأ، لم ينتبهِ الجانى.

أغضبُ، تغضبُ لى هَمَساتُ الليلِ الصامتْ
وتُحيلُ الجوَّ الواجمَ صرخةَ جبّارِ
وتقولُ الأنجمُ: هذى نقمةُ جبّارِ

ويثورُ بقلبِ الأبديَّةِ جُرْحٌ ساكتْ
أغضبُ، يرتعشُ الموجُ معى تحت القمَرِ
ويضُجُّ وتبلُغُ ثورتُهُ سمْعَ القَمَرِ

ويُجَنُّ الغيمُ الأسودُ فى عَرْض الأُفُقِ
ويلُفُّ الشاطئَ ثوبُ حِداد كجنازه
يتحوَّلُ صمتى ناراً تصرُخُ فى الأُفُقِ
وأغنى رقّةَ إحساسى لحنَ جنازه

أمسى، فى أمسى قد دُفِنتْ أشلاءُ غدى
كانتْ، لم يَدْرِ بها أحدٌ، شبهُ جريمه
الجُرْحُ النديانُ سيشهد، أىُّ جريمه

كيفَ على الأرض تساقطَ حُلمْى بين يدى
كيف المقدورُ مضى نَزقاً يقتُل قلبا؟
وتبقّتْ بضعةُ أشلاءٍ كانتْ قلبا

وتبقّتْ ذكرىً مُطفَأةٌ كانتْ أمسا
وتبقّت أنّاتٌ حَيْرَى كانتْ لحنا

جُدرانٌ عاريةٌ كانتْ يوماً أمسا
أصداءٌ فى غارٍ خاوٍ كانتْ لحنا

ومن الأعماق تصاعَدَ صوتٌ مخنوقُ
يهتُفُ فى حُزْنٍ، فى جَزَعٍ: كيف أبوحُ؟
ليتَ الجُرْحَ المظلومَ إلى الليلِ يبوحُ

قد يثأرُ لى مطرٌ ورعودٌ وبروقُ
ورأيتُ على الأفُق المخضوب بفيضِ دمى
شبَحاً تفترُّ على فمه قَطَراتُ دمى

عيناهُ الزرقاوانِ مساءا أهوالِ
ويداهُ السوداوانِ ذراعا عفريتِ

شَبَحٌ مجنونٌ أيقظَ عاصفَ أهوالِ
وأحالَ دياجيرى أُحجيّةَ عفريتِ

أغضبُ للجُرحِ المختلج الشاكى أغضبْ سيُجَنُّ معى الصبر المذبوحُ المرتعشُ
ستُجَنُّ معى اللعنةُ والحقدُ المرتعشُ
ستثورُ معى الذكـرى ستثورُ ولا مَهْربْ لا مهربَ من جُـرحٍ قد مرَّ على قلبى
جرحٌ يصرخُ كالجوع البائسِ فى قلبى

الظلمـةُ فى صمْت الآفـاق أحسّتْهُ ومضتْ تسـألُ فى قلبِ الليلِ: من الجانى؟
حتـى القُمـريّةُ والأشجـارُ أحسّته وتضاحكَ، لم يشعرْ، لم ينتبهِ الجانى

١٩٤٨

الباحثة عن الغد

غـداً نـلتـقى» نَبَـأٌ فى الـزمـانْ ... رَوَتّهُ الحـيـاهْ
تلاَشى ولم تَروِهِ شَـفَـتـانْ ... تـلاشـى وتـاهْ

وجـاءَ غـدٌ ثم ولّى ومـاتْ ... وعـادَ ضَـبَـابا
فـأينَ «غـداً نلتـقى» يا حـيـاةْ ... أعـادتْ تـرابـا؟

«غـداً نلتـقى» ثم مـاتَ الزمـانْ ... وضـاعَ المـكـانْ
وهل يلتـقى أبـداً عـاشـقـانْ ... علـى لا كـيـانْ؟

وكـان لنا مـوعـدٌ فـانطوَى ... صـداهُ ومـاتْ
وكم كـوكبٍ فى الديـاجى هَوَى ... عـادَ رفُـاتْ

وكـانت لنا قـصـةٌ كـالبَـشَـرْ ... نـسـيجُ الـسنينْ
فـأسـفَـر آخِـرُها عن قَـدَرْ ... وذابَ الـرنـيـنْ

وكنّا نمرُّ فـتـرنـو الحـيـاةْ ... وتـومـى إلـيـنـا
وها نحنُ تختـصم الذكـرياتْ ... علـى شَـفَـتَـيْنا

ويطرُدُنا الأمسُ من كلّ ما ملكناهُ يوما
سوى حاضرٍ مُغْرَقٍ في الدِما ويقطُرُ سُمّا

ونسمَعُ بعضاً وراءَ المساءْ من المَشْرقِ
صدى لفظتينِ يجوسُ الفضاءْ «غداً نلتقي»

ويأتي غَدٌ في أسىً وشُرُودْ بصَمْتٍ طويلْ
بألفِ صدىً ساخرٍ في برودْ وراءَ النخيلْ

«غداً نلتقي» ويسود السكون سكون الخريفْ
وأسمع تحت السماء الحنون صراخاً عنيف

وقهقهةً، فظةً، بارده كجوّ القبور
ترددها شفةٌ حاقده وراء العصور

«غداً نلتقي» وتمطّ النغم وتسخر مني
ويبقى غدى تائهاً في الظلم يفتّش عني

١٩٤٨

الأفعوان

أين أمشي؟ مللتُ الدروبْ
وسئمت المروجْ
والعدوّ الخفي اللجوج
لم يزل يقتفي خطواتي، فأين الهروب؟
الممرات والطرق الذاهباتْ
بالأغاني إلى كل أفق غريبْ
ودروب الحياة
والدهاليز في ظلمات الدجى الحالكات
وزوايا النهار الجديب
جبتها كلها، وعدوّي الخفيّ العنيدْ
صامدٌ كجبال الجليد
في الشمال البعيد
صامدٌ كصُمُود النُجُومْ
في عُيون جَفَاها الرُقادْ
ورمتْها أكُفُّ الهمُومْ
بجراحِ السُهادْ
صامدٌ كصُمودِ الزَمنْ

ساعةَ الانتظارْ
كلَّما أمعنتْ فى الفرارْ
خُطُواتى تَخطّى القُنَنْ
وأتانى بما حطّمتْهُ جُهودُ النهارْ
من قيودِ التذكّرِ... لن أنشُدَ الانفلاتْ
من قيودى، وأىُّ انفلاتْ
وعدوّى المخيفْ
مقلتاهُ تمجُّ الخريفْ
فوقَ روحٍ تُريدُ الربيعْ
ووراءَ الضَّبابِ الشفيفْ
ذلك الأفعوانُ الفظيعْ
ذلك الغولُ أى انعتاقْ
من ظلال يَدَيْه على جَبْهتى البارده
أين أنجو وأهدابُهُ الحاقده
فى طريقى تَصُبُّ غداً مّيتاً لايُطاقْ؟

أين أمشى؟ وأىُّ انحناءْ
يُغْلقُ البابَ دونَ عدوّى المُريبْ
إنه يتحدَّى الرجاءْ

ويقهقهُ سخريةً من وجومى الرهيبْ
إنه لايُحسّ البكاءْ
أينَ.. أينَ أغيبْ
هَرَبى المستمرُّ الرتيبْ
لم يَعُدْ يستجيبْ
لنداء ارتياعى وفيم صراخُ النداءْ؟
هل هناك ملاذٌ قريبْ
أو بعيدٌ.. سأمضى وإن كانَ خلفَ السماءْ
أو وراءَ حُدود الرجاءْ
ثم ذاتَ مساءْ
أسمع الصَوْتَ:
«سيرى فهذا طريقٌ عميقْ
يتخطّى حدودَ المكانْ
لن تعى فيه صوتاً لغمغمة الأفعوانْ
إنه «لا بَرِنْثٌ» سحيقْ
ربما شيّدَتْهُ يدٌ فى قديمِ الزمانْ
لأمير غريب الطباعْ
ثم ماتَ الأميرُ.. وأبقى الطريقْ
لأكُفِّ الضياع»
أسمعُ الصوتَ ملءَ البقاعْ

فأسيرُ لعلّى أفيقْ
من دياجير كابوسىَ الأبدىِّ الصفيقْ
ربما سيَضلُّ عدوّى الطريقْ
ما أحبَّ المسيَر وليس ورائى خطىً مائته
تتمطّى بأصدائها الباهته
فى محانى طريقى الطويلْ
إنه لن يجىءْ
لن يجىءَ وإن عبَرَ المستحيلْ
أبداً لن يجىءْ
لن يراهُ فؤادى البرىءْ
من جديد يثيرُ الرياحْ
لتسُدَّ علىَّ السبيلْ
فى هدوءِ الصباحْ
أبداً لن يجىءْ
لن يجىءَ!
وأسمعُ قهقهةً حاقده
إنه جاء، يا لضياعِ رجائى الكسيرْ
فى دُجَى اللاَبرنْث الضريرْ
وأُحسُّ اليدَ البارده
تضغَطُ البردَ والرُعْبَ فوق هدوئى الغريرْ

بأصابعها الجامده
إنه جاءَ.. فيم المسيرْ؟
سأودِّعُ حُلْمِى القصيرْ
وأعودُ بجثّتهِ البارده

وتمرُّ تمرُّ الحياة
وعدوِّى الخفىُّ العنيدْ
خلف كلٍّ طريقٍ جديدْ
فى ليالى الأسى الحالكات
خلفَ كلِّ سحَرْ
وأراهُ يُطِلُّ علىّ مع المنتظَرْ
مع أمسى البعيدْ
مع ضوءِ القمرْ
فى الفضاء المديدْ
أينَ أينَ المفرْ
من عدوّى العنيدْ
وهو مثْلُ القَدَرْ
سرمدىٌّ، خفىٌّ، أبيدْ.
سرمدىٌّ، أبيدْ.

١٩٤٨

خرافات

«هدية إلى صديقتي ديزي الأمير تحية لذكرى مساء فلسفنا فيه كل شئ حتى الكراسي والمناضد والستائر».

قالوا الحياة

هي لونُ عينَي ميّتِ

هي وقعُ خَطو القاتلِ المتلفّتِ

أيامُها المتجعداتْ

كالمعطف المسمومِ ينضَحُ بالمماتْ

أحلامُها بَسَماتُ سَعْلاة مخدِّرة العيونْ

ووراءَ بسمتِها المَنُونْ

قالوا الأملْ

هو حَسرةُ الظمآنِ حينَ يرى الكؤوسْ

في صورة فوق الجدارْ

هو ذلكَ اللونُ العَبُوسْ

في وجهِ عُصفورٍ تَحَطّمَ عُشُّهُ فبكى وطارْ

وأقام ينتظرُ الصباحَ لعلَّ معجزةً تُعيدْ

أنقاضَ مأواهُ المخرَّبِ من جديدْ.

قالوا النعيمْ

وبحثتُ عنه فى العيونِ الغائراتْ
فى قصّةِ البؤسِ التى كُتبتْ على بعضِ الوجوهْ
فى الدهرِ تأكلُهُ سنوه
فى الزهرِ يرصدُ عطرَهُ شبحُ الذبولْ
فى نجمةٍ حسناءَ يرصدُها الأفولْ
قالوا النعيم ولم أجدْهُ فهل طوى غدَهُ وماتْ؟

قالوا السكونْ

أسطورةٌ حمقاءُ جاء بها جَمَادْ
يُصغى بأذنيه ويتركُ روحَه تحت الرمَادْ
لم يسمعِ الصرَخاتِ يُرْسلُها السياجْ،
وقصائصُ الورقِ الممزَّقِ فى الخرائب، والغبارْ،
ومقاعدُ الغُرَفِ القديمة، والزُجَاجْ،
غطّاهُ نَسْجُ العنكبوت، ومعطفٌ فوق الجدارْ.

قالوا الشباب

وسألتُ عنه فحدثونى عن سنينْ
تأتى فينقشعُ الضبَابْ

وتحدثوا عن جنّة خلف السَرَابْ
وتحدثوا عن واحةٍ للمتعَبينْ
وبلغتُها فوجدتُ أحلامَ الغَدِ
مصلوبةً عند الرتِاج الموصَدِ

قالوا الخلودْ
ووجدتُهُ ظلاً تمطَّى فى بُرُودْ
فوق المدافنِ حيثُ تنكمشُ الحياهْ
ووجدتُهُ لفظاً على بعض الشفاهْ
غنّته وهى تنوحُ ماضيْها وتُنزلُهُ اللحودْ
غنّتْهُ وهى تموتُ.. يا لَلإزدراء!
قالوا الخلودُ، ولم أجدْ إلا الفناءْ.

قالوا القلوبْ
ووجدتُ أبواباً تؤدى فى اختناقْ
لمقابر دُفن الشعورُ بها وماتَ غدُ الخيالْ
جُدرانُها اللزجاتُ تبتلعُ الجَمَالْ
وتمجُّ قبحاً لايُطاقْ
وهربتُ شاحبةً أتلك إذنْ قلوبْ؟
يا خيبةَ الأحلامِ، إنى لن أؤوبْ.

قالوا العيونْ

ووجدتُ أجفاناً وليس لها بَصَرْ

وعَرَفْتُ أهداباً شُدِدْن إلى حَجَرْ

وخبرتُ أقباءً ملفّعةً بأستار الظنونْ

عمياءَ عن غير الشُرور وإن تكن تُدعى عيونْ

وعرفتُ آلافاً وأعينُهم صفائحُ من زجاجْ

زرقاءُ فى لون السماء، وخلف زرقتها دياجْ

قالوا وقالوا

ألفاظُهم لاكت تَرَدُّدَها الرياحْ

فى عالمٍ أصواتُهُ الجوفاءُ يرصُدُها الفناءْ

المتعبونَ بلا ارتياحْ

الضائعونَ بلا انتهاءْ

قالوا وقلتُ وليس يبقى ما يُقالْ

يا لَلخرافةِ! يا لَسُخريةِ الخيالْ!

١٩٤٨

جحود

فى سُكونِ المساءْ ... فى ظلامِ الوجودْ
حينَ نامَ الضياءْ ... واعترانى جُمودْ

خِلتُ نفسى أسيرْ ... فى مكان بعيدْ
فوق قلبى أثيرْ ... تحت رجلِّى قُيودْ

فى كيانى فُتورْ ... فى دمى نَوْءُ
لقًّبوه الشعورْ ... وهو لا شىءُ

فى إسار الألمْ ... روحىَ المبهمْ
يا معانى العَدَمْ ... آه لو أفهِمْ

فى ضَبَابِ الوجودْ ... أنا كالسرٍّ
وغداً سأعود ... دون أن أدرى

جَسَدى فى الألمْ ... خاطرى فى القيودْ
بين هَمْس العَدَمْ ... وصُرَاخ الوجودْ

وسكونى حياة وظلامى بريقْ
النجاةُ النجاةْ من شعورى العميقْ

أأنا حُلْمٌ وشعورٌ طَهورْ
أم أنا جسمٌ مُغْرَقٌ فى الشرورْ

بل أنا آفاقْ من شعور عنيفْ
وأنا أعماقْ من خِضمٍّ مخيفْ

المقاييسُ ليس تَغْنينى
الأحاسيسُ هى قانونى

أنا لا أهوىَ ما يُحبُّ الناسْ
فإذا دوًّى فى دمى إحساسْ

سرتُ لا أُلوى سرتُ خلف الصوت
فغداً يَطْوى فجرَ عُمْرى الموتْ

فى دمى إعصارْ عاصفٌ بالجمودْ
وشظايا نارْ تتحدَّى الركودْ

كــلُّ قـــلـــبـــى شـــكْ فى مـــعـــانى الخـــيـــرْ
فــكـرةٌ تُــضـــــحِــكْ أنــا أهـوى الــشـــــر

إن يــكُ الجـــــسْـمُ مـن تراب حــــقــــيــــرْ
فـــــأنــا إثـمُ... أنــا لــسْــتُ أثــيــــرْ

إن يــكُ الــعــــقــلُ يـمـــقتُ الانــفــجـــارْ
فـــــأنــا حِــلٌّ مـنــه.. يـا لــلـعـــــارْ!

إنْ يــكُ الإيــمـــانْ هــو هـذا الجُـــمُـــودْ
فـــــأنــا نُــكـرانْ أنـا كـلّـى جُــحُـــودْ

١٩٤٧

مرثية يوم تافه

لاحتِ الظلمةُ فى الأفق السحيقِ
وانتهى اليومُ الغريبُ
ومضت أصداؤه نحو كهوفِ الذكرياتِ
وغداً تمضى كما كانت حياتى
شفةٌ ظمأى وكوبُ
عكست أعماقُهُ لونَ الرحيقِ
وإذا ما لمستْهُ شفتايا
لم تجدْ من لذّةِ الذكرى بقايا
لم تجد حتى بقايا

انتهى اليومُ الغريبُ
انتهى وانتحبتْ حتى الذنوبُ
وبكتْ حتى حماقاتى التى سمّيتُها
ذكرياتى
انتهى لم يبقَ فى كفّيَ منه
غيرُ ذكرى نَغَمٍ يصرُخُ فى أعماق ذاتى
راثياً كفّى التى أفرغتُها

من حياتى، وادّكاراتى، ويومٍ من شبابى
ضاعَ فى وادى السرابِ
فى الضبابِ.

كان يوماً من حياتى
ضائعاً ألقيتُهُ دون اضطرابِ
فوق أشلاء شبابى
عند تلٍّ الذكرياتِ
فوق آلافٍ من الساعاتِ تاهت فى الضَبابِ
فى مَتاهاتِ الليالى الغابراتِ.

كان يوماً تافهاً، كان غريبا
أن تَدُقَّ الساعةُ الكَسْلى وتُحصى لَحظاتى
إنه لم يكُ يوماً من حياتى
إنه قد كان تحقيقاً رهيبا
لبقايا لعنة الذكرى التى مزقتُها
هى والكأسُ التى حطَّمتها
عند قبرِ الأمل الميِّتِ، خلفَ السنواتِ،
خلف ذاتى

كان يوماً تافهاً.. حتى المساء
مرت الساعاتُ فى شبْهِ بكاءِ
كلُّها حتى المساء
عندما أيقظَ سمعى صوتُهُ
صوتُهُ الحُلوُ الذى ضيّعتُه
عندما أحدقت الظلمةُ بالأفْقِ الرهيبِ
وامّحتْ حتى بقايا ألمى، حتى ذنوبى
وامّحى صوتُ حبيبى
حملت أصداءه كفُّ الغروبِ
لمكانٍ غابَ عن أعينِ قلبى
غابَ لم تبقَ سوى الذكرى وحبّى
وصدى يومٍ غريبِ
كشحوبى
عبثاً أضرَعُ أن يُرجعْ لى صوتَ حبيبى.

١٩٤٨

ألغاز

دَعْني في صمتي في إحساسي المكبوتِ
لا تسألْ عن ألغازِ غُمُوضي وسكوتي

دعني في لُغزي لا تبحث عن أغواري
اقنع من فَهْم أحاسيسي بالأسرارِ

لا تسألْ إني أحياناً لُغزٌ مُبْهمْ
أبقَى في الغيْبِ مع الأسرارِ ولا أُفهمْ

روحي لاتَعْشَقُ أن تحيا مثلَ الناسِ
أنا أحياناً أنسى بَشريّة إحساسي

حتى حبُّكَ.. حتى آفاقُكَ تؤذيني
فأنا روحٌ أسبحُ كالطيفِ المفتونِ

قلبي المجهولُ يُحسُّ شعوراً عُلْويّا
لا حساً يُشْبهه لا وعياً بَشَريّا

إذ ذاكَ أحسُّكَ شيئاً بَشَرياً قلقا
قِمّةُ أحلامي تَرْفضُه مهما ائتلقا

إذذاكَ يحسُّكَ روحي بعضَ الأمواتِ
ما سُمّيَ «أنتَ» هَوىً، لم تبقَ سوى ذاتي

في وجهكَ أنظُرُ لكنّي لا أبصرهُ
في روحيَ أبحثُ عن شيءٍ أتذكرهُ

أتذكّرُ، لا أدرى ماذا، ماذا كانا؟
شيءُ لا شَكْلَ يحدّدُه.. لا ألوانا

المبهَمُ في روحي يبقَى في إبهامهْ
دعْهُ لا تسألني عنه، عن أنغامهْ

دعني في ألغازي العُليا، في أسراري
في صمتي، في روحي، في مهمهِ أفكاري

في نفسي جُزْءٌ أبديٌّ لا تفهمُهُ
في قلبي حُلمٌ عُلويٌّ لاتعلمهُ

دعْهُ، ماذا يَعنيك لتسألَ في إصرارْ؟
الحبُّ يموتُ إذا لم تحجُبْه أسرارْ

إني كالليلِ: سكونٌ، عمقٌ، آفاقُ
إني كالنجمِ: غموضٌ، بُعدٌ، إبراقُ

فافهمني إن فُهم الليلُ، افهم حِسِّي
والْمسني إن لُمِسَ النجمُ، المس نفسي

١٩٤٧

جامعة الظلال

أخيراً لمستُ الحياهْ
وأدركتُ ما هى أىُّ فراغٍ ثقيلْ
أخيراً تبيّنتْ سرَّ الفقاقيعِ واخيبتاهْ
وأدركتُ أنى أضعتُ زماناً طويلْ
ألمُّ الظلالَ وأخبطُ فى عتْمة المستحيلْ
ألمُّ الظلالَ ولا شيءَ غيرِ الظلالْ
ومرّتْ علىَّ الليالْ
وها أنا أُدْركُ أنى لمستُ الحياهْ
وإن كنت أصرُخُ واخيبتاهْ!

ومرَّ علىَّ زمانٌ بطىءُ العُبورْ
دقائقهُ تتمطّى مَلالاً كأنَّ العُصورْ
هنالكَ تغفو وتنسى مواكبُها أن تدورْ
زمانٌ شديدُ السواد، ولونُ النجومْ
يذكّرُنى بعيونِ الذئابْ
وضوءٌ صغيرٌ يلوحُ وراءَ الغُيومْ
عرفتُ به فى النهايةِ لونَ السَرابْ

ووهمَ الحياهْ
فواخيبتاهْ

أهذا إذن هو ما لقّبوهُ الحياهْ؟
خُطوطٌ نظَلُّ نخطّطُها فوقَ وجه المياهْ
وأصداءُ أغنية فظّة لا تَمَسُّ الشفاهْ
وهذا إذنْ هو سرُّ الوجودْ؟
ليال ممزّقةٌ لاتعودْ
وآثارُ أقدامنا فى طريقِ الزمان الأصَمْ
تمرُّ عليها يدُ العاصفه
فتمسحُها دونما عاطفه
وتُسْلمُها للعَدَمْ
ونحنُ ضحايا هنا
تجوعُ وتعطشُ أرواحُنا الحائره
ونحسَبُ أن المنى
ستملأ يوماً مشاعرنَا العاصره
ونجهلُ أنَّا ندورْ
مع الوَهمْ فى حلَقاتْ
نجزِّئُ أيامَنا الآفلاتْ

إلى ذكرياتْ
وننتظرُ الغَدَ خلفَ العُصورْ
ونجهلُ أن القبورْ
تمدُّ إلينا بأذرعها البارده
ونجهلُ أنّ الستائرَ تُخفى يداً مارده

عرفتُ الحياةَ، وضقتُ بجمع الظلالْ
وأضجرَنى أن نجوبَ التلالْ
نحدّقُ فى حَسرةٍ خلفَ رَكبِ الليالْ
تسيرُ بنا القافله
نجوسُ الشوارعَ فى وَحْدةٍ قاتله
إلامَ يُخادعُنا المبهَمُ؟
وكيفَ النهايةُ؟ لا أحدٌ يعلم

سنبقى نسيرْ
وأبقى أنا فى ذهُولى الغريرْ
ألمُّ الظلالَ كما كنتُ دونَ اهتمامْ
عيونٌ ولا لونَ، لا شىءَ إلا الظلامْ
شفاهٌ تريدُ ولا شىءَ يقرَبُ مما تريدْ

وأيد تُريدُ احتضانَ الفضاء المديدْ
وقلبٌ يريدُ النجومْ
فيصفعهُ في الدياجيرِ صوتُ القَدُومْ
يُهيلُ الترابَ على آخر الميّتينْ
وأقصوصةٌ من يَرَاع السنينْ
تضجُّ بسمعي فأصرخُ: آه!
أخيراً عرفتُ الحياه
فواخيبتاه!

١٩٤٨

أجراس سوداء

لنَمُتْ فالحياة جفَّت وهذى الأ ... كؤسُ الفارغاتُ تَسخَرُ منا
وغيومُ الذهول فى أعين الأيـ ... ـامِ عادت أجلى وأعمقَ لونا
وسكونُ الحياة فى جَسَد الأحـ ... ـلام لم يُبقِ قَطُّ للعيش معنى
وفراغُ الآهاتِ أثبتَ أنّا ... قد فرِغنا من دورنا وانتهينا

وعميقاً فى الليل نسمعُ أقدا ... مَ الليالى فى رهبةٍ ووجومِ
ودويٌّ الأجراس يُنذرنا أنّـ ... ـا انتهينا من دورنا المحمومِ
أن ما فى الكؤوس يُوشكُ أن ينـ ... ـضبَ إلا من حفنةٍ من همومِ
أنَّ ما فى العيونِ من عَطش الأحـ ... ـلامِ أمسى رمادَ حبٍّ قديم

وبعيداً فى الجوّ تُنذرنا الأصـ ... ـواتُ أنَّ الحياةَ عادتْ جُنونا
أنَّ لونَ الخيالِ قد حالَ وارتدَّ ... شُحوباً وواقعاً محزونا
أن «قَبْلَ» الرجاء أصبح لا «بَعـ ... ـدَ» له فهو فكرةٌ لن تكونا
أن شيئاً فى عُمق أنفسنا يجـ ... ـذُبنا للممات، شيئاً مكينا

ولماذا نبــــقى هنا؟ أوَلَـم نشــ ـــبعْ ونضـجـرْ ونروَ دونَ انتـهـاء؟
أوَلم نُدركِ الـنعـيمَ وخـمـر النـ ـــصـر والحبَّ نـابضـاً بالرجـاء؟
أوَلم نـعـرفِ الأسى الـعـاصـرَ والـنومَ بـعـــد طـول الـبكـاء؟
أولم نُشبعِ الوجـودَ ومن فـيـ ـــه احتـقـاراً وغـضٍ باستـهـزاء؟

ولماذا نبــقى هـنا؟ أسـمعُ المو تَ ينـادى بنـا فلـمَ لا نُجــيبُ؟
لنَمُتْ فـالريـاحُ تجرح وجـهَـيـ ـــنا ولـونُ الدُجى عـمـيـقٌ رهيبُ
وهنا نـحنُ مُـتـعـبـانِ غـريبـا ن تعـايى بنا الشـبـابُ الكئـيبُ
وهنـا نحن مـيّـتـان وإن كـا نَ لعـرق الحـيـاة فـينا وجـيبُ

«الغـريبـانِ» هكذا يهـمسُ الـليـ ـــلُ وأجـراسـهُ تلفُّ الـوجـودا
أيهـا الليـلُ لن يعـيشَ الغـريبـا نِ ولن يَلمُـسَـا مسـاءً جـديدا
خُـذهُما ارخِ جُنـحكَ الأسودَ الهـا دئَ حـوليـهـمـا وحـلِّقْ بعـيـدا
خُـذهُمـا عـزَّ أن يقـولوا «غـريبـا نِ» وكـانت أقـصـوصـةً لن تعـودا

١٩٤٨

نهاية السلم

مرّتْ أيامٌ منطفئاتْ
لم نلتقِ لم يجمعْنا حتى طيفُ سَرَابْ
وأنا وحدى، أقتاتُ بوقْع خُطى الظُلماتْ
خلف زُجاج النافذةِ الفظّة، خلفَ البابْ
وأنا وحدى...

مرتْ أيامْ
باردةٌ تزحفُ ساحبةً ضَجَرى المرتابْ
وأنا أُصغى وأعدُّ دقائقَها القلقاتْ
هل مرَّ بنا زمنٌ؟ أم خُضنا اللازمنا؟
مرَّتْ أيامْ
أيامٌ تُثقلُها أشواقى، أينَ أنا؟
ما زلتُ أحدِّقُ فى السُلّمْ
والسلّمُ يبدأُ لكنْ أينَ نهايتهُ؟
يبدأُ فى قلبى حيثُ التيهُ وظلمتهُ
يبدأُ، أين البابُ المبهَمْ؟
بابُ السُلّمْ؟

مرّتْ أيامْ
لم نلتقِ، أنتَ هناك وراءَ مَدَى الأحلامْ
فى أفْقٍ حفَّ به المجهولْ
وأنا أمشى، وأرى، وأنامْ
أستنفدُ أيامى وأجرُّ غدى المعسولْ
فيفرُّ إلى الماضى المفقودْ
أيامى تأكلُها الآهات متى ستعودْ؟
مرّتْ أيامٌ لم تتذكرْ أنَّ هناكْ
فى زاويةٍ من قلبكَ حُباً مهجورا
عضَّتَ فى قدَميه الأشواكْ
حباً يتضرّعُ مذعورا
هَبه النورا

عُدْ، بعض لقاءْ
يمنحُنا أجنحةً نجتازُ الليلَ بها
فهناكَ فضاءْ
خلفَ الغابات الملتفّات، هناك بحورْ
لاحدَّ لها تُرْغى وتَمورْ
أمواجٌ من زَبَد الأحلامِ تقلِّبُها
أيدٍ من نورْ

عدْ، أم سيموتْ،
صوتي فى سمعكَ خلف المُنعَرجِ الممقوتْ
وأظلُّ أنا شاردةً فى قلب النسيانْ
لاشيءَ سوى الصمتِ الممدودْ
فوقَ الأحزانْ
لاشيءَ سوى رجْعٍ نعسانْ
يهمسُ فى سمعى ليس يعودْ
لا ليس يعودْ

١٩٤٨

أنـــا

اللّيلُ يسألُ من أنا
أنا سرُّهُ القلقُ العميقُ الأسودُ
أنا صمتُهُ المتمرِّدُ
قنّعتُ كنهي بالسكونْ
ولففتُ قلبي بالظنونْ
وبقيتُ ساهمةً هنا
أرنو وتسألني القرونْ
أنا من أكون؟

والريحُ تسأل من أنا
أنا روحُها الحيرانُ أنكرني الزمانْ
أنا مثلها في لا مكان
نبقى نسيرُ ولا انتهاءْ
نبقى نمرُّ ولا بقاءْ
فإذا بلغنا المُنْحَنَى
خِلْناهُ خاتمةَ الشقاءْ
فإذا فضاءْ!

والدهر يسأل من أنا

أنا مثلهُ جبّارةٌ أطوى عُصورْ

وأعودُ أمنحهُا النشورْ

أنا أخلقُ الماضى البعيدْ

من فتنة الأمل الرغيدْ

وأعودُ أدفنُهُ أنا

لأصوغَ لى أمساً جديدْ

غَدُهُ جليد

والذاتُ تسألُ من أنا

أنا مثلها حيرَى أحدّقُ فى ظلام

لاشيءَ يمنحُنى السلامْ

أبقى أسائلُ والجوابْ

سيظَل يحجبُهُ سراب

وأظلّ أحسبُهُ دنا

فإذا وصلتُ إليه ذابْ

وخبا وغابْ

١٩٤٨

غــرباء

أطفئ الشمعةَ واتركنا غريبين هنا
نحن جُزءانِ من الليلِ فما معنى السنا؟
يسقطُ الضوءُ على وهمينِ فى جَفنِ المساءْ
يسقطُ الضوءُ على بعضِ شظايا من رجاءْ
سُمّيتْ نحنُ وأدعوها أنا:
مللاً، نحن هنا مثلُ الضياءْ

غُربَاءْ

اللقاء الباهتُ الباردُ كاليومِ المطيرِ
كان قتلاً لأناشيدى وقبراً لشعورى
دقّتِ الساعةُ فى الظلمةِ تسعاً ثم عشرا
وأنا من ألمى أُصغى وأُحصى، كنت حَيرى
أسألُ الساعةَ ما جَدْوى حبورى
إن نكن نقضى الأماسى، أنتَ أدْرى

غرباءْ

مرّتِ الساعاتُ كالماضى يُغشّيها الذبُولُ
كالغدِ المجهولِ لا أدرى أفجرٌ أم أصيلُ
مرّتِ الساعاتُ والصمتُ كأجواءِ الشتاءِ

خلتهُ يخفق أنفاسى ويَطغى فى دمائى
خلتهُ يَنبِسُ فى نفسى يقولُ
أنتما تحت أعاصيرِ المساءِ

غرباءْ

أطفئْ الشمعةَ فالروحانِ فى ليلٍ كثيفِ
يسقطُ النورُ على وجهينِ فى لونِ الخريف
أولا تُبصرُ؟ عينانا ذبولٌ وبرودٌ
أوَلا تسمعُ؟ قلبانا انطفاءٌ وخمودُ
صمتنا أصداءُ إنذارٍ مخيف
ساخرٌ من أننا سوفَ نعودُ

غرباءْ

نحن من جاء بنا اليومَ؟ ومن أين بدأنا؟
لم يكنْ يَعرفُنا الأمسُ رفيقين.. فدَعنا
نطفرُ الذكرى كأن لم تكُ يوماً من صِبانا
بعضُ حبٍّ نزقٍ طافَ بنا ثم سلانا
آه لو نحنُ رَجَعنا حيثُ كنا
قبلَ أن نَفنَى وما زلنا كلانا

غُرباءْ

١٩٤٨

أغنية الهاوية

مججتُ الزوايا التى تلتوى
وراءَ النفوسْ
وراءَ بريقِ العيُونْ
وأبغضتُ حتى السُكونْ
وتلكَ المعانى التى تنطوى
عليها الكؤوسْ
معانى الصَدَى والجُنونْ
معانى الخطايا التى تُبرقُ
بريقَ النجومْ
وفى لمسها اللهبُ المُحرقُ
ولونُ الهمومْ
كرهتُ الجفونَ التى تأسرُ
وخلفَ سماء ابتساماتها
لهيب الحقود
كرهتُ الأكفَّ التى تعصرُ
وخلفَ حرارة رَعْشاتها
جمودٌ كذُلِّ الحياه

على جُثة تحت بعض اللحودْ
تعيثُ بهاً دودةٌ فى برودْ
كرهتُ ارتعاشَ الشفاهْ
برجَعِ الصلاه
ففى كلِّ لفظ خطيئه
تجيشُ بها رَغَباتٌ دنيئه
وعفتُ طُموحى وبحثى الطويلْ
عن الخيرِ، والحبِّ، والمُثُلِ العاليه
وحقّرتُ سعيى إلى عالمٍ مستحيلْ
فخلفَ انخداعىَ تنتظرُ الهاويه
وعفتُ جنونى القديمَ وعفتُ الجديدْ
وأودعتهُ فى مكان بعيدْ
دفنتُ به رَغَباتِ البشرْ
وسمّيتهُ جنة الواهمين
ستمضى السنينْ
لماذا أُحسُّ الأسى والضَّجَرْ،
وكفُّ المطَرْ
تلفُّ على عنقى المختنقْ
حبالَ الفكرْ؟

وأينَ أسيرُ وقلبى النزقْ
هنالكَ ما زالَ، لا يبردُ
ولايحترقْ
كقلبِ أبى الهول، أين الغدُ؟
أحسُّ حياتى تذوبْ
قفى لحظةً واحِده
ولاتَسحبى يَدكِ البارده
فأغنيةُ الهاويه
تُهيبُ بأقدامىَ الشارده
وتلَوى الدروبْ
قفى لحظةً يا حبالَ الحياه
ولا تتركينى هنا
معلقةً بالفراغِ الرهيبْ
فأمسى القريبْ
تلاشى على آخرِ المنحنى
وظلُّ غدى
تَلَثَّمَ أواهُ لو أهتدى
قفى لحظةً واحده
ولا تَسحبى يَدَكِ البارده

فأغنيةُ الهاوية
تردّدها الأنفسُ الجانيه
تكرّرُها فى جُنونْ
على سمعىَ المُجهَدِ
تكرّرُها لم يَعُدْ لى سكونْ
أكادُ أسيرُ إلى الهاويه
مع السائرينْ
وأدفِنُ آخرَ أحلاميه
وأنسى غدى

١٩٤٨

في جبال الشمال

عُدْ بنا يا قطارْ
فالظلام رهيبٌ هنا والسكونُ ثقيلْ
عُدْ بنا فالمدَى شاسعٌ والطريقُ طويل
والليالى قِصارْ
عدْ بنا فالرياحْ تنوحُ وراءَ الظلالْ
وعُواءُ الذئابِ وراءَ الجبال
كصراخِ الأسى فى قلوبِ البشرْ
عُدْ بنا فعلى المنحدَرْ
شَبحٌ مكفهرٌ حزينْ
تركتْ قَدَماهُ على كلِّ فجرٍ أثرْ
كلّ فجرٍ تقضّى هنا بالأسى والحنين
شَبحُ الغربةِ القاتله
فى جبال الشمالِ الحزينْ
شبحُ الوَحدةِ القاتله
فى الشمالِ الحزينْ
عد بنا قد سئمنا الطَّوَافْ
فى سفُوحِ الجبال وعُدْنا نخافْ

أن تطولَ ليالى الغيابْ
ويغطى عُوَاءُ الذئاب
صوتنا ويعزُّ علينا الإيابْ
عُدْ بنا للجنوب
فهناكَ وراءَ الجبالِ قلوبْ
عدْ بنا للذينَ تركناهمُ فى الضباب
كلُّ كفٍّ تلوِّحُ فى لهفةٍ واكتئابْ
كل كفٍّ فؤاد
عدْ بنا يا قطارُ، سئمنا الطَّوَافَ وطالَ البعادْ
وهنالكَ همسٌ عميقْ
لاثغٌ خلفَ كلِّ طريق
فى شعابِ الجبالِ الضِخامْ
ووراءَ الغمامْ
فى ارتعاش الصُنوبرِ، فى القريةِ الشاحبه،
فى عُوَاءِ ابن آوى، وفى الأنجمِ الغاربه،
فى المراعى هنالكَ صوتٌ شَرُودْ
هامسٌ أن نعودْ
فهناكَ بيوتٌ أُخَر
ومراعٍ أخرْ

وقلوبٌ أخرْ
وهناكَ عيونٌ أبت أن تنامْ
وأكفٌّ تضمُّ الدُّجَى فى اضطرام
وشفاهٌ ترددُ أسماءنا فى الظلامْ
وقلوبٌ تُصيخُ لأقدامنا فى وُجومْ
وتنادى النجومْ
فى أسىً وسكونْ:
«ومتى يا نجومُ سيذكرنا الهاربونْ؟»
«ومتى يَرْجعونْ؟»

لحظةً، سنعودْ
لن يرانا الدُجَى هاهنا، سنعودْ
سنعودُ، سنطوى الجبالْ
ورُكامَ التلالْ
لن ترانا ليالى الشمالْ
ها هنا من جديدْ
لن يحسَّ الفضاءُ المديد
نارَ آهاتنا فى المساءِ الرهيبْ
فى سكونِ المساءِ الرهيبْ

عُدْ بنا يا قطارَ الشمالْ
فهناكَ وراءَ الجبالْ
الوجوهُ الرقاقُ التى حجَبَتها الليالْ
عُدْ بنا، عُد إلى الأذرُعِ الحانيه
فى ظلال النخيلْ
حيثُ أيامُنا الماضيه
فى انتظار طويلْ
وقفتْ فى انتظار
تتحرى رجوعَ القطارْ
لتسير مع السائرينْ
حيثُ أيامُنا تسألُ العابرينْ
واحداً، واحداً، فى حنينْ
«ومتى عودةُ الهاربينْ؟»

لنعُدْ فهناكَ نشيدٌ قديمْ
حولَنا هامسٌ بالرُجوعْ
ما أحبَّ الرجوعْ
بعد هذا الطوَاف الأليمْ
فى جديبِ الشعابْ
حيث تَعْوى الذئابْ

لنعدْ، فالدُجَى باردٌ كالجليدْ
وهنالكَ خلفَ الفضاءِ البعيدْ
أذرعٌ دافئه
لنعدْ فالجبالُ تكشِّرُ عن ليلها المظلمِ
وهنالكَ خلفَ الدُجَى المبهَمِ
صوتُ أحبابنا، فى الظلامِ السحيقْ
نابضاً بالحنينِ العميقْ
صوتُهم مُثقلاً بالعتابْ
صوتُهم ردّدته الشعابْ
صوتُهُم فى سكونِ المكانْ
دائرٌ كالزمانْ
لنعُدْ قبلَ أن يقضىَ الأفعوانْ
بفراقٍ طويلٍ، طويلْ
عن ظلالِ النخيلْ
عن أعزّائنا خلفَ صمتِ القفارْ
عدْ بنا يا قطارْ
فالليالى قصار
وهنالكَ أحبابُنا فى أسىً وانتظارْ

سرسنك ١٩٤٨

إلى عمتي الراحلة

أنا لم أزل في الفَجر رايةً | للأفق في صمت وإعياء
تتدافعُ الذكرى على شفتي | بعضَ ارتعاشاتٍ وأصداء
الجُرحُ نديانٌ تعيشُ به | أصداءُ ماضٍ ميتٍ ناء
أيامهُ عادتْ صَدَى حلمٍ | لم تَبْقَ منه غيرُ أشلاء
غيرُ ابتساماتٍ ممزّقةٍ | أودتْ بهنّ مرارةُ الداء

تتدافعُ الذكرى وتملأني | أشباحها قلقاً وأشجانا
ألأمسُ ما زالتْ كآبته | حرّى تذكرني بما كانا
بالليلِ كيفَ سهرته ألماً | بالفجر كيفَ أطلّ ظمآنا
بدموعيَ العطشى وحرقتها | بتدفق الإحساس أحزانا
باليأسِ كيف طغت مرارته | وتمرّدت حُرقَاً ونيرانا

الأمس هل في الأمس من حُلمٍ | هل فيه ما ينجي من الحرقِ؟
هل فيه بعضُ صدىً يناغمني | ذكرى؟ رجاءٌ غيرُ محترق
لفظٌ يمرُّ؟ وبسمةٌ؟ ويدٌ | مرّت برقتها على قَلقي؟
أوّاهُ، بعض خطى ألوذ بها | من حزنيَ القاسي ومن أرقي
بعض ابتسامتك التي غربت | في الصمت واحترقت على الأفق

الدمع أذرفُهُ ويذرفني ... قلباً يجنُّ أسىً ويُحتضرُ
قطراتُهُ نارٌ تمزّقني ... ما زال منها في دمي أثر
عيناىَ تحترقان من ألمٍ ... تدْمى وتقطرُ فيهما الصور
جرحانِ لاجفنان أين غدى؟ ... أين الطبيعة والهوى النضرُ؟
ما للحياةِ هوَت أشعَّتُها ... ليلاً وعكَّر جوَّها القدر؟

أين التفتُّ تصدُّنى صورٌ ... وحشيةٌ، وشتيتُ آلام
ذكرىً من الماضي تحطمنيُ ... وتظل تصهرُ جفني الدامي
أوّاهُ، كيفَ سقطت ميتةً ... وأنا أعيشُ وتلك أوهامي
وأنا أعيشُ رؤىً ممزّقةً ... وأحوكُ أهوائي وأحلامي
تتلفتُ الذكرى إليكِ وبي ... ظمَأٌ يعتِّمُ جوَّ أيامي

وأريدُ أن أنسى فتخنقُني ... رَعَشاتُ حُزنٍ ساهدٍ مُرٍّ
أبقيتِ جُرحاً حافراً قلقاً ... في قلبِ أحلامي وفي شعري
كفُّ الحنانِ نسيتُ ملمسَها ... وفقدت معبرهَا على شَعري
لم يبقَ منها غيرُ أغنيةٍ ... جفّت مرارتُها على ثَغري
وسهرتُ أُنشدها وأنشدهاَ ... في ليلةِ مأسورةِ الفَجرِ

أواهُ من حُـــزنى ومـن ظمَـــأى هل عُـــدت طيـــفـــاً مطـفـــأ المُقَلِ
القـــبـــرُ ضَـــمَّك فى برودته بـعـــد ارتعـــاشـــة قلبىَ الخَـــضلِ
لا طيـــرَ يوقـظُ فــيكِ عـــرْقَ هوىً لاشـيءَ يبــعـثُ خـــامـــدَ الأملِ
الظـلُّ مـــرَّ وأنتِ ســـاهيـــةٌ عـن رَقْـــصـــه وشُـــعـــاعــه الشـــملِ
والنـجمُ لاحَ وأنـتِ هامـــدةٌ لا تـعـــبـــأين بضـــوئه الخَـــجـلِ

وتمرُّ أصـــداءُ الحـيـــاة ضُـــحىً　　بوســـادكِ المحـــزونِ وا أســـفـــا
صـوتُ المؤذِّن كم ســهـــرتِ له　　مـا بالُـهُ فى مـسـمـعيك غَـفـا؟
مـــا بالُ رعـــشـــتــه تمرُّ عـلى　　قلـبِ تناسى كــيـف أمس هَفــا
مـــا بالُهـــا لاذتْ بغُـــربتـهـــا　　ومـضتْ تُبـاكى حولك (النـجفا)
تبكى وتـرسِمُ فى انتـفـاضتِـهـا　　صـــوتاً يبـيـتُ الليلَ مُـرتجـفـا

أوحـيـــدةٌ فى القَـــبْـــرِ هـامـدةٌ　　وأنا أَمَسُّ ســريـرَكِ الخـــاوى؟
خُـصُـلاتُ شـعـركِ فـوقــهُ حـــرَقٌ فى عُـمْقِ يأسى الـصـارخِ الداوى
ومكـانُ رأسك فى الـوســادةِ فى　　قلـبى بـقـــايا كــــوكـبٍ هاو
وقـمـيـصُكِ البـاكى أما بقـيتْ　　فيـــه حـرارةُ جســمك الذاوى؟
كـــيـف انطـويتِ وأنـتِ خـــالـدةٌ فى أدمـــعى؟ شُـلَّتْ يـدُ الطـاوى

أصْـغى وهل تُصْـغين؟ هـل بَلَغتْ مـثـواكِ أصـداءُ ارتعـاشـاتى
كـيـف انتـفـضتُ وأنـتِ هامـدةٌ فى مـخـلَبَىْ ألمى وآهـاتى؟

تتـعـثَّـرُ النَغَـمـاتُ فى شـفـتى بـصُـراخِ أحـزانى وأنّاتـى
مـزّقـتُ أيامى الـتى سَـلفَـتْ ودفـنـتُ فـيـكِ بشـاشـةَ الآتى
وأضـعتُ أفـراحى ومن عَـبَـثٍ شِـبْـهُ ابتـسـامـاتى وضُـحكـاتى

١٩٤٨

الكوليرا

سكَن الليلُ
اصغِ إلى وَقْع صَدَى الأنَّاتْ
فى عُمْق الظلمة، تحتَ الصمتِ، على الأمواتْ
صرَخاتٌ تعلو، تضطربُ
حزنٌ يتدفقُ، يلتهبُ
يتعثَّر فيه صَدَى الآهاتْ
فى كل فؤاد غليانُ
فى الكوخِ الساكنِ أحزانُ
فى كل مكان روحٌ تصرخُ فى الظُلُماتْ
فى كلِّ مكان يبكى صوتْ
هذا ما قد مَزَّقَهُ الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتْ
يا حُزْنَ النيلِ الصارخِ مما فعلَ الموتْ

طَلَع الفجرُ
اصغِ إلى وَقْع خُطَى الماشينْ
فى صمتِ الفجْر، اصِخْ، انظُرْ ركبَ الباكين

عشرةُ أموات، عشرونا
لا تُحْصِ اصِخْ للباكينا
اسمعْ صوتَ الطفْل المسكين
مَوْتَى، مَوْتَى، ضاعَ العددُ
مَوْتَى، موتَى، لم يَبْقَ غَدُ
فى كلِّ مكان جَسَدٌ يندُبُهُ محزونْ
لا لحظَّةَ إخلاد لا صَمْتْ
هذا ما فعلتْ كَفُّ الموتْ
الموتْ، الموتُ، الموتْ
تشكو البشريّةُ تشكو ما يرتكبُ الموتْ

الكوليرا
فى كَهْفِ الرُعْب مع الأشلاءْ
فى صمْتِ الأبدِ القاسى حيثُ الموتُ دواءْ
استيقظَ داءُ الكوليرا
حقْداً يتدفّقُ موتورا
هبطَ الواديْ المرِحَ الوُضّاء
يصرخُ مضطرباً مجنونا
لا يسمَعَ صوتَ الباكينا
فى كلِّ مكانٍ خلَّفَ مخلبُهُ أصداءْ

فى كوخ الفلاّحة فى البيتْ
لا شيءَ سوى صرخَات الموتْ
الموتْ، الموتُ، الموتْ
فى شخص الكوليرا القاسى ينتقمُ الموتْ

الصمتُ مريرْ
لا شيءَ سوى رجْعِ التكبيرْ
حتّى حَفّارُ القبر ثوَى لم يبقَ نَصيرْ
الجامعُ ماتَ مؤذّنُهُ
الميّتُ من سيؤبّنُهُ
لم يبقَ سوى نوْحٍ وزفيْر
الطفلُ بلا أمٍّ وأبِ
يبكى من قلب ملتهبِ
وغداً لاشكَّ سيلقفُهُ الداءُ الشرّيرْ

يا شبَحَ الهيْضة ما أبقيتْ
لا شيءَ سوى أحزان الموتْ
الموتُ، الموتُ، الموتَ
يا مصرُ شعورى مزّقَهُ ما فعلَ الموتْ

١٩٤٧

لنكن أصدقاء

لنكنْ أصدقاءْ
فى مَتاهات هذا الوجود الكئيبْ
حيثُ يمشى الدَمارُ ويَحْيا الفَناءْ
فى زوايا الليالى البطاءْ
حيثُ صوتُ الضَحايا الرهيبْ
هازئاً بالرجاءْ
لنكنْ أصدقاءْ
فعيونُ القَضَاءْ
جامداتُ الحَدَقْ
ترمقُ البَشَرَ المُتْعَبينْ
فى دروبِ الأسى والأنينْ
تحتَ سوطِ الزمان النَزِقْ
لنكنْ أصدقاءْ،
الأكفُّ التى عَرفَتْ كيف تَجْبى الدماءْ
وتحُزُّ رقابَ الخليّين والأبرياءْ
ستحسُّ اختلاجَ الشعورْ
كلَّما لامستْ إصبْعاً أو يدا

والعيونُ التى طالما حدّقتْ فى غرورْ
ترمُقُ الموكبَ الأسودا
موكبَ الرازحينَ العبيدْ
هذه الأعينُ الفارغاتْ
ستُحسُّ الحياةْ
ويعودُ الجُمُودُ البليدْ
خلفَها ألفَ عرْق جديدْ
والقلوبُ التى سَمِعَتْ فى انتعاشْ
صرَخات الجياعِ العطاشْ
ستذوبُ بكاءً على الجائعينْ
ستذوبُ لتسقى صدَى الظامئين
كأسةً ولتكنْ ملئتْ بالأنينْ

لنكنْ أصدقاءْ
نحنُ والحائرون
نحنُ والعزَّل المتعبونْ
والذينَ يُقال لهم «مجرمونْ»
نحنُ والأشقياءْ
نحنُ والثملونَ بخمرِ الرجاءْ

والذينَ ينامونَ فى القفر تحت السماءْ
نحن والتائهون بلا مأوى
نحن والصارخونَ بلا جدوى
نحن والأسَرى
نحن والأممُ الأخرى
فى بحارِ الثلوجْ
فى بلادِ الزُّنوجْ
فى الصحارى وفى كلّ أرضٍ تضمُّ البشر
كلِّ أرضٍ أصاختْ لآلامنا
كلِّ أرضٍ تلقتْ توابيتَ أحلامنا
ووعتْ صرخَات الضَجَرْ
من ضحايا القدَرْ

لنكنْ أصدقاءْ
إن صوتاً وراءَ الدماءْ
فى عروقِ الذين تساقَوْا كؤوسَ العداءْ
فى عُروقِ الذينَ يظلّون كالثملين
يطعَنونَ الإخاءْ
يطعنونَ أعزّاءَهم باسمينْ

فى عُروقِ المحبّينَ... والهاربينْ
من أحبّائهم، من نداءِ الحنينْ
فى جميعِ العُرُوقْ
إنَّ صوتاً وراءَ جميعِ العُرُوقْ
هامساً فى قرارةِ كلِّ فؤادٍ خَفُوقْ
يجمعُ الأخوةَ النافرينْ
ويشُدُّ قلوبَ الشقيّينَ والضاحكينْ
ذلكَ الصوتُ، صوتُ الإخاءْ
فلنكنْ أصدقاءْ

فى بعيدِ الديارْ
ووراءَ البحارْ
فى الصحارى، وفى القُطْب، فى المدُنِ الآمنه
فى القُرَى الساكنه
أصدقاءٌ بَشَرْ
أصدقاءٌ ينادونَ أينَ المَفَرْ؟
ويصيحونَ فى نَبْرةٍ ذابله
ويموتونَ فى وَحْدةٍ قاتله
أصدقاءٌ جياعٌ، حُفَاةٌ، عُراه

لفظتْهم شفاهُ الحياهْ
إنهم أشقياءْ
فلنكنْ أصدقاءْ

من بعيدْ
صوتُ عَصْف الرياحِ الشديدْ
ناقلاً ألفَ صوت مديدْ
من صُرَاخ الضَحَايا وراءَ الحُدُود
فى بقاعِ الوجودْ
الضحايا، ضحايا العراكْ
وضحايا القيُودْ
وصدَى «هيَاواثا» هناك
مُثقلا بأنينِ الجياعْ
بأسَى المصطلينَ لَظى الحُمَّى
بالذينَ يموتون دونَ وَدَاعْ
دون أن يَعرفوا أُمَّا
دونما آباءْ
دونما أصدقاءْ

١٩٤٨

جنازة المرح

سأغلق نافذتي فالضياء
يعكّر ظلمتيَ البارده
سأسدل هذا الستار السميك
على صفحةِ القصةِ البائده
وأطرُدُ صوتَ الرياح البليد
وإشعاعةَ الأنجمِ الحاقده
وأسندُ رأسي إلى الذكريات
وأغمس عينيَّ في دمعتينْ
وأرسلُ حبي يلفُّ القتيل
ويُدْفئُ جبهتهُ الهامده
لعلي أردُّ إليه الحياة
وأمسحُ من زُرقه الشفتينْ

سأغلقُ نافذتي فالقتيل
يحبُ الظلامَ العميقَ العميق
وأكرَهُ أن يتمطى الضياء
على جسمه الشاعريِّ الرقيق
على جبهة زرعتها النجوم
ولونَّها ضوؤها بالبريقْ
وكانت تُشعُّ الحياةَ فعادت
تمجُّ الأسى والرَّدى والعذابْ
تخطُّ عليها ذراعُ الممات
أساطيرَ عهدِ سحيقٍ سحيق
أمرُّ عليها بكفي فأصرُ
خُ رعباً وأسقط فوق الترابْ

سأغلقُ نافذتي فالظهير ... ةُ لا ينتهي حِقدُها الراعبُ

تصبُّ سكينتها في برود ... ويسخرُ بي وجهُها الغاضبُ

يطاردُني صمتها السرمديُّ ... ويكئبني لونها الراسبُ

وأينَ المفرُّ؟ تكاد الستائر ... تدخلها غرفتي المظلمه

وأين المفرُّ؟ وهذا القتيلُ ... يروِّعني وجهه الشاحبُ

أمامي القتيل وخلفي الظهير ... ةُ يا للمطاردةِ المؤلمه

سأصبرُ حتى يجيءَ الدُجى ... ويغرب خلف الوجود الضياءْ

فأحملُ هذا القتيلَ البريء ... إلى هوةٍ من كهوف المساءْ

أسيرُ بأشلائه موكباً ... بطيءَ الخطى كليالي الشتاءْ

وتتبعني شَهقَاتُ التذكـ ... ـرِ مهمومةً في أسىً وشرود

وفي آخر الموكب المترنحِ ... وجهٌ يشيِّعُهُ في ازدراءْ

وفي آخِرِ الموكبِ المترنح ... وجهٌ يشيعهُ في بُرُودْ

عَرفتُ الجبينَ عرفت الشفاه ... وهذى العيون الغلاظ الأديمْ
عرفتُ بها وجه حزنى الدفين ... وقد عاد يَحملُ جرحى القديم
وفى يَده مُديةٌ لم يَزَلْ ... على حدّها دمُ أمسى الأليم
عرفتُ العدوَّ اللجوج هَناك ... يسيرُ على أثر الموكبِ
يُحدِّقُ مستهزئاً بالقتيل ... ويضحك ضحكةَ فظٍّ أثيم
نعم هوَ.. أعرفهُ جيدا ... فكم مرةٍ قبلُ قد مرَّ بى

وأبصرتُ فى أثرى ألف طيفٍ ... حزينٍ تلفّعَ بالعبراتْ
عرفتُ بها البسماتِ التى ... لَقيتُ بها لَطَماتِ الحياةْ
عرفت بها الضحكات التى ... سكبتُ نداها على الذكرياتْ
أهذى إذنْ بسماتى؟ حناناً ... أعدنْ عبوساً ورجع أنين؟
أهذى إذن ضحكاتى أهذي ... نهايةُ ما صُغتُ من بسمات؟
وهذا القتيلُ أحقاً فقدتُ ... به مرحى المضمحلِّ الدفين؟

١٩٤٨

يوتوبيا فى الجبال

«مهداة إلى اختى إحسان التى شهدت معى مولدها عند عين الماء الثلجية المتحدرة بين صخور سرسنك الملونة».

تفجّرى يا عيُونْ
بالماء، بالأشعةّ الذائبه
تفجّرى بالضوء، بالألوان، فوقَ القرْية الشاحبه
فى ذلكَ الوادى المُغَشّى بالدُجَى والسكونْ
تفجّرى باللحونْ
فوقَ انبساط السفْحِ بين التلالْ
فى المُنحَنَى حيثُ تموجُ الظلالْ
تحتَ امتداد الغُصُونْ
تفجّرى بالجَمالْ
وشيّدى يوتوبيا فى الجبالْ
يوتوبيا من شَجَراتِ القِمَمْ
ومن خرير المياهْ
يوتوبيا من نَغَمْ
نابضةً بالحياه

تفجَّرى، سيلى على مُنحَدَراتِ الصُخُور
حيث يطيرُ الفَرَاشْ
فى نشوةٍ وارتعاشْ
تفجَّرى حيثُ تنامُ الطيورْ
فى جنَّةٍ من عُطورْ
حيثُ يُغطِّى السَفْحَ غابٌ كثيفْ
صنوبرىٌّ الحفيفْ
تفجَّرى نقيَّةً فوق حَصَى المُنحدَرْ
فى عطفةِ الوادى العميقِ المخيفْ
فى ظُلَلِ الجَوزْ الرقيقِ الوريفْ
تحتَ انبساطِ الشجرْ
تفجَّرى فى الصباحْ
تفجَّرى جارفةً كالرياحْ
تفجَّرى فى الغروب
وشيدى يوتوبيا من قلوب
من كل قلبٍ لم تَطأْهُ الحقودْ
ولم تدنسهُ أكفُّ الركودْ
من كلِّ قلبٍ شاعرىٍّ عميقْ
لم يتمرَّغْ بخطايا الوجودْ

من كلٍّ قلبٍ رقيقْ
مستغرقٍ في حُلمه لايُفيقْ
إلا على حُلمٍ بعيدِ المدى
ليسَ له من حدودْ
حُلمٌ تحدى الغدا
من كلِّ قلبٍ لا يُطيقُ الجُمودْ
ولا صريرَ القيودْ
تفجّري بيضاءَ فوق الصَخَرْ
لوناً وضوءاً يتحدى كل رجس البشرْ
تفجَّري لن يسأم المنحدر
سيلي على النائمينْ
وأغرقي تهويمةَ الظالمين
فيضي على الميِّتينْ
على قُلوبٍ لا تحسُّ الحنينْ
على عيونٍ لم تُطهرْها أكفُّ البكاءْ
على نفوسٍ لاتحسُّ السماءْ
على أكفٍ تجهل الكبرياءْ
سيلي بعيدا في القرى الجائعه
حيثُ الحُفاةُ العُراه

وحيث لايبلُغُ سمعَ الحياه
إلا صُراخُ الأنفس الضارعه
إلا عُواءُ الذئابْ
فى عَطفة الوادى الشقىِّ الحزينْ
فى شاهقات الهضابْ
وحيثُ لاتُبْصرُ عينُ السنينْ
إلا أسى المتعَبينْ
قوافلٌ يحدو بها أشقياءْ
فى جنَّة من رخَاءْ
قوافلُ الجائعينْ
فى ذلك الوادى الخصيبِ التُرابْ
قوافلُ الظامئينْ
يلتمسونَ السَرابْ
والماءُ يجتاحُ انزلاقَ السنينْ
قوافلٌ للملالْ
يحرِمُها الكدُّ نقاءَ الجبالْ
قوافلٌ مَجَّتْ رنينَ الفؤوسْ
وغيرُها للكؤوسْ
للنومِ والأحلامِ تحتَ الظلالْ
أنصافُ موتى لاتُحِسّ الجمالْ

تفجَّرى يا مياهْ
تفجَّرى فوقَ قُبور البَشَرْ
تفجَّرى فى الصَخَرْ
وسجِّلى مأساةَ هذى الحياهْ
فوقَ جبينِ القَدَرْ
ما زالت القريةُ منذُ القدَمْ
أُقصوصةً ممزوجةً بالألَمْ
قصّت أساها الرياحْ
على شُحوبِ الصباح
تفجرى، سيلى وغطّى القمم
ألقِى على القصّة سترَ العَدَمْ
لا تذكرى هذا النشيدَ الحزينْ
ما كانَ إلا رجعَ صَوتٍ وهونْ
أصغتْ إليه السنينْ
فى لحظةٍ، ثم مَضتْ فى سُكون

سرسنك ١٩٤٨

وجوه ومرايا

يا كـؤوسَ الأحـلامِ يا من تخـيّلـ ــتُك أفـقـاً تضـمُّـهُ الأضـواءُ
آه لو تُـدْركـين كـيف أحسُّ الـ ـكونَ صـحـراءَ خلفَـها صَـحْـراءُ
والرحـيـقُ الذى حَلُمْتُ بـه كـيـ ـفَ طـوتْهُ المرارةُ الخـرسـاءُ
كيفَ حـينَ استلمتُ كـأسىَ أرسلـ ـتُ دمـوعى ولم يُـفـدنى ارتواءُ

ارتوائـى؟ أوّاهُ من حُـرَق الـرُّو حِ لمـاذا تظَـلُّ روحىَ ظـمـأى؟
ارتوائى؟ هـذا السَّرابُ الـذى ير كـضُ قـلـبـى وراءَهُ وهْـوَ ينـأى
ارتوائى حَـسِبْتُـهُ شـفـقـاً حُلـ ـواً فلمّـا دنوتُ لم أرَ شـيـئـا
ليس إلا اللاشـىءُ يصـدِمُ شـوقى ويُذيبُ الأحـلامَ جُـزْءاً فـجـزءا

الفـراغُ الفـراغُ يـقـتلُـنى أوَّ اهُ لو كـان للوجـود وجـودُ
آهِ لو لـم تَحُـلْ مـواقـعُ أقـدا مى امـتـداداً حـدودُهُ اللاحـدودُ
السكـوتُ السكوتُ يَفْـغَـرُ فـاهُ وغـداً يـغـرُبُ الهَـوَى والنشـيـدُ
والظـلامُ الظـلامُ يُطْـفِئُ عـيـنىَّ فـمـاذا أحسُّ؟ مـاذا أريدُ؟

أيّهــا الليلُ لـيلَ روحىْ أمـــا من ملـجــأ مـن بُرُودة الـظلمـــاء؟
ظمــأ صـارخٌ بـأعـمــاق نفـسى لشُــعَــاعٍ مُــسَلْسلٍ من ضـيــاء
آه لو لـم يَحُـلْ رجـــائى الإلـهىُّ سَــراباً ضَــحْــلاً وبعضَ عــزاء
آهِ لو كــانتِ الســعــادةُ شــيـئـاً غيــرَ هذى الفُــقَاعـةِ الـسـوداء

لقّــبوها الحـيــاةُ وهى اضطرابٌ أبـدىٌ ولهـــــفــــةٌ لاتَـقَـــــرُّ
وامـــتــــدادٌ للاّنهـــايةِ لايـبـ ـدأ لايـنتــهـى فــأينَ المفــرُّ؟
لقــبّونـى «أنا» ولم يَفْــهــمـونى مــا أنا مــا وجـودىَ المكفـهــرُّ
أنا مـــاذا؟ تحـــرُّقٌ ليس يـرتا حُ وظلٌ سُـرعـانَ مـا سيــمرُّ...

فى صــفـاء المرآة حـدّقْـتُ فى طيـ ـفى طويـلاً والشكُّ فى مــقلتيّــا
كــائنٌ شــاحبٌ يحــدّقُ فى وجـ ـهىَ مــثلى مــحــيّــراً مطـويّا
هـذه هـذه أنـا لـيـس مـن شكٍّ فلـم لا أمَـــسُّــهـــا بيـــديّا؟
لـم لاَ أســـــتـطيـعُ أن ألمُسَ الـذا تَ؟ وأمــحـــو تحـرُّقى الأبديّا؟

ثم مــاذا! أمُـدُّ كـفّىَ فى شــو قِ عـــمــيق فــلا أعــانقُ ذاتى
صـــدمــةٌ صــدمـــةٌ تمزّقُ روحى لَــيــس إلّا بُــــرودةُ المـــرآة
الزجـــاجُ الجـــبّـارُ شَفَّ ولـكنْ عن مــثــال مــشــوَّه للـحـيــاة
عن كـيـــانٍ رسـمـتُـهُ أنا وحـدى فــإذا غـبتُ غــابَ فى الظُّلُمــات

الكيـانُ الممسـوخُ ها أنا أمـحو ... هُ كَـفـاهُ هُـزْءاً بنار أسـايا

ضـربةٌ من يدى تحطّمت المر ... آةُ فوق الثَرَى وعادت شظايا

ليتَنى كنتُ صُنْتُها عادَ وجهى ... ألفَ وجه تُطِلُّ منها الضَحايا

ليتنى كنتُ صنتُها ليتنى أعـ ... ـلمُ كيفَ المرآةُ عادتْ مَرَايا

١٩٤٧

قبر ينفجر

ناديتُ أكداسَ الرمالِ: تفجَّرى
لن تَدْفنى جَسدى النقىَّ الثائرا

وهتفتُ يا روحَ المماتِ: تمزَّقى
لن تحبسى قلبى الجرىءَ الساخرا

وصرختُ بالأرض الدنيئة: ارفعى
من قلبِ هذا الطين روحى الشاعرا

هذا فؤادى نابضاً، هذا دمى
متفجّراً تحتَ الترابِ مشاعرا

بالأمسِ فى هذا الظلامِ دفنتنى
تحتَ الثَرىَ ولففتنى بصخُورهِ

لم تَسمعى دقّاتِ قلبى فى الدُجى
وأشحتِ عن إحساسه وشعُورهِ

لم تَفهمى روحى وخلتِ سكونَهُ
موتاً ولم يبلُغكِ رَجْعُ هديرِه

ووهمتِ أيتُها الحياةُ فلم ترَى
فى أدمعى غيرَ الردَى وفتورهِ

ما نَفْعُ أكداسِ التراب جميعها؟
الآنَ ينفجر التُرَابُ الغاصبُ

الجُثة الظَمأى التى أودعتها
بالأمس والوجهُ الكئيبُ الشاحبُ

الآنَ يَنْفجرانِ ناراً حيَّةً
ويسابقُ الإعصارَ روحى الصاخبُ

والآن ينبثقانِ من قلبِ الثَرى
ويعودُ لى الأملُ الجميلُ الذاهبُ

مـا خلتـه صَـخْـراً إليك وجيبـهُ ... مـا خلتـه صَـمْـتـاً إليك نـشيـدهُ
القـبرُ ضَجٌّ وضـاق تحتَ عـواطفى ... والطيـنُ حـولـى لن أُطيق رُكـودَهُ
هذا الرَمـادُ حـذار من أعـمـاقـه ... فـوراءَهُ جـمْـرٌ نسـيت رعـودَهُ
يا من حَـسبْتِ النـارَ طيناً خـامـداً ... ونسيت إعـصـارَ الصبـا وخُلودَهُ

هذى العـيونُ حـذار منهـا، إنهـا ... خلفَ الجـفـون عـميـقـةٌ أغـوارُها
هذى العـروقُ حَـذار من فَـوَرانهـا ... فغـداً سيصرُخُ فى المدى إعـصارُها
هذى الشـفـاهُ حـذار من سكَنَاتهـا ... فـغـداً ستجـتـاحُ المدى أشـعـارُها
هذا الفـؤادُ حَـذارِ من غَـفَـواَته ... فـوراءَ رقـدته الحـيـاةُ ونارُها

ناديتُ أكـداسَ الرمـال: تفـجَّـرى ... وهتـفتُ يا روحَ المـمـات، تمزّقى
وصرختُ بـالأرض الدنيئـة ارفعى ... أسْرَ التـراب عن الشـبـاب المرهَقِ
فـإذا الحيـاةُ مُشيحـةٌ عن صرختى ... لم يأتـهـا نَغَمُ اللهـيـبِ المُحـرِقِ
وأنا عـلى صَـدْرِ التُـرابِ تمرّدٌ ... حُـرٌّ ونارُ تـوثّبٍ وتحـرُّقِ

لم يـبقَ إلا أن يحطِّمَ سـاعـدى ... هذى القـيـودَ وها أنا، هذى يدى!
سـأفجّرُ القـبرَ الـصغـيرَ حجـارةً ... وأطيرُ من أمسى القريبِ إلى غدى
وسأصـرعُ الموتَ الضعـيفَ وأنثنى ... بمخـاوفى وسـعـادتى وتنهّـدى
وسأنثرُ الألحانَ فى صـمتِ الدجى ... يا أنجمَ الليلِ المـضيئـةَ فـاشـهـدى

ناديتُ أكداسَ الرمال تفجَّرى فتفجَّرتْ تحتَ المساء المُظلِمِ

وجمعتُ أحلامى ومزَّقتُ الثرى بصفائها ووقفتُ تحتَ الأنجمِ

وفتحتُ صدرى للضياءِ وسحره وصرختُ بالكون الجميل الملهمِ

أنا حيّةٌ يا أرضُ، هذى نغمتى هذا نشيدُ فؤادىَ المتكلِّمِ

١٩٤٧

ذكريات

كـــانَ ليْـلٌ، كـــانـتِ الأنجُمُ لُغــــزاً لا يُـحَلُّ
كـــان فى روحـىَ شىءٌ صـــاغَــهُ الصـمـتُ المُملُّ
كـــان فى حـسّىَ تخـديرٌ ووعْىٌ مــضـمـحلُّ
كـان فى الليلِ جُـمـودٌ لا يُطاقُ
كـانتِ الظُّلمـة أسـراراً تُراقُ
كنتُ وحـدى لم يكـن يتـبَعُ خَطْوى غـيـرُ ظلى
أنا وحـــدى، أنا والليل الشـــتـائىُّ... وظـلى

لم أكـنْ أحْلُـمُ لكـن كـــانَ فـى عـــينىَّ شىءُ
لم أكـنْ أبسـمُ لكـن كـــان فـى روحىَ ضــــوءُ
لم أكـنْ أبكـى ولكـنْ كـــان فـى نفـــسى نَوْءُ
مــرَّ بى تذْكـارُ شىء لا يُحَــدُّ
بعضُ شىء مـا لَهُ قـبلٌ وبَعْـدُ
ربَّمــا كـانَ خـيــالاً صــاغَـــهُ فكرىْ وليـلى
وتـلفـتُّ ولكـنْ لم أقـــابـلْ غـــيــرَ ظلـى

كـــان صــمْتٌ راكــدٌ حــولى كــصَمــت الأبديَّه
مــاتت الأطيــارُ أو نــامتْ بأعــشــاشٍ خــفــيَّــه
لم يـكنْ ينطـقُ حـــتى الرَغـــبـــاتُ الآدمـــيَّـــه
غيرَ صَـوْتٍ رنَّ فى سَمْعى وذابا
لحظةً لـم أدرِ حــتى أينَ غـــابا
آه لو أدركــتُ من ألــقـــاهُ فى الـصَــــمْتِ المُملّ
أتراني لم أكـنْ أمـــشـى أنا وحــــدى وظـلى؟

كـــانـت الظُلْـمـــةُ تمتـــدُّ إلـى الأفُقِ الغـــريبِ
كلُّ شيء مــغـرَقٌ فـيـهـا كلقبى، كـشُـحُــوبى
ظلـمـــةٌ ممتـــدَّةٌ كـــالـوهْم كـــالموتِ الرهـيبِ
غـيرَ ضـوْء خاطـف مَرَّ بجَفْنى
لحظةً لم تَدْرِ مـــاذا كَـانَ، عـينى
كـــانَ ضـــوءاً لوْنُهُ لونُ خَـــيـــال مـضـمـــحلّ
مـــرَّ بى لَمْـــحـاً وأبـقـانـى أنا وحْـدى وظـلّى

كـــان فى الجــوِّ الشــتــائىّ ارتعـــاشٌ وجــمُــودُ
جَــمَـــدَ الظلُّ من الـبَــرْد وغــشَّـــاهُ الركُـــود
لـيـلةٌ يرجـفُ فى أجـــوائـهـــا حـــتى الجلـيـــدُ
غيرَ دفء طاف فى قلبى الوجيعِ

فزتُ فيه من شتائى بربيعِ
وإذا فى عُمْق قلبى فرحةُ الفَجْر المظلّ
غيرَ أنى كنتُ فى الليلِ أنا وحدى وظلى

كانَ فى روحى فَراغٌ جائعٌ كاللاّ نهايه
كانَ ظلى صامتاً لا لحنَ لا رجْع حكايه
باهتاً يتبَعُ مَسْرَى خُطُواتى دونَ غايه
غيرَ كأسٍ عَبَرت حين صرَخْتُ
قطرةٌ واحدةٌ ثم ارتويتُ
أتراهُ كانَ أكذوبةَ إحساسى المُضلّ
أوَما كنتُ أنا وحدى مع الليلِ وظلّى؟

كان قلبى مُتعَباً يسكنُهُ حُزْنٌ فظيعُ
رقصتْ فيه وشدتْه إلى الجُرْح دُموعُ
صورٌ فى قَعْره يصبُغُ مرآها النجيعُ
كانَ، لكنَّ يداً مرَّتْ عليه
حملتْ بعضَ تحاياها إليه
باركتْ آلامهُ السوداءَ كانت يدَ طفْلِ
أىُّ طفْلٍ؟ لم يكنْ فى الليل غيرى غير ظلى

١٩٤٨

تهم

أعبِّر عمَّا تُحسُّ حياتى وارسمُ إحساسَ روحى الغريبْ
فأبكى إذا صدمتنى السنين بخنجرها الأبدىِّ الرهيبْ
وأضحكُ مما قضاهُ الزمان على الهيكل الآدمىِّ العجيبْ
وأغضبُ حين يُداسُ الشعور ويُسْخَرُ من فَوَران اللهيبْ

أعبِّرُ عن كلِّ حسٍّ أعيهْ
وأبكى الحياةَ ولا أُنْكرُ
وأضحكَ من كلِّ ما تحتويهْ
وأغضبُ لكنَّنى أشعُرُ

يقولونَ شاعرةٌ فى السَحاب تحلِّقُ خلفَ سَراب النجومْ
أنانيَّةٌ لا تُحسُّ الوجود وإن صرعتهُ جبالُ الغمومْ
خياليَّةٌ تمقُتُ الكائنات وتخلُقُ عالَمها فى الغيومْ
خريفيَّةٌ تكرَهُ الضاحكين لتدفِنَ جبهتها فى الهُمومْ

أنانيَّةٌ وأحبُّ البَشَرْ
خياليَّةٌ وحياتى تسيرْ
خريفيَّةٌ وأناجى الزَهَرْ
وعاطفتى لهَبٌ من شُعورْ

يقــولونَ: عــاشــقــةٌ للظـلامْ تُحبُّ الدياجى وتَهْــوَى السُكونْ

وتنشــدُ أشـعـارَها للجـبـال	وتَرسمُ أحـلاَمـهـا للعـيـونْ

تحـبُّ الحـيـاةَ ولكنَّهــا	تعكِّرُها بخـيـال المُنـونْ

ترَى جـوَّها غـيـهـبـاً حـالكاً	يضـيقُ بآثـامـه المُلهَـمـونْ

أحـبُّ الظـلامَ ولـكـنـنـى

أثـورُ على كلٍّ أحـلامكم

أحبُّ الحـيـاةَ عـلى أننى

أحـقِّـرُ مـوكبَ أيامكم

يقـولونَ: جـامـدةُ الحسِّ تَحـيْـا	مع الأمـس فى حُلُمٍ جـامـدِ

يقـولون: صـوفيَّـةٌ فـالحيـاةُ	تنوحُ عـلى حِسِّـهـا الخـامـدِ

عـواطفُـهـا جَـمَـدَتْ كـالنجوم	كـتـهـويمـةِ القَـمَـرِ البـاردِ

وتحليـقُـهـا كـانَ ثم أمَّـحى	على صَـدرِ إحـسـاسـهـا الراكـدِ

يقـولـونَ لكنَّنى تـائهـه

ألوذُ بصَـمـتِى الخـفىِّ الغـريبْ

أعـيشُ حـيـاتىَ كـالآلهـه

وقلبى شـعـورٌ وروحى لهـيبْ

يقـولون دَعـهم غـداً يـعلمـون ودعنى أنـا للشَّـذى والجـمـالْ
أحبُّ الحـيـاةَ بـقلبى الـعـمـيق وأمـزُجُ واقـعـهَـا بالخـيـالْ
أحبُّ الـطبـيـعـةَ حبَّ جـنون أُحبُّ الـنخـيـلَ أُحبُّ الجـبـالْ
وأعـشَق ذاتى فـفى عـمـقـهـا خـيـالُ وجـودِ عـمـيقِ الظلالْ

وأهتُـفُ يا نارَ قـلبى الـغـريبْ
ومـوجَ أحـاسـيـسى الثـائره
إذا اتهـمـوا فلـمـاذا أُجـيبْ
بغـيرِ ابتـسـامتىَ السـاخـرَه؟

١٩٤٧

رماد

أهكذا داستْ علينا الحياه
لم تُبْقِ منا صَدَى
لم تُبْقِ إلا النَدَمَ الأسودا
وصَوْتَ وا خيبتاهْ

أهكذا لم يَبْقَ إلا الرَمَاد
في المَوْقِد الذابلِ؟
أليسَ من كوكبنا الآفلِ
إيماضةٌ تُستعادْ؟

أليس عنّا نَبَأ أو نشيدْ
أو هَمْسَةٌ واحده؟
ألم تَعُدْ قصَّتُنا البائده
توقظُ عِرقاً جديدْ؟

ألم يَعُدْ قطُّ لنا من مكانْ
في القصَّة الجاريه؟
أليسَ في كاساتنا الخاليه
شيءُ يهمُّ الزمانْ؟

وذلك المَوكبُ والسائرونْ
فوقَ ثَرَى المُنْحدَرْ
لم يُدركوا أنَّ هَوانا اندثر
في عُمْق قبرِ السكونْ

ووقع أقدام الهَوَى الراحله
إلى مكان بعيد
تنقُلُها الريحُ فلا تستعيدْ
ألحانَها القافله

ونحن ما زلنا نجُرُّ الحنينْ والأمسَ والذكرياتْ
أقيادُنا مثقَلَةٌ بالحياة ونحنُ في الميِّتينْ

ونحن ما زِلنا نسوق الرَّمادْ لنُطعمَ الموقدا
وأذرعُ الأحلام ترجو سُدَى خَلْقَ غَدٍ من جمادْ

وبعثَ ماضٍ لونُ أركانه مِنْ مِزَقِ الأحلامْ
أمسَى رهيباً تُنكِرُ الأيامْ عارىَ جُدْرانه

أمسَى بعيداً تحجُبُ الوديانْ أسوارُهُ القاتمه
تعيثُ فيه الهدأةُ الساهمه ويحكُمُ النسيانْ

والرِّيحُ لم تُبْقِ على بابِه حُروفَ أسمائنا
لم تُبْقِ حتى وقْعَ أقدامِنا في جَوِّ محرابِه

وربَّما طافتْ به في ذُهُولْ أشباحُناَ الباكيه
تطوفُ حولَ الغُرَفِ الخاليةِ سُدىً تُريدُ الدُخُولْ

أشباحُنا يُضلُّها الإعصارْ تحتَ غلاف الضبَّابْ
تَظَلُّ ولهى تلطُمُ الأبوابْ والحائطَ المُنْهارْ

أشبـاحُنا حــافـرةٌ فى ارتعــاد   مـــقــبــرةَ الـذكـــريـاتْ
لا صــورةٌ تنبُض فـيـهــا حيــاة   لا شـىءَ غـــيــر الرَّمَـــادْ

تُنصِتُ فى رُعْب وفى إعـيــاءْ   عنـد السـيـــاجِ الحـــزيـنْ
فـــلا تـعى إلا بـقــايـا أنيـنْ   تُـرسِلُـهُ الأقــــبــــاء

أشبـاحُنا تستـفـهمْ النسيـانْ   عن أمـــســـهــا الـضــائعْ
فــلا تَرىَ إلا الردَى الجــائعْ   يـقـــوِّضُ البُـنـيْــــان

وأذرعُ السَــرْو تَمُــدُّ الذُهُولْ   فــوق شُـــحــوبِ الخــرابْ
كـأنهـا تَقْـذفُ فـوقَ القُبـاب   مَـــعْـنـى الـرَدَى والـذُبـولْ

ولـفظـةٌ واحـــدةٌ واحـــده   تــكـــرَّرتْ فـــى المَــكــانْ
سـمـعـتُـهـا تفـحُّ كـالأفـعـوان   فـى الشُــرف البـــارده

أبصـرتُـهـا مكتـويةً باللـهيبْ   فـى الغُـــرَف البـــاليــه
وفــوقَ ســاقِ السـرْوة الـعـاريه   وفـى الـفِـنـاءِ الجـــديبْ

أحســتُـها تَهـمس معنىً «مَضى»   مـلءَ المســـاء الـكـئـيبْ
أبصـرتُهــا فى كلِّ ركنِ رهيبْ   أبـضـــرت لفـظَ «انقـــضـى»

وتلتــقى أشــبــاحُنا فــىَ المَســاءْ　　بـاردةً واجــــــمــــــه
تنـظُرُ فى تقـطيــبــةٍ ســاهمــه　　فــى سَــــوْرةٍ من غـــبـــاءْ

أشــبــاحُنا تطـلُبُ مــاضـيـنا　　لا تُــدْرِكُ الأســـــــرارْ
كـيف انقـضى؟ ألم يعـدْ فى الدارِ　　صـــــــــوْتٌ ينــادينــا؟

أهكـذا داستْ علينـا الحـيــاه　　لـم تُـبـقِ مــنــا صَــــــــدًى؟
لـــم تُــبْـــقِ إلا الـــنَــدمَ　　وصـــوْتَ واخــيـــبــتـــاه؟

١٩٤٨

الخيط المشدود فى شجرة السرو

-١-

فى سَوادِ الشارعِ المُظلم والصمتِ الأصمِّ
حيثُ لا لونَ سوى لونِ الدياجى المدلهمِّ
حيثُ يُرخى شجرُ الدُفلى أساهُ
فوقَ وجه الأرضِ ظلاّ،
قصةٌ حدّثنى صوتٌ بها ثم اضمحلا
وتلاشتْ فى الدّياجى شَفَتاهُ

-٢-

قصةُ الحبِّ الذى يحسبه قلبكَ ماتا
وهو ما زالَ انفجاراً وحياةَ
وغداً يَعصرُكَ الشوقُ إليّا
وتنادينى فتَعيَى،
تَضغَطُ الذكرى على صَدركَ عبثا
من جنونٍ، ثم لا تَلمُسُ شيئا
أىُّ شىءٍ حُلمٌ لفظٌ رقيقُ
أىُّ شىءٍ، ويناديكَ الطريقُ
فتُفيقُ.

ويراكَ الليلُ فى الدرْب وحيدا
تسألُ الأمسَ البعيدا
أن يعودا
ويراكَ الشارعُ الحالمُ والدُفْلى، تسيرُ
لونُ عينيك انفعالٌ وحبورُ
وعلى وجهك حبٌّ وشعورُ
كلّ ما فى عمق أعماقكَ مرسومٌ هناكْ
وأنا نفسى أراكْ
من مكانى الداكن الساجى البعيدْ
وأرى الحُلْمَ السعيدْ
خلفَ عينيكَ يُناديني كسيرا
.... وترىَ البيتَ أخيرا
بيتنا، حيثُ التقينا
عندما كان هَوانا ذلك الطفلَ الغريرا
لونُهُ فى شفتَينا
وارتعاشاتُ صِباهُ فى يَدَيْنا

-٣-

وترى البيتَ فتبقى لحظةً دونَ حراكْ:
«ها هو البيتُ كما كان، هناك

لم يزلْ تحجبُهُ الدُفلَى ويحنو
فوقَهُ النارنجُ والسروُ الأغنُّ
وهنا مجلسنا...
ماذا أُحسُّ؟
حَيرةٌ في عُمق أعماقي، وهمسُ
ونذيرٌ يتحدَّى حُلمَ قلبي
ربما كانت... ولكن فِيمَ رُعبي؟
هي ما زالتْ على عَهد هوَانا
هي ما زالت حَنانا
وستلقاني تحاياها كما كنا قديما
وستلقاني....».

وتمشى مطمئناً هادئا
في الممرِّ المظلم الساكن، تمشى هازئا
بِهتاف الهاجسِ المنذر بالوَهم الكذوب:
«ها أنا عُدت وقد فارقتُ أكداسَ ذنوبي
ها أنا ألمحُ عينيك تُطلُّ
ربما كنت وراءَ الباب، أو يُخفيكِ ظلُّ
ها أنا عُدَتُ، وهذا السلَّمُ
هو ذا البابُ العميقُ اللونِ، مالى أحجمُ؟
لحظـةً ثم أراها

لحظةً ثم أعى وَقْعَ خُطاها
ليكن.. فلأطرقِ البابَ...»

وتمضى لَحظاتْ
ويَصرُّ البابُ فى صوتٍ كئيبِ النَبَراتْ
وترى فى ظُلْمة الدهليزِ وجهاً شاحبا
جامداً يعكسُ ظلاً غاربا:
«هلْ...؟» ويخبو صوتُكَ المبحوحُ فى نَبرِ حزينْ
لا تقولى إنها...»

«يا لَلجنونْ!
أيها الحالمُ، عَمَّن تسألُ؟
إنها ماتتْ»

وتمضى لحظتانْ
أنت ما زلتَ كأنْ لم تسمعِ الصوتَ المُثيرْ
جامداً، تَرْمُقُ أطرافَ المكانْ
شارداً، طرفُكَ مشدودٌ إلى خيطٍ صغيرْ
شُدَّ فى السرْوة لا تدرى متى؟
ولماذا؟ فهو ما كانَ هناكْ
منذُ شهرينِ، وكادتْ شفتاكْ
تسألُ الأختَ عن الخيطِ الصغيرْ
ولماذا علَّقوهُ؟ ومتى؟

ويرنُّ الصوتُ فى سمعكَ: «ماتتْ..»
«إنها ماتتْ..» وترنو فى برودِ
فترَى الخيطَ حبالاً من جليد
عقدتها أذرُعٌ غابت ووارتها المَنُونْ
منذ آلاف القُرونْ
وتَرى الوجهَ الحزينْ
ضخَّمتْهُ سحُبُ الرُّعب على عينيكَ، «ماتتْ..»

-٤-

هى «ماتتْ..» لفظةٌ من دونِ معنى
وصَدى مطرقة جوفاءَ يعلو ثم يَفنى
ليسَ يعنيكَ تَوَاليه الرتيبُ
كل ما تُبصرهُ الآن هو الخيطُ العجيبُ
أتراها هى شَدَّتهُ؟ ويعلو
ذلك الصوتُ المُملُّ
صوتُ «ماتت» داوياً، لا يضمحلُّ
يملأ الليلَ صُراخاً ودويا
«إنها ماتت» صَدىً يَهمسهُ الصوتُ مليا
وهُتافٌ رددته الظلماتُ
ورَوَتهُ شجراتُ السرو فى صَوتٍ عميقِ

«إنها ماتت» وهذا ما تقولُ العاصفاتُ
«إنها ماتت» صَدَى يصرخُ فى النجم السحيقِ
وتكادُ الآن أن تسمعهُ خلفَ العروقِ

-٥-

صوتُ ماتتْ رنَّ فى كلِّ مكانِ
هذه المطرقةُ الجوفاءُ فى سَمع الزمانِ
صوتُ «ماتت» خانقٌ كالأفعوانِ
كلُّ حرف عصبٌ يلهثُ فى صَدركَ رُعبا
ورؤى مشنقة حمراءَ لا تملكُ قلبا
وتجنّى مخلبٍ مُختلجٍ ينهشُ نهشا
وصَدَى صوتٍ جحيميٍّ أجَشا
هذه المطرقةُ الجوفاءُ: «ماتت»
هى ماتت، وخلا العالمُ منها
وسَدىً ما تسألُ الظلمةَ عنها
وسَدىً تُصغى إلى وَقع خُطاها
وسُدَىً تبحثُ عنها فى القمر
وسدىً تحلُمُ يوماً أن تراها
فى مكانٍ غير أقباء الذكَرْ
إنها غابتْ وراءَ الأنجُمِ

واستحالتْ وَمضةً من حُلم

-٦-

ثم ها أنتَ هُنا، دونَ حَراكْ
مُتعَباً، توشكُ أن تنهارَ فى أرض الممرِّ
طرفُكَ الحائرُ مشدودٌ هناكْ
عند خيطٍ شُدَّ فى السروة، يطوى ألفَ سرِّ
ذلك الخيطُ الغريبْ
ذلك اللُغزُ المُريبْ
إنه كلُّ بقايا حبِّكَ الذاوى الكئيبْ.

-٧-

وَيراكَ الليلُ تَمشى عائدا
فى يديكَ الخيطُ، والرعشةُ، والعِرْق المُدَوِّى.
«إنها ماتتْ..» وتَمضى شاردا
عابثاً بالخيط تطويه وتَلوى
حولَ إبهامكَ أُخْراهُ، فلا شيءَ سواهُ،
كلُّ ما أبقَى لكَ الحبُّ العميقُ
هو هذا الخيط واللفظُ الصفيقُ
لفظُ «ماتت» وانطوى كلُّ هُتافٍ ما عداهُ

١٩٤٨

للقارئ

وردت في سياق القصائد بضع كلمات أوربية، قد يهم القارئ أن يقرأ لكل منها شرحاً موجزاً:

يوتوبيا Utopia

كلمة إغريقية معناها «لا مكان» استعملتها للدلالة على مدينة شعرية خيالية لا وجود لها إلا في أحلامي، ولا علاقة لهذه المدينة بيوتوبيا التي تخيلها الكاتب الانكليزي توماس مورفي في كتاب ألفه باللغة اللاتينية سنة ١٥١٦ ورسم فيه صورة سياسية ادارية للجزيرة المثلى كما يريدها هو، قياساً على جمهورية أفلاطون.

ديانا Diana

عند اليونان القدماء، إلهة القمر، وحامية الصيد، كانوا يتخيلون أنها تسوق عُربة القمر البيضاء كل مساء عبر السماء.

نارسيس Narcisse

زهرة النرجس في الأساطير اليونانية القديمة، إن نارسيس كان شابا فاتنا شديد الغرور بجماله، فعاقبته الآلهة على كبريائه بأن جعلته يعشق صورته، بعد أن رآها منعكسة في ماء بحيرة صافية ذات يوم، ثم رقت له فحولته إلى الزهرة التي مازالت تحمل اسمه.

ابولو Apollo

إله الوحى والفن، وقائد عربة الشمس فى الفضاء عند قدماء الإغريق، وهو شقيق ديانا التى مر ذكرها.

لابرنث Labyrinth

كلمة إغريقية الأصل، معناها بناء ذو مسالك معقدة وأبواب لا حصر لها، متصلة بعدد كبير من الممرات والدهاليز والأقباء، بحيث إذا دخله إنسان لم يملك الخروج منه.

وقد استعملت هذه اللفظة فى قصيدة «الأفعوان» اسما لطريق شيده «أمير غريب الطباع، ثم مات الأمير... وأبقى الطريق..» وربما كان باعث كلمة أمير فى ذهنى، اقتران كلمة- لابرنثوس- بشبه حكاية أسطورية تتعلق بتاريخ مصر القديم، فقد حكى عن هيرودوتس أنه حين مرّ بمصر رأى بناء غريباً هائل الضخامة أشبه بلغز كبير محيّر، من دخله لم يجد مخرجاً منه، شيده أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ومن يدرى؟ لعل الملك الذى شيد هذا البناء أراد أن يتخذ منه مخبأ لا يدركه فيه «أفعوانه» الخاص.

هياواثا Hiawatha

بطل أسطورة من أساطير هنود الشمال فى أمريكا أختارها الشاعر الأمريكى لونكفلو موضوعاً لملحمة شعرية كتبها سنة ١٨٥٥، والجزء الذى تهمنا الإشارة إليه من هذه الملحمة، أن زوجة هياواثا الشابة قد ماتت على أثر شتاء قاسٍ انشب ثلوجه وأعاصيره فى القرية، منزلا بسكانها الجوع والحمى والموت؛ ولذلك استعملت كلمة «هياواثا» فى قصيدة «النكن اصدقاء» رمزاً لصرخات الاستغاثة والشكوى فى أرض يموت سكانها مدفونين فى الثلج جائعين محمومين.

فهرست

مأساة الحياة

أغنية للإنسان(١)

أغنية للإنسان(٢) ٢١٧

عاشقة الليل

شظايا ورماد

في عام ١٩٤٧ صدرت لي أول مجموعة شعرية. وقد سمّيتها «عاشقة الليل» لأن الليل كان يرمز عندى إلى الشعر، والخيال، والأحلام المبهمة، وجمال النجوم، وروعة القمر، والتماع دجلة تحت الأضواء. وكنت فى الليل أعزف على عودى فى الحديقة الخلفية للبيت بين الشجر الكثيف، حيث كنت أغنى ساعات كل مساء. وقد كان الغناء سعادتى الكبرى منذ طفولتى، وكنت أحبس أنفاسى إذا ما سمعت صوت عبد الوهاب، أو أم كلثوم يحمله إلىّ جهاز حاك (غرامافون) يدور فى بيت الجيران، وكنت سريعة الحفظ لأى أغنية أسمعها، وكانت أمى لا تفتأ تندهش دهشة كبيرة عندما تسمعنى أغنى، وما زلت أذكر صوتها فى صغرى وهى تتلفت، وتقول: يا إلهى ! من أين حفظت ابنتى كل هذه الأغانى؟ ومتى سمعتها؟ وكيف؟ ولم تدر أننى كنت حين أسمع حاكيًا يدور بأغنية أقف مسمَّرة فى مكانى حتى لو كنت فى الشارع.

وفى تلك الأيام البعيدة لم يكن المذياع قد دخل الحياة فى العراق طبعًا، فكان الاستماع إلى الأغانى لا يتم إلا عن طريق الإسطوانات، ولم تبدأ إذاعة بغداد البث إلا فى سنة ١٩٣٥، كما أتذكر، يوم أن بلغت الثانية عشرة من العمر.

نازك الملائكة



المجلس الأعلى للثقافة